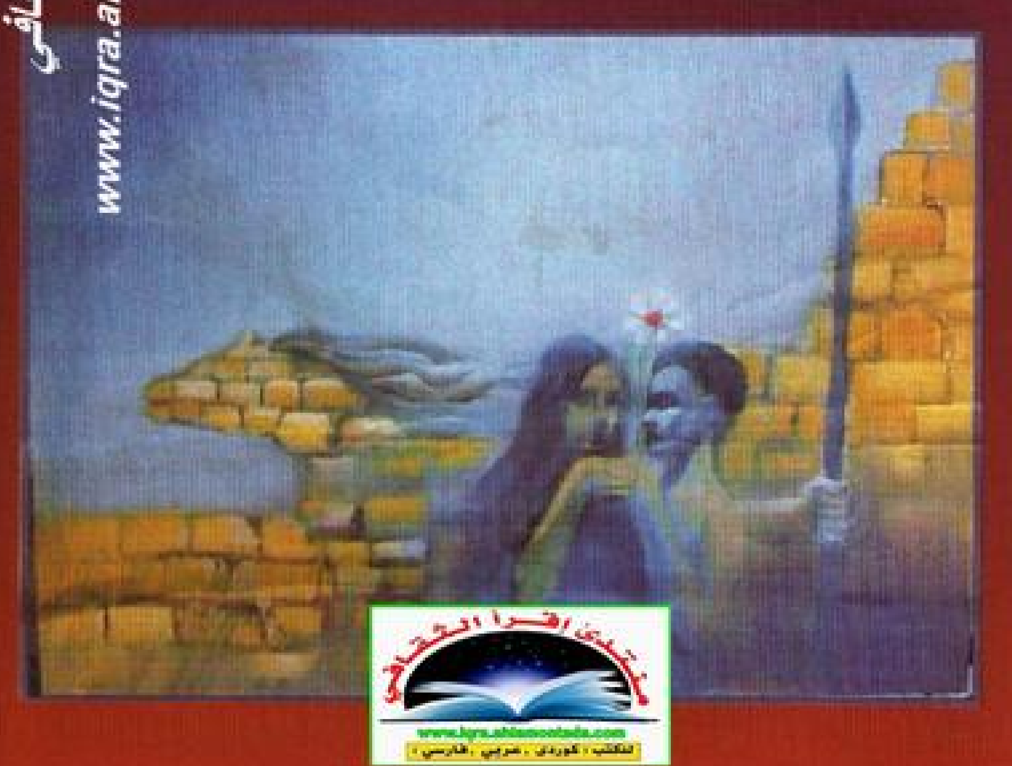
# الرحيل في المجهول





تأليف

سلام فواز العبيدي

2006

حكومة اقليم كوردستان
وزارة الثقافة
المديرية العامة للطباعة والنشر
تسلسل (٤٢٨)



# الرحيل في المجهول

سلام فواز العبيدي

سليمانية ٢٠٠٦

# الرحيل في المجهول

تاليف: سـلام فـواز العبيـدي

تصميم الكومبيوتري: مهدي احمد

لوحة الغـلاف: للفنان الشهيد رائد إسماعيل

تصميم الغلاف: دياري جمال

مشرف الطبع: سلام فاتح فتاح

المطبوع: ١٠٠٠ نسخة

رقم الايداع (٢٧٩)لسنة ٢٠٠٦ لوزارة الثقافة - حكومة اقليم كوردستان

# الإهــداء

- إلى عموم الشعب الكردستاني، هذا السيل البشري المقاوم عندما لاذوا برواسي الأرض جسراً للنجاة.
- وإلى قاطعي الفيافي مخاطرةً وسجلوا ملحمة نضالية نادرة.
- وإلى كافة فصائل المقاتلين (البيشمركه) حين تعاضــدوا وكــانوا والشعب مصيراً واحداً.
- ولمئات الألوف ممن حاصرهم سلاح الإبادة وخانهم الزمن الغــادر فوقعوا أسرى القلاع الحالكة وتعذيبها القاسي وجلــهم كــانوا وقوداً للمقابر الجماعية.
- وللحريصين على الأسرار في لحظات الموت

لهؤلاء جميعاً هذه المساهمة البسيطة.

المؤلف


## شكر وتقدير

الشكر لكل الأعزاء ممن ساهموا في إنجاز كتابي هذا

سلام فواز

## المؤلف

# سلام فواز العبيدي في سطور

❖ تولد ١٩٤٩ المنطقة الغربية من الأنبار.

❖ خريج معهد المهن الصحية في بغداد ومعاون وقائي.

❖ التحق بصفوف الأنصار أواخر عام ١٩٧٩ وقبلها بسنة ترك الوظيفة من جراء الملاحقة والتعسف من النظام المندثر.

❖ في أحداث الأنفال ١٩٨٨ وأسوة بالمهاجرين من كردستان دخل المدن التركية، مخيم ماردين ومن هناك إلى سوريا أواسط العام ١٩٨٩، ثم إلى العراق إبان انتفاضة شعبنا العراقي في آذار ١٩٩١ وعند تقويضها انسحب مع الجماهير إلى الحدود الإيرانية وعام ١٩٩٣ عاد للوظيفة في دهوك وحالياً متقاعد.

# كلمة المؤلف

كنت أستعين برأي الأصدقاء وملاحظاتهم عن المادة قبل صياغتها للطبع جلهم قالوا جيدة، لكنهم أرادوا فيها المزيد من الحيثيات، خاصةً في المحاور الأخرى مخيم بحركي المحاذي لمدينة أربيل، وجحيم الحياة هناك، وعن أخبار الفارين إلى إيران بعيداً عن تأثير الكيمياوي، ثم مغامرات مفارزنا واختراق الحدود صوب بلدان الجوار، وأن يشار بشيء من التفصيل عن جريمة حلبجة بما يدمغ مزاعم النظام الدكتاتوري القائلة إنه لم يفعل ذلك، ويتهمون إيران تضليلاً للناس برواية زائفة من أساسها، وعن تعذيب الآلاف في قلعة دهوك الرهيبة بشاعتها وسوء التعامل فيها، ثم لماذا تركنا السلاح مكشوفاً قبيل المخاطرة ودخول الأراضي التركية؟، وما هي أدوار القادة في المنعطفات؟، وأين هي الأسماء التي غيبتها الأحداث؟، على سبيل المثال قرية إيكماله في الدوسكي حين فقدت من رجالها بغضون ساعات (٧٥) رجل، وقرية كريمي المقاتلة، فقد طالتهم الجرائم أيضاً، وأودت بحياة (٤٨) من أبناءها رمياً بالرصاص تاركين عوائل عزلاء ومشاعر تدمي القلوب، وبعض الأصدقاء وسم المادة بالاستعراض الصحفي المميز وهمسات عن ضعف الصياغة من الناحية الأدبية، وبعض المفردات مشفوعة بتوصية على إبقاء النص الأصلي كما هو، ضماناً للمضامين الحارة، وقد تفاعلت

كل هذه الملاحظات مع جهد المؤلف المحدود وجواباً لكل التساؤلات الجادة المثارة نقول بأمانة:

إن هذه المذكرات على علاتها هي ميدانية حقاً وليس بالتقصي الشامل وذلك ارتباطاً بطبيعة الأحداث وقسوتها وإرباكاتها، لذا تراها تحمل ثغراتها في الميادين الأدبية والمعلوماتية، ومع هذا فقد عولجت بعض الثغرات قدر المستطاع، واستجابةً لآراء البعض واعتبار المادة حلقة الوصل المباركة -كما يقال- بين ماض مشرف وآت عصيب، لقد توخينا الدقة في نقل المواقف ومن واكب الأحداث يبقى يحمل عنها الذكريات الأليمة حد الانكسار في النفوس.

عزيزي القارئ...

مادامت هذه المادة البسيطة في طريقها للطبع أؤكد لكم أنني لم أدخر جهداً لتنقيحها من شوائبها وتحاشيت بعض الوقائع المؤلمة رأفةً بروحية المناضل، ومع هذا، لا زال في خلدي تصوراً عن نواقص ليست قليلة لم يكن في وسعي تفاديها من أساسها، وبالتأكيد سيطرقها القراء في جلساتهم الخاصة، ومن هذا المنطلق بالذات أعتذر كثيراً لكل هؤلاء الأعزاء عن أية زلة حصلت، وباختصار شديد ومصارحة أقول: إن هذه المادة الماثلة أمامكم هي خلاصة تلاحم مباشر في واحات الوغى، ولم نزور شيئاً منها، وقد عبرت آلاف المشاهد الهامة بسرعة البرق وعلى غفلة من الصحفي المبتدع، وربما بسبب تدني خبرته الصحفية، وكأنها أرادت خلط الأوراق، وتبرئة النظام الفاشي من جرائمه، لذا تجدر الإشارة بدرجة من المسؤولية على أن الصورة هي هكذا كانت غايةً في التعقد والتداعي، بل ملحمة

عاصفة لكنها مأساوية، والتدوين مسها من زوايا معينة، ومـــن يريـــد أن يراهـــا بخلاف ذلك ويبصرها من الوجه المشوه القاتل فله ما يشـــاء، ومـــن عاشـــها في أشواطها الأولى حتى الأخيرة يدرك أبعاد مراميها ومدى مرارتها، وتهزه أحـــداثها، ويثق بصدق الوثائق عنها.

المؤلف



# لمحات عن البداية

قبيل أن تضع الحرب العراقية الإيرانية أوزارهـــا، لاحـــت في الأفـــق مؤشرات توقفها، إذ أخذت تصريحات المسؤولين في البلدين تتسم بالهـــدوء الحذر وتبدي تفهماً غير معهود لعواقبها ومخاطر استمرارها أكثر، وبهذا فلقد كانت الأيام عشية اندلاع الأحداث بمثابة الهدوء أمام العاصفة وكل طـــرف فجأةً يدعي أنه أهل للسلم رافضاً للتزمت، في الأجواء الناشـــئة تـــواترت الأخبار والمعلومات من مصادر عديدة عن عزم نظام صدام على شن هجومه الكاسح المرتقب والذي لوح به كثيراً ضد كردستان كونها معقـــلاً للثـــورة المسلحة والذي لوح به كثيراً ضد كردستان كونها معقلاً للثورة المسلحة إلى جانب حقده الدفين على شعبها لعدم رضوخه لمشيئة قادسيته الكارثية. وقد انعكست هذه التبدلات السريعة في المواقف على عموم أوضاع كردســـتان أكثر من أي منطقة أخرى، حيث ارتبط هاجس الجماهير وقـــوى المعارضـــة الوطنية بضرورة التحسب لنتائج هذه التطورات ومعالجة الثغرات على وجه السرعة. أيام فقط حتى توقفت الحرب في ١٩٨٨/٨/٢٠ حيث الإعـــلان الفعلي مباشرة للإعداد لما سمي بالأنفال سيئة الصيت فأخذ الفزع يـــدب في

النفوس يوماً إثر آخر، ومع تصاعد أخبار المصالحة الشاملة راجت في غضون ذلك الإشاعات المكثفة والمدروسة وأحياناً المتناقضة تماماً فطرحت السلطة الدكتاتورية تصريحات عن حوار يجري مع القوى الوطنية للتفاهم ولكن الحقيقة الماثلة إنها تجري تصعيداً ميدانياً لقواها العسكرية بكل أصنافها وتتحدث عن قرب تصفية الحساب مع كردستان شعباً ومعارضةً مسلحة، وعقدت سلسلة من الندوات في العديد من المدن بهذا المعنى. من هنا فإن أخبار الاستعدادات العسكرية أخذت تتسرب بشتى الوسائل عن هجوم القوات الهائلة المكلفة بهذه المهمة وتزويدها بالصلاحيات الواسعة وبمختلف الأسلحة بما فيها الفتاكة وأسلحة الدمار البشري بدءاً من المدفعية الثقيلة والدبابات والراجمات والطيران والأسلحة الكيمياوية المذهلة وغيرها. لقد كانت التقارير تتحدث عن إجمالي حجم القوات المكلفة بالمهمة بأكثر من ١٦٠ ألف.

هكذا اندلع الخوف وكأن إيقاف الحرب هو إعلان لحرب ثانية أكثر جذوة وخطراً فكردستان مسرحها هذه المرة وبات معلوماً أن الأيام القادمة تحمل شيئاً من السوء وستشهد تطورات معينة ينبغي الاستعداد لها، وفي مقدمة ما يعنينا تطبيقه من إجراءات هو التخفيف في المقرات واتخاذ مواقع أخرى أكثر صيانة وأهلية للتحرك والمناورة، وإخفاء الأسلحة والأمور السرية من الوثائق إلى جانب نقل الأرزاق إلى أماكن محددة للضرورات

القادمة. وكانت توجيهات الأحزاب تقضي بضرورة التحول التـــدريجي إلى مفارز صغيرة وإيجاد مواقع لمقرات احتياطية إذا تطلب الموقف ذلـــك ودون تأخير وقد وصلت هذه التوجيهات في تموز ١٩٨٨ لكنها لم تنفذ في غالبـــها وإن كانت وجهة التطبيق قائمة لكن التنفيذ نفسه كفعل ملموس لم يتحقـــق، في وقت كانت للنظام حساباته الدقيقة، وبدأت قطاعاته العسكرية تتحرك في الليل والنهار، وأجهزته نشطت في مجال الإشاعات، وعلـــى صـــعيد ردود الفعل أخذت كل الهيئات للقوى السياسية والمجـــالس الجماهيريـــة تتنـــاول الجديد في الأوضاع السياسية... تناقش ذلك على قدم وساق فهذه قضـــية حياة أو موت... وفي هذا الظرف العصيب واجهت القوى السياسية صعوبة إقناع الجماهير بإمكانية الاستقرار في الأرض التي يســـكنون فيهـــا وعـــدم جدوى الاعتقاد القائل في أن تتمخض نهاية الحرب عن انفراج ديمقراطي.

إن حديثاً كهذا لا يجد إذناً صاغية ويتقاطع مع ما يجري علـــى الأرض من حركة والاندفاع الآتي من الأعماق. هناك مئات العوائل تنظر للأحداث من زوايا خاصة وحتى مصادرها للمعلومات خاصة فتظافرت كل الوســـائل الخاصة لتأخذ بهذه العوائل إلى المواقع البعيدة بحثاً عن حصانة مـــن المـــوت. ومنها من شدت الرحال قبل أشهر لتتخذ من بعض المواقع مستقرات لها في قرى الشريط الحدودي مع تركيا. فللجماهير رغم بساطتها إحساس مرهف وتجربة مريرة مع هذا النظام المتعسف ولا ترجو منه خيراً.

في الأسبوع الأول من توقف الحرب اتسعت ظاهرة الهجرة وأصحاب البضائع يتسابقون لتصريفها والفلاحون يرقبون إنتاجهم الصيفي عسى أن يكون من نصيبهم هذه السنة.. كانت الأجواء مشحونة وبداية تنذر بالجديد المرعب وواقع ألقي بظله الثقيل وهيمن على مزاج الجماهير أربك كل مشاريعها المستقبلية وبعثر ما كان في أذهانهم قبل أيام ولم يعد إقبالهم على شراء الأرزاق مثلاً كما كان عليه قبل أشهر تقديراً منهم للاحتمالات الواردة ولكي لا تكون الأثقال عبئاً معيقاً على أصحابها. في هذه الفترة تزعزعت ثقة الجماهير بأحزابها اعتقاداً من الأولى أن الأحزاب كانت على علم مسبق بعزم السلطة على اكتساح القرى وإبادة أهلها لكنها لم تبلغ الجماهير في الوقت المناسب. مما حداها أن تتصرف بوحي من تقديراتها وأثرت بذلك على العديد من البيشمةركه المرتبطين بعوائلهم. ولم يعد للندوة السياسية الوقع المؤثر وأدبيات الأحزاب بكل صفحاتها لا تحول قيد شعرة من أن ينصرف كل لزيارة أهله والاطمئنان عليهم ونقلهم إلى مواقع أخرى. وخطط الطوارئ المعلنة منذ سنوات وئدت عندما كانت الحاجة إليها، والزمن يعلن العجز عن إعطاء فرص الخلاص لأي كان، وخير التحشدات يتسلل والمبالغات جزء هام من أساليب العدو وتحضيراته.. نعم كانت الدعاية تسبق التحشد وتشد من أزره ولم تعد الحواجز منيعة من أن تنال مبتغاها الدنيء.

إن التقدم على مقرات لجنة زاخو للحزب الديمقراطي الكردستاني من قبل هجوم قوات السلطة الدكتاتورية واحتلالها عام ١٩٨٧ وبعدها على لجنة دهوك وزاخو مرة ثانية وعلى لجنة الشيخان والفوج الأول في مراني.. كلها أدلة عملية عن ضرورة أن يحسب لكل طرف حساباته التفصيلية وتحديد الإجراءات القابلة للتطبيق وهذه الأحداث رسخت مفهوماً لم يعد نظرياً فقط إنما أرساه في التطبيق هو أن الدفاع عن المقرات وممتلكات الأحزاب وجماهيرها هو الإجراء الأول عندما يصعب الموقف فخطة الانسحاب جاهزة بشكل تشعباتها، فأولاً وأخيراً ينبغي المراوحة والتكتيك لتفويت الفرصة على العدو من أن ينفذ كامل خطته والعمل بكل الوسائل على إيقاع الخسائر في صفوفه والمناورة معه بهدف تفادي الخسائر في صفوف البيشمركه، وأظن أن خطط الطوارئ والتي شهدت سلسلة من التغيرات التطويرية في جوانبها الهامة وأدخلت عليها فقرات مستحدثة لكن؟ هذه الخطط قد أغفلت شيئاً هاماً تعرضت له الأحزاب والجماهير بأسرها وهي وجهة الانسحاب وترتيباته حين لا تكون الريح وفق ما تقتضيه السفن. أي امتداد الانسحاب حتى نقطة تخطي المخاطر والنجاة من خطط العدو، لم تكن هذه ثغرة هامشية بل جوهرية وفي جسد خطة الطوارئ، إنه غفلة في تكامل الخطة، أي خطة الأحزاب منفردة آخذة بنظر الاعتبار تعارضها أو بعض منها

مع خطط الآخرين؟ أين انسجام الخطط فيما بينها كي تكون ضمانة بيد الجماهير لتقوية مواقفها.

ومبعث قناعاها المنطقية والمعقولة إن الجماهير لا تفهم ولا تثق إن خططاً حيكت بعناية على الورق وجاهزة للتطبيق في وقت لا تراها مجسدة ميدانياً في الحياة. إن هذه الخطط كما يقول الكثيرين قد أعدت بعناية فائقة لكنها على الورق وماتت في صناديق مقفلة الإحكام. وإلا أين أبواها التعبوية؟ ولما تزامنت مع الركود في العمل العسكري وأين نشاط المجموعات وعمل المدن لإرباك العدو وشل تحركاته؟ إن هذا درس بليغ ناشئ أفرزته الحياة وهو نوعي وجدير بالدراسة المستفيضة.

في هذه الأجواء ابتدأت الأحداث وتفجرت وبلغت وتيرها حداً شاملاً، وكانت الساعات الأولى من ليلة ١٩٨٨/٨/٢٤ تحمل المزيد من الفوضى والأرباك حين أخذت تحشدت النظام تشاهد بالعين المجردة في زاخو ودهوك وسرسنك وغيرها ولم تعد مقنعه تلك التفسيرات الواهية على أن هذا يجري بهدف تبديل الفرسان (الجحوش) بالجيش لعدم الثقة بهم كما كان يشاع. نعم حتى قبل الساعة الثامنة مساءً كانت هذه الليلة هادئة كباقي الأيام السابقة وضجة المذياع قطعت كل الأحاديث الأخرى وهي تذيع الأخبار المسائية بعناوين كبيرة وتقارير مركزة كلها على المفاوضات العراقية الإيرانية وحتى هذا الوقت لازال تفكير الكثيرين متأثراً بديماكوكية الفاشية الزاعمة

بنواياها في العدول عن نهجها الشوفيني السابق[1] وقبل الانتهاء من التفاصيل وتقارير المراسلين، ينقطع هذا السياق من الحديث، إذ يرد خبر للتو كما يقولون مفاده:- إن مفارز صغيرة من بيشمركه الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك) يشكلون مجموعات خاصة تقوم بتبليغ كل القرى بيتاً بيتاً بضرورة الاحتراز بدءاً من الآن وأن السلطة الدكتاتورية تروم فعلاً الأعداد لهجومها في أية لحظة وقد تستخدم الطيران والأسلحة الكيمياوية ولكن مع هذا فلا ضرورة لترك القرى والتطير، ومن يترك بيته ويغادر القرية يتحمل نتائج تصرفاته. لقد استهان البعض بالخبر جملة وتفاصيل وبعضهم قال عنه أنه افتعال لتغطية عمل عسكري وشيك في ناحية كأني ماصي... أي أن البيشمركه يريدون أن لا يحصل الفراغ والخدر في استعداد الجماهير والهاربين بشكل خاص وهناك تفسيرات أخرى غير واقعية كثيرة. كان مجرد كلمة كيمياوي تترك تأثيرا نفسياً مريرا في الوضع الجماهيري فهي تخشى هذا السلاح الفتاك الذي يثير فيهم الفزع والحزن العميق والإحباط.

إن تبليغ المواطنين بكلمات: غداً احتمال التقدم وارد وعلى مستوى الطيران والمدفعية المدججة بغازات الموت هذا بمثابة صافرة الرحيل الفوري والإستنفار العام وتداعي المعنويات وحصول المأساة، هكذا تعكر مزاج الناس بغضون دقائق وإصابتهم الصدمة والذهول كمن يلقي بالثقاب على مقربة من الهشيم... وبرهة من الزمن المضطرب حتى أجبرت كل الإذاعات على

السكوت وهيمنت الأخبار المحلية وتلاشت عملياً كل التحليلات والتفسيرات البسيطة التي كانت سائدة أواخر النهار من هذا وذاك. وبهذا أخذت وجهة الحديث تتحدد بنقطة واحدة فقط هي مستلزمات تدابير الخلاص الآن. والذي قال عن وجود عمل عسكري في كاني ماصي وتبليغ الجماهير غطاءً له لا ندري من أين جاء بهذا الرواية الزائفة ولماذا تخلى عنها بظرف دقائق كأنه لم ينطق بها؟ بدأت اللائمة على البيشمركه وحساباتهم القاصرة، الآن عرفتم بل اعترفتم ان التقدم آت لا ريب؟ وماذا بوسعنا أن نفعل ونحن في هذا الليل الدامس؟ لماذا هذه المكابرة عن الإمكانيات؟ وهل تعتقدون شعاركم بالصمود واقعي؟ وغيرها من تساؤلات الناس الوجيهة المفعمة بالمعاني.

أنساب كل إلى بيته فالاستسلام لمضي الوقت يحمل العواقب الوخيمة والمعالجة واحدة فقط وترك القرية أسوة بالمئات ممن تركوها منذ بدأ التبليغ كان بعض الكبار لا زالوا في مجلس الفاتحة يناقشون بجدية هذه التطورات من زوايا تثير المخاوف... وتمضي دقائق حافلة بالحركة المربكة وأصوات مناداة بالسرعة وبحثاً عن الحاجات الأكثر ضرورة والرحيل الفوري هو الإجراء العام. وبظرف ساعة فقط حتى أصبحت قرية كاني بلاف[٢] مهجورة تماماً بعد أن ابتدأت ليلتها هادئةً عامرة بناسها والحركة، وتحولت إلى السكون التام والموحش، تجوب البيوت والطرقات فتراها في تعتيم وحزناً تأمين. ولا

تحظى بمن ينوي المكوث حتى الصباح. أخذت القوافل ترحل باتجاه الحـــدود التركية ولا زالت الآراء الرسمية للمعارضة تدعو للصمود والمقاومة والتنسيق وتخفيف الأثقال حيثما أمكن وسرعةُ انتشار الوحدات العسكرية وتنشـــيط عمل المجموعات البارتزانية... الخ وهنا بلا شك تجلت حالة التخلف عـــن الأحداث والإلمام بأبعادها الحقيقية الخطيرة... والمعالجة ليست في وقتها ولا تناسب وحجم الخطر الداهم.



قرية كاني بلاف حيث الذكريات الجميلة وملتقى الأنصار بذويهم والتواجد الدائم للهاربين والبيشمركه وفي مقبرة الكنيسة يرقد الشهداء أبو حسن وسليم ودلوفان وسالم ويظهر في الصورة حسين كنجي وخيري كاني ماسي

مكثنا نحن الاثنين ضيوفاً في القرية وثالثنا المرأة الخرافية المريضة خـــاوا. كانت رغم اشتداد مرضها هذه الليلة لكنها مكابرة لا تستقر لحظة في حركة

بهلوانية لا تناسب عمرها تطمئننا وتستفزنا للحديث وتنويرها بالجديد وتريد تطبيع الحديث معنا كي لا نغادر بيتها في هذه الليلة المشؤومة حيث ظهر لاحقاً أن لديها وجهه أخرى وتخشى على ممتلكاتها من تجاوزات الكثيرين ممن يتربصون بالضعفاء لم تفلح في استدراجنا للحديث رغم تماديها في الحرشة معنا فطوقت أسلوباً آخراً. سألتنا لتعالج حالة الانزواء التي سيطرت علينا قالت وحركت عينيها كأنها صاحبة البال الطويل في المغازلة: أين أنتم من هذه الأحداث؟ أراكم لا تحركون ساكناً كأنكم قوة منيعة لمواجهة تقدم جرار كما يتحدثون عنه تناولها صاحبي بلغتهم الآثورية كي يأخذ حريته في ردعها ولا يعطي لزمة إدانة لاحقه...تحدث على وجهه علامة الإثارة من نقدها اللاذع. قال: إننا على علم من هذه التطورات قبل الآن وزيارتنا هنا ليست للنزهة إنما تزامناً معها وحذرها ضمنياً من نبرة الحديث عن التمادي أكثر بالأسئلة الجارحة من هذا القبيل وأنه لا يريد الإدلاء بأكثر كأنه يكتم سراً خطيراً وأكمل كل ما تستحق الظروف من تحوطات دفاعية. صرح بهذه المداخلة وهي من ألفها إلى يائها محض افتراء ثم انطرح بقوة على فراشه المبعثر لكي لا يعطي مجالاً للمداخلات المضادة التي عبرت عنها بنظرات الاستغراب والمتابعة المركزة. هكذا عبرت هذه الليلة الحارة جداً وكانت حارة بأحداثها وأنهكتنا بمرورها والأفكار التي جاءت بها... متى تأتي ساعات الصباح عسى أن يكون كباقي الأيام وكل ما قيل مجرد إشاعات

وتلاعب بالمشاعر ومنذ ساعات الصباح الأولى عرفنا أن بقاءنا في هذه المواقع هي المجازفة بعينها وهجرة الجماهير أخذت إبعاداً واسعة ولم تعد في الليل فقط كل يبحث عن الخلاص بأي طريقة. المهم جمع الشمل للعائلة والتخلص من غدر الأيام القادمة الكئيبة.


الجانب الشمالي لجبل متين قرب قرية بازي

صباح ١٩٨٨/٨/٢٤ وبعد تناول قليل من الفطور تجولنا في أطراف القرية فوجدنا رفيقين في مكان آخر يعيشان على أعصابهما كما قالا. وجدناهم فأصبحنا أربعة وحينها شعرنا أننا قوة كبيرة ولا نخشى أحداً وتعمدنا أن لا نترك موقعاً في القرية إلا نزوره إثباتاً للوجود وإبعاداً للتطير

الذي ساور الكثيرين وبجو من الرهبة والكبرياء قال أحدنا: الآن نحن مفرزة ولتكن صغيرة ومجد الحزب يصنعه أحياناً نفر من رفاقه حين يعتصم متمـــرداً على الظروف الغادرة أنه حديث مفيد في موقف كهذا ففي الصعاب يجـــدر تعزيز المعنويات ورفع الهمم وتصعيد اليقظة الثورية.

جاءتنا معلومات من قيادة الحزب الديموقراطي الكردستاني في الفـــرع الأول أوضحت جوانب أخرى لتطور الأحداث وأكدت احتمال التقدم في أي ساعة وهو تقدم واسع والقصف المدفعي كان على امتداد شارع زاخـــو وباطوفا وبيكوفا يسمع بكثافة والأكثر من كل ذلك تصاعد حملة الهجوم من مختلف المناطق حيث أخذت الأخبار تؤكد حقيقة واحدة وواسعة الانتشـــار على أن التقدم يجري بمناطق أخرى وهو باتجاهنا مع تقدم الزمن ولم يعد هناك من يتجرأ بكلمة واحدة عكس هذا ومن يستهين بالعدو وأدوات بطشه يضع نفسه في الموقع المعادي للجماهير وتنبري لـــه خـــرزات الازدراء والنقمـــة والعتاب. وربايا النظام ومواقعه العسكرية الأخرى هائجة كالمسعورة تطلـــق النيران بكثافة. المهاجرون يفتقرون أو بعضاً منهم لوسائل النقـــل المتطـــورة وواسطتهم في أفضل الأحوال هي البغال والخيول والحمير وما عداها فليس بحوزتهم السيارات ولا عربات النقل الخاصة وبعضهم استثمروا التركتـــرات في الطرق السالكة لنقل ممتلكاتهم والعوائل ولكن هذا إجراء لا يشـــمل إلا القلة ومحفوف بمخاطر مدا همة الطيران في النهار خاصةً إلى جانب العطـــل

الوارد في أي لحظة وشحت البترين منذ فترة طويلة فمعلوم أن المنطقة تحت الحصار الشامل ولذا فتعويلهم الأكثر على البغال ويطوعون حاجاتهم بقوة... يضغطونها لتكون منقولة وغالبهم يجيدون مثل هذه المهنة التي تحتل قدراً كبيراً من الأهمية ومكانة ربما ترتقي قريباً من مهمة القتال الباسل.

إن النساء والرجال على حد سواء في الملمات كل يوظف خبرته وحمولة البغل هي كل مستلزمات حياتهم القادمة وسطح هذه الحمولة يجرون ترتيباً له ليكون ملائماً كالمهد الجماعي للأطفال ويطوقونهم والأشياء الأخرى بحبال الشعر السميكة بما يبعد احتمالات الحوادث. وهكذا تجد جموع الأطفال يلبون أحدهم باتجاه الآخر خاضعين لمشيئة البغل ونزعاته الحيوانية وكثيراً ما يصعب على الأم مواكبة هذه الحركة عديمة الضوابط خاصة وهي غير طليقة اليدين ولا متحررة الظهر بل مثقلة بالحاجات التي تقدر هي وحدها قيمها الاستعمالية في البيت... حين تنظرها لا تنطق بكلمة مسموعة لكنها تدمدم مع نفسها... ليس من علاج غير هذا. أنها ملابسي الخاصة وقطعة القماش الفاخرة الرجالية وكمية من ورقة الشاي العراقي الأصيل وأشياء أخرى وتستطرد كأنها تريد الخوض بالتفاصيل... لا ندري ماذا سيحل بنا وقلبي عند ولدي الذي انقطع عنا منذ البارحة مع عمه وقطيع الغنم وتجهش بالبكاء... أنا خائفة من شيء وربما أشياء وبينما هي بهذا

الحال شاردة الذهن برهة لتاتيها صيحات مؤلمة من زوجها الذي يتقدم المسير ترويضاً لحركة البغل العزوم. انخطف لونها وركضت لتجد البغل اللعين يترك الطريق السالك ويدخل بين أشجار كثيفة وأغصانها المؤذية مست وجوه الأطفال قطعة واحدةً وأحياناً تبدو تصرفات البغال بمقدار ما تحمل من أثقال تكتسح بعضها البعض وتعم الفوضى ويحصل الرمي المعادي في الليل الدامس ويهرب البغل وحمولته لا زالوا يعتلون ظهره وبهذه الطريقة يفرق الأطفال عن أهلهم ليكون مصيرهم مجهول وربما رهينة بأيدي أزلام النظام أن لم يكونوا قد فارقوا الحياة وهم في شوطها الأول المدهش. بعد ظهر ١٩٨٨/٨/٢٤ نعود قاصدين مقرنا من إجازة لم تكن موفقة بل كانت نشازاً وعرضتنا للتصنيف الواسع والمناكدة وكمن ينام ورجليه في الشمس... نسير بسرعة غير اعتيادية نخترق القوافل المثقلة وعويل الأطفال وكأننا نريد اللحاق بأحد يسبقنا لكن الحقيقة أن دافعنا الوحيد للسرعة هو شعورنا الداخلي بذنب اقترفناه... كان علينا التوجه قبل الآن للمقر وتقدير الموقف أسوةً بالجماهير مررنا على عجل في سهل بليزان (دشت قرية بليزان) (٣) نطلق النظر للأمام فنرى موجات من البشر تشد الرحال ومنظر كهذا يحفزنا لمضاعفة السرعة انشداداً بهم ونختلط بأكثر من قافلة نسعف هذا ونضحك مع الآخر ونعين من تناثرت حاجاتهم على الأرض ونتحدث عن

وحدة المصير مقاتلين وجماهير. كانت وجهة الناس واحدة باستثناء قلة كانوا أسوأ نشازاً من إجازتنا التي انتهت إلى القطيعة المخجلة هؤلاء القلة بعكس الآلاف وبالضد من مصيرهم يقصدون التسليم وأن حاولوا الإيهام أن هناك طريقاً آخر لخلاصهم إلى تركيا وعرفنا الكثيرين منهم بالأسماء وتذكرنا أحاديثهم عن الثورة كم كانت ضعيفة. وتزامناً مع تعقد الأوضاع. ولكن لا مجال للحساب الآن وتكفيهم نظرة ساخرة خزرناهم بها في مرورنا.

وصلنا عين الماء على جانب من بساتين بليزان فوجدناها (متخمة بالبشر) وتحولت إلى محطة اضطرارية للاستراحة القصيرة تودع قافلة بعد أن ترويهم بالماء العذب البارد لتستقبل أخرى يعانون الظمأ واحتقان الوجه وجفاف الشفاه... وبعضهم يستثمرون ظرف دقيقتين أو أدنى للإيغال بالتدخين والآخرين يودون المزيد من المهمات في آن واحد... أم استقرت على الأرض ومدت رجليها في الساقية المحاذية للعين وأثقالها هي الأخرى ارتكزت على صخرة خلفها كأنها خلقت لهذا الغرض وطفلها انسابت شفتيه خلسة بحثاً عن غذائه المفضل ليمده بالحياة والقوة وهو في حضن أمه ودفئها المميز وعينيه تحلقان في وجهها ويداعب بيده الأخرى المتحررة ثديها الثاني لينال منه ولو مضغة واحدة. كانت عيناه قد استعادت شيئاً من نشاطها ونقائها وهي ترنو بقوة لا تغادر وجه أمه وهي في موقف مؤثر أثقالها من

جانب وطفلها من الجانب الآخر يمسك بنتوءات الصدر بقوة بيديـــه وفمـــه وهي تتأرجح بحركة عجيبة بينهما ككفتي الميزان ولكنها تنحني رغماً عنـــها نحو صغيرها المتألق بلحظات النشوة والصفاء وعشق الحياة. نجتـــاز بليـــزان لنكون في بازي نفسها نجوب أزقتها في الخامسة عصراً وأشجار الجوز متميزة عن كل الأنواع الأخرى القصيرة الظل زاهية وهي الوحيدة لا زالت علـــى اتصال مع الشمس التي غادرت الأشجار الأخرى وعوائلهم. إن الشـــمس تعرف مكانة الأشجار وتعانق الجبارة منها فقط. كل يودع الآخر وموعدهم القادم عند الفجر. هناك على جانب من الشلال ذو الحركـــة الســـاحرة في قرية بازي (٤) نجد حشداً من أهلها يتوسطهم مختارهم البدين يستمدون منه الكلمة والحكمة وعوائلهم هي الأخرى مغيبة الأدوار وخائبة لأنهم قادتهـــا. مترددين في وجهة الانسحاب تراودهم أفكار الاندحار ليكونوا بعيداً عـــن معاناة شعبهم الذي ترعرعوا في أحضانه وواضح انهم ليسوا آهلين للصعاب ولا من قاطعي الفيافي ولكنهم على كل حال وهذا بحد ذاته نعمة لا يشكلون نسبة ذات شأن تذكر قياساً بالجموع الغفيرة التي حسمت مواقفها وحددت وجهة لجوئها رفضاً للإستسلام والمخاطرة وضياع فرصة الخلاص. كانـــت بازي معطوبة بالاندحارية والتخاذل. واصلنا السير قبل الغروب مروراً بقرية كاني مازن القريبة منها مسافة ربع ساعة على الأقدام لكنها بعيدةً عنها بعـــد

السماء عن الأرض في المواقف. كاني مازن كانت محصنةً بمناعة فعالة وأهلها الطيبون متمسكين بالوحدة وعند المحن يتجاوزن خلافاهم الداخلية وتجمعهم كلمة الصمود مقترنة بالكبرياء والتضحيات. عبرناها وحل الظلام لنكون في قرية أخرى. ميسكه بinforms> بروارى فوجدناها خالية(تصفر) بحثاً عن المعارف فوجدناهم قلة ممن أصابتهم لبعض الوقت أفكار التردد، فالتردد حالة عصيبة في صراع الأفكار كحد السيف بين الصمود المشرف والانكفاء صوب الهاوية فمن لا يتماسك بمزيد من القوة تجرفه الأمواج، تخور قواه في البداية وينساق نحو التدهور المعنوي حتى يجد نفسه في نهاية المطاف في مواقع أخرى تأبى النفس عن ذكرها.

هذه هي ليلتنا الأخيرة والخاتمة لإجازتنا الحافلة بالمفاجئات قضيناها في ميسكه وهي تبعد عن مقرنا في كلي هسبا(٥) نصف ساعة تقريباً فضلنا المبيت على مقربة من الأحداث والأخبار الجديدة ونومنا هذه الليلة قلق جداً. فالقرية دون أهلها لا تطاق. جاء الصباح ثقيلاً ويبعث بشعور غريب ففي السادسة والنصف تقريباً قصف الطيران قرى برجين في الجبل الأبيض في الدوسكي وهيسي وخرابيا ويكمالة في بروارى باله. بالأسلحة الكيمياوية فاستشهد العديد من المواطنين والكثير من الجرحى. كانت هذه هدية الصباح ١٩٨٨/٨/٢٥ للجماهير وإشارة بدء الأعمال العسكرية فعلاً فالكيمياوي

هو أبشع صورة لانتهاك حقوق الإنسان وقمة الممارسات الإجرامية ضد شعب آمن. وأصبحت الأمور لا تتحمل اللامبالاة وفرص الحركة مرهونة بساعات فقط وخطوطها محددة فلا حركة إلا باتجاه الحدود المحاذية التركية. فما مبرر بقاء المقاتلين في منطقة خالية من الجماهير؟ هنا يغدو شعار الصمود اختياراً عصبياً وغوغائياً زائفاً مما اضطر كافة القوى المسلحة إلى إعادة النظر بمواقفها على وجه السرعة وتجري تعديلات على خططها وتبحث عن تكتيكات معينة لمعالجة أوضاعها والحق أن الجماهير تصرفت بحكمة وبادرت دون تأخير تخلصاً من الموت المحدق بها ولعلها بهذا قد أعطت درساً بليغاً في الفطنة والحس السليم وسجلت نقطة فائزة في ميادين عسكرية وسياسية على كل تقديرات القوى الوطنية المسلحة. كانت أحداث مأساوية تجلت فيها خسة أزلام النظام أياً كانت هويتهم وهم يحرقون القرى بأيديهم ويصادرون ممتلكات العوائل بما فيها حاجات النساء الخاصة وهم نفذوا مجزرة بازي البشعة يحرقون كل شيء في البيوت وصولا للإنسان نفسه.


حالة استطلاع عسكرية لمناطق معينة قبل الأحداث بأشهر




يا عشاق الوطن اتحدوا

# حوار مع النفس أولا

في بدء اندلاع الأحداث، في ساعاها الأولى، خطرت في البال فكرة أها ربما تكون طويلة وقاسية، ولذا فمن الضروري أعارها الاهتمام الجاد منذ البداية، فالتراكم والأسباب وتطور الأوضاع يوم آثر آخر لا ينسبها بأي شكل من الأشكال على أها مهاترات النظام العفن في أعقاب توقف حربة مع إيران. وعلى هذا الأساس من المعطيات المحددة فلا بد من فتح السجل الدقيق لرصدها بالتواريخ ووصف الأحداث وتصاعدها لتكون أرشيفاً في متناول اليد متى أريد ذلك. ولكن والحقيقة ينبغي لها أن تقال أن التردد راودني بذلك ومبعث هذا التردد هو إحساس انتابني عن صعوبة النجاح في هذا المشروع الطويل والافتقار للتجربة الصحفية الناجحة، لحدودها الدنيا، أي أن تكتب عن أحداث الوغى هل هذا ممكن وأنت لست بصحفي ولا تمتلك آية محاولة في هذا الميدان؟ وهل من السهولة الإلمام بكل تفاصيلها والتكهن بنتائجها؟ بعد المداولة مع النفس بهذه الأمور وتطويق حالة التردد ومحاصرها والموازنة التقريبية بين الفائدة المتوخاة واحتمال الإخفاق بذلك.. وهذه (دردشة) مع النفس مؤرشفة أيضاً، أيقنت أخيراً أها فرصة هامة

لتوثيق حدث هام جدير بالمتابعة وأنت في بدايته وطموح مشروع توظيف الإمكانيات في أماكنها والتفاعل العميق في قلب الأحداث الخطيرة الحامية، وليبدأ العمل وكأنك تنتحل دور من يدخر موهبة صحفية غزيرة لماذا لا يقوموا من تسمح لهم الظروف بمهمة الصحفي؟ وأين الصحفي المحترف لكي يكتب عنها وهي ربما الفرصة النادرة في حياة الكثيرين. وبهذه الطريقة أحبطت كل مبررات التردد، وتلاشت هذه الأفكار بالمناقشة المرنة الجادة وبانت مهمات من يدعي التعلم من الحياة والجماهير، ينطلق من البدايات الأولية لكنها حثيثة لبلوغ السمو.. هكذا كان القرار الحاسم لضرورة تسجيل الأحداث بالأسلوب اليسير المتدني وبالإمكانات المتوفرة وتوخي الموضوعية والصدق والخطوط الحقيقية وهذا كفيل بإعطاء صورة واقعية على الأقل من خلال المعايشة اليومية لها. وما رأيته بعيني وحده يشكل بحد ذاته مادة غنية واعدة، لقد كثرت المشاهد التي عشت جانباً من مخاطرها وتأثرت بآلاف اللقطات التي قد لا تجلب اهتمام الكثيرين، لكنها تركت في نفسي بليغ الأثر وأسرفت في سرقة الدموع من عيني وطوقت النعاس بعيداً عنهما. وزرعت في الشهية نفوراً عن الزاد وهزت المزاج العام بوعكة نفسية عنيفة كأنه اختبار للأعصاب فوق طاقتها، أحداث مؤلمة ودموية في غالبها تجلت فيها مشاعر الخوف والعواطف والسذاجة والتطور إلى جانب تكاتف الجماهير وإن كان هذا في الهجرة دون غيرها للأسف. نعم أحداث عمقت

الحقد على الفاشية ونزعة التحوط إزاء مخططاتها الواسعة ومفرداتها الجور والاضطهاد الشوفيني المقيت والمضاعف. إن الحياة قد لقنت الجماهير دروسها البليغة وصقلتهم بمعاني الإصرار على مواجهة التآمر ومجابهة التحايل القذر بوعي وخبرة أساسها رؤية الواقع بجلاء وإشادة المواقف على أساس هذا حتى وإن تناقضت مع تقديرات الأحزاب السياسية. هكذا احتدم النقاش في كل المواقع بين الجماهير وبين الأحزاب حين أحالت هذه الجماهير كل المناشدات الجوفاء الداعية للصمود إلى المحاكمة المباشرة وأفرغتها من محتواها وبدأت الحركة في الليل قبل النهار وحين وقعت تحت قبضة الفاشية والسلاح الكيمياوي الغادر الذي عرفوه في حلبجة ومقرات الأحزاب والقرى الكثيرة. إن هذه المحنة قد مست قطاعاً واسعاً من جماهير شعبنا الكردي قدرته التقارير الرسمية بما يربوا على المائة ألف إنسان، إنه أوسع رحيل جماهيري عرفه هذا الشعب المعذب. ولذا فلا بد من تناول فصول الأحداث منذ أيامها الأولى ولكن بإشارات مقتضبة بسيطة لا برز لقطاتها ومآسيها التي ابتدأت وتعمقت وتضاعف التعقيد فيها فهي حتى هذه اللحظة تحتل الخبر الأول في العديد من الإذاعات في العالم وتقاريرها ونشاطات هيئاتها الإنسانية. في سياق الأحداث ومشاق الهجرة وتصاعد الإرهاب الشامل أفاقت الجماهير لتجد نفسها وطلائعها السياسية في نفس المواقع وهي تراجع المواقف السابقة وتشخص الثغرات الحاصلة وأسبابها الرئيسية

لكن هذا يجري في الغربة الحالكة المريرة. وهذا استخلاص لتجربة إضافية جديدة أفرزها الحياة الزاخرة بالدروس. تجربة مفرداها... التكاتف والصمود والمشاركة الفاعلة في صنع الثورة، فالحديث عن الثورة لا يمكن بمعزل عن أحزاها ولكن الآن لا جدوى من تبادل اللائمة والتجربة شاملة للجماهير والأحزاب والحصيلة القاسية تدعو للتكيف وتضميد الجراحات البليغة..أن توضع الأيدي بقوة على فوهة الجرح وهو في طور الالتئام، مادام كل يضع حياته في راحة كفه كما يقال للانطلاق بزخم أقوى غير مبال بالنتائج فمن تدنست مقدساته أبداً لا تستفزه كل المنغصات الأخرى.



حيرة وتأمل

# قراءة سريعة في معالم المنطقة

في الأيام الأولى كانت للأحداث ارتباطاتها الوثيقة بالأرض وبـــالمواقع المختارة فيها وبالسلاح الثقيل في مواقعه الثابتة وبالفلاح أرضـــه ومعاناتـــه وظروف حياته اليومية وبعامة الناس ومبادراتهم ونمط تفكيرهـــم وشـــكل ارتباطهم بالثورة وبالأحزاب أصلاً. ولهذا كله واعتبارات أخرى ضرورية لا بد من التعريف بشكل خاطف بأبرز التفاصيل ذات العلاقة سيما والقـــارئ قد يجهل طبيعة المنطقة أرضها والتضاريس فيها وقراها وأحـــداثها التاريخيـــة ونضالها ضد النظام، فلا بد من توخي الدقة في الحديث وتحديد اتجاه الحركة ورصد المزيد من اللقطات والصور المتداخلة فيما بينها ومع هذا قـــد يبقـــى القارئ في حيرة من أمره وقد يستعين بالخارطة التي تخص هذه المنطقة وأسماء القرى والمواقع الهامة.

فمنطقة الأحداث المنوه عنها في هذه القراءة السريعة تقع على مقربـــة من سلسلة جبل متين الحصين ذو التجاعيد المعقدة وأحد أبرز المعالم في منطقة بهدينان والذي أختير في أغلب الظروف مسرحاً لنشاط المعارضـــة ومنطقـــاً لتطور حركتهم المسلحة. إن الجبال عموماً هي عوامـــل طبيعيـــة مســـاعدة وملائمة لاحتضان المقاتلين بسبب حصانتها أولاً وانتشـــار القـــرى علـــى

سفوحها ثانياً وسهولة الحصول على الأرزاق ومتطلبات البيشمركه ثالثاً واعتبارات أخرى أصبحت هذه الجبال قلب المناطق المحررة ومقرات كل الأحزاب شيدت بينها ما يستمدونه من متين من صلابة وثبات حيث تعايشوا معه حتى كأنهم جزء منه وعلى سفوحه احتدمت المعارك في مراحل كثيرة وسألت الدماء الزكية من الثوار وتكبد العدو الهزائم والضحايا، ومتين هذا لمواقفه التاريخية فقد استهدفته كمائن العدو ومأجورية. فكل الجبال في كردستان مقاتلة وذات مجد يوماً ما ومتين في مقدمتها ثائر... إذاً ليس عبثاً أختيرت المواقع العسكرية بين نتوءات هذا الجبل الجبار في أقصى الظروف قرب عيون الماء دائمة التدفق وعند تجاويف الطبيعة القاهرة والزاوية الميتة أمام قصف الأعداء والكهوف المستورة في ظل أشجار البلوط الكثيفة.



احدى المناظر الطبيعية الخلابة في كردستان

إن الطرق السالكة في متين معدودة في الشتاء خاصة حين تغزوه الثلوج لتزيد من جبروته وروعته وتعزز رصيد الينابيع من مصادرها الطبيعية، تمدها بالمياه الوفيرة لألا تنصب هناك كانت المقرات التي توزعت على الوديان لتكون بأسمائها فعندما يقال وادي الخيول(كلي هسپى) يقصدون مقر الفوج الثالث للحزب الشيوعي العراقي وهكذا وادي بيشى لي فيقصدون مقر الحزب الديمقراطي الكردستاني وكلي بازى (وادي بازي) مقر الاتحاد الوطني الكردستاني ومتين في بدايته من الغرب محاذياً لقرية كاني بلاف مارة الذكر ويبدأ نموه كلما إمتد باتجاه الشرق وعلى امتداد ظله الشمالي تقع منطقة المسماة(برواري باله) التي هي أشبه بالحوض الفسيح وحدوده طبيعية ومحصورة بين متين من الجنوب وسلسلة مماثلة محاذية للحدود التركية ومن الغرب نهر الخابور ذو العطاء الوافر للفلاحين في قراهم أما من الشرق فهناك حاجز مائي حيث مقرات أخرى لأحزاب المعارضة.

وهناك الشارع العام الذي يخترق المنطقة من زاخو وصولا لناحية كاني ماصي مرمراً بناحية باطوفا وتجمع بيكوفا حيث المواقع العسكرية للنظام من مقرات الأفواج والسرايا وربايا ومن هناك من بيكوفا كثيراً ما يجري قصف المنطقة وقراها ومقرات الأحزاب الوطنية فيها. أما كاني ماصى فهي ناحية ذات مجد سابق ومحاطة بإطار جبلي عجيب وتعتليه المواقع العسكرية المختلفة حيث تطل على الناحية من جهة الشرق قمة شاهقة ونحيفة هي(سرى زيرى)

أي الرأس الذهبي وهناك مقر سرية حصينة يصعب اقتحامهـا مـن قبـل البيشمركه إن هذه المنطقة غنية بإنتاجها الزراعي وثروتها الحيوانية وتشـتهر بالفاكهة خاصة التفاح والجوز والعنب والرمان وغيرهـا فمياههـا وفـيرة وأرضها فاخرة زراعياً ولو توفر لأهلها الأمان ولإنتاجها التسويق لوصل إلى أغلب مناطق العراق. هذه القرى الحدودية قد تعرضت إلى الخراب مـرات ومرات وجرى ترحيل أهلها وقصفها الطيران وحرقت المحاصيل فيها ونالت حقد السلطات والسلطة الدكتاتورية القائمة. ولكن ما أن تسمح الظـروف إلا وعاودوا أهلها بكل إصرار يشيدون البيوت ويعيدون الحياة إلى مزارعهم وكل يعرف حدود أملاكه والجيران وينسب لهذه المنطقة كل الساكنين فيها فهم يشكلون (البرواريين) نسبة إلى برواري باله وفي هـذه المنطقـة مـدار الحديث يقع فوج (صودكى) الذي اقتحمه البشمركه بغضون دقـائق ليلـة ٥،١٩٨٧/٥/٤ وغنموا أشياء كثيرة عسكرية.

وفي نفس العام ١٩٨٧ في شهر أيلول اقتحم البيشمركه كاني ماصـي نفسها وكل المواقع التابعة لها وبقيت بأيديهم عدة أيام وقطع الطريق العـام أمام تقدم السلطة. وحين جرى الحديث عن المقرات للأحزاب لابـد مـن الإشارة إلى الواجهة الثانية لجبل متين للقمم فيه ووجهة الطويل من الجنوب والقصبات المنتشرة على السفوح والمحسوبة على الأراضي المحررة وبعضها في الليل فقط محررة. حين يدخلها المقاتلون يقيمـون النـدوات الجماهيريـة

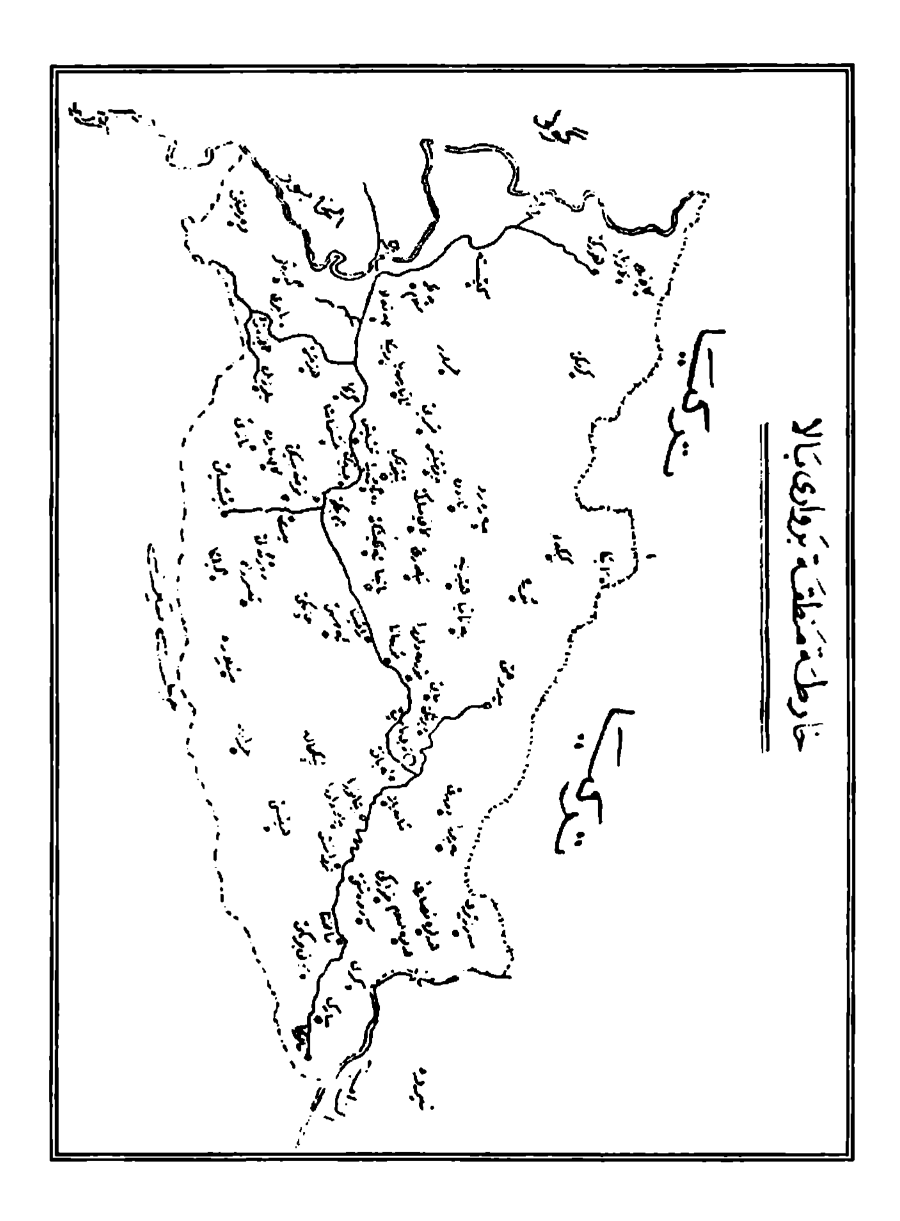
ويوزعون المناشير وصحافة المعارضة ويتابعون المعلومات عن العملاء ويقتصون ممن ينالون. هناك مجمع قدش وقرية إنيشكي السياحية وقرى أرادن وبامرني وغيرها من القرى الأخرى المواجهة إلى ناحية سرسنك. هذه القرى التي أغلبها عانت من إجراءات النظام في تهجير أهلها. حيث سجل البيشمركه تواجداً باسلاً دفاعاً عنها واحتلوا ثلاثة مرات متتالية مطار بامرني وكل المواقع العسكرية التابعة له. وعلى مشارف قرية أرادن لقن البيشمركه للحزب الديموقراطي الكردستاني والمقاومة الشعبية مرتزقة النظام وقواته درساً لن ينسوه عام ١٩٨٧ وعلى قمم جبل متين تتواجد نقاط المراباة كخطوط دفاعية متقدمة حيث يتواجد السلاح الثقيل والأجهزة اللازمة للاتصال واستطلاع أوضاع المنطقة كل يوم وهي نقاط مشتركة أو يجري التنسيق بينها فالقمم الهامة لمتين تحت سيطرة الأنصار في الليل والنهار وهي إجراءات ضرورية للمقرات بل ومصيرية عسكرياً.

أما المحاور التي تقدمت بها قوات السلطة في هجومها الواسع فهي بشكل رئيسي محورين أولهما والأكثر خطورة هو من جانب بيكوفا ومن خلال القرى التي لم تقاوم وجرى احتلالها بسهولة بعد قصفها بكثافة وشمل هذا المحور كل منطقة البرواري كما هو وارد في الخارطة من كاني بلاف حتى الشارع العام المؤدي إلى كاني ماصي. أما المحور الثاني فهو من جانب سرسنك إنيشكي وبامرني وأرادن واحتلال نقاط المراباة دون مقاومة أيضاً

لانسحاب البيشمركه منها وبهذين المحورين الواسعين والأسلحة الفتاكة اقتحموا المنطقة بكاملها وحرقوا كل ما فيها وأشاعوا الدمار الشامل في معالمها.



إحدى قرى بروازي بالا


خارطة منطقة برواري بالا



# ليلة كان العبور بالآلاف

منذ الصباح٢٦/٨/١٩٨٨شملتنا نحن البيشمركه عموماً حالة الإنذار المشددة فهذا النهار كان مليئاً بالحركة والمهمات والتفكير بالليل القادم واستثماره في إنقاذ أكبر عدد ممكن من الجماهير التي تضاعف زخمها عن الليلة السابقة، ازدادت كثافة الجماهير المهاجرة وتصاعد خوفهم، فهم بالآلاف في الوديان والكهوف ويستظلون الأشجار لتقيهم تأثير الحرارة، أنظارهم وأذهانهم ترقب الطريق وتختلط العوائل كل يبحث عن ذويه وكل التوجيهات شفوية حذرة، كل يلتقي بعائلته وحتى أشعار أخر، ومصيرهم واحد تحدده الليلة القادمة بصعوباتها والمفاجئات المحتملة، الآلاف يحثون الخطى، يحتلون الطرق المؤدية للعبور، وكلي بازي (وادي بازي) كان مزحاً هذه المرة، مضايفاً نفلاً فأحياناً للوديان(الكليان) مآثر ولموقفه الشهم هذا فقط نال حقد الفاشية، كانت قذائفهم متوالية عليه لا تمهله حتى دقائق لتدبير متطلبات الضيافة، والناس لا تحصى يلوذون خلف الصخور وبدايات الكهوف وتحت الأشجار الجثيمة يحتمون بها ومن ضاقت بهم المواضع يقف جانباً كأنه يحصي الجالسين شارد الذهن أوانه يتحدى كل الأحداث ومن وراءها.

وهذه العوائل ليست على هيئة واحدة كل حسب حالـــه وظروفـــه في الطريق، فهناك من لا يملك رغيف الخبز اليـــابس وآخـــرين لا زالـــت في حقيبتهم بقايا أكلة دسمة وكمن يجاهر بالإفطـــار أمـــام صـــائم ودعـــوات خصوصية وبالهمس حين تقترب أكثر وتكون بين الناس تجذبك تصـــرفاتهم والأسئلة وصراخ الأطفال، فلم يعد الجوع وحده قد أنهك قـــواهم فهنـــاك التعب فوق تحمل الأعصاب والخوف حد الذعر والسهر الطويـــل والقلـــق الدائم. بكاء وأسئلة جادة وصداع وتشبث بهذا وذاك... يسألون من يحمل سلاح من أي الأحزاب كان: ماذا تعرفون من جديد؟ ما هو مصير الـــذين عبروا بالأمس؟ أخبرونا أين تواجد البيشمركه وكيف تقدرون مخاطر العبور الليلة الماضية؟ نحن أمانة في أعناقكم وسامحونا إن تركناكم وهربنا إلى الحدود التركية، نريدكم معنا في العبور وتحول الموقف إلى مناحة حقيقية من البكـــاء الشامل.. أمامنا عقبة العبور هذه الليلة وقد تكون نهاية حياتنا.



بعد عبور النقاط الحساسة يلوذون بالأحراش اتقاءا من المخاطر

أسئلة من هذا النوع ومشاعر تهز كل ضمير نـــابض تجـــدها في كـــل المواقع. إن الأجوبة المفيدة لهؤلاء ينبغي لها أن تحيط بالعلة بغية اجتثاثها مـــن الأعماق وتعالج حالة الانكسار الطارئ في المعنويات، وإلا فأين دور المقاتلين حملة الأفكار والبنادق وكيف لهم تبرير ما قالوه بالأمس في نـــدواتهم عـــن الصمود والتحدي لمناورات النظام الدكتاتوري وعن تداع إمكانياته وعمـــق أزماته؟ هنا تثقيف الجماهير لا يأتي بالمحاضرة والندوات السياسية ولا بقراءة الكتب ذات الفصول الطويلة. الأمر لا يحتمل التنظير والإطالة بـــل بأخـــذ شكل الاستنتاجات المنطقية وببضع كلمات واضحة وقريبة من ذهنهم شرط أن لا تتعارض مع الوجهة ورحيلهم الآتي.

وتكون وحيداً إن حاولت خداع امرأة واحـــدة بســـيطة بالمراوغـــة والتملص من أسئلتها المحددة اللاذعة فهي جماهيرنا التي تعايشنا معها في كل الظروف ولم تبخل يوماً بالملح والزاد، وبهذه الـــدوافع الكـــثيرة المتداخلـــة ينصقل المرء بقيم الصلابة والالتزام النضالي والتمسك بالخلق ويندفع رغمـــاً عنه ليجد نفسه في بودقة الناس وضمن واقعهم الفعلـــي وكجـــزء منـــهم. وبدوافع التعاطف الصادق وإيفاءً بالالتزام وإدراكاً أن مهمة الصحفي تملـــئ عليه المعايشة مع الأحداث بحرارتها، ينغمر في أعماقها وإن تطلب ذلك أحياناً كثيرة مغامرات حد المجازفة فهي مهنة من أمتـــهن النضـــال رغـــم مشـــاقه وسحرته حياة البشر، همومهم وقيمهم النبيلة وانحاز بوعي وإصرار لها.

ولكن عجيب أمر هؤلاء الناس كيف استقطبتهم هذه الأوضاع من كل الأطراف ووزعت الأدوار عليهم بهذه الدقة إنها مسرحية حية من قصص عشرات الآلاف وأبطالها كلهم إبداعاً وإجادة في الأداء، كيف تسنى لهم أن يغافلوا كل الحواجز ويكونوا كل في مكانه المحدد يؤدي دوره المرسوم بجداره وانضباط عاليين؟ كيف تنسى لهذا البيت وهو من أقصى مناطق الدوسكي(٦) أن يختصر الطريق وربما حالفه الحظ ليكون وعائلة من قرية بيشيلي في موقع واحد ودور تمثلي مشترك؟ فهذا شيخ تجاوز التسعين ويستعين بالكوبال (باكوره) ولا يستكين أطال الله عمره ينادي بالطمأنينة وينصح بالصبر وينهر الأطفال عن الحركة بعيداً عن تواجد ذويهم الجماعي ويدعوا الأمهات بالكف عن البكاء علامة الضعف والانكسار فهو لا يليق بهم ولا يجدي نفعاً، إن كل منهن تحرص على أطفالها، إنها ظروف عابرة كالغمامة وكأنها إرادة الله. إن الحياة تركت بصماتها على تقاسيم وجهه وصقلته بضوابطها القويمة المهذبة للنفس وروى عنه في مواقع أخرى إنه أجاد أدوار أكثر تعقيداً، كانت حياته كلها حافلة بالمتاعب والتشرد وهي إثبات مادي على مدى صلابته ونقاء سجله الكفاحي الطويل مواكباً لمسيرة الثورة.


إحدى محطات الاستراحة

وعندما تتجول بينهم تجد النساء أكثر تأثراً بالأحداث وأدوارهن فيها متشبعة ورغم الحواجز يندفع أكثر من يريد للمعلومات أن تكتمل واللقطات التنوع ويستعين بالشيخ الكبير مستفيداً من وقاره ويقترب حذراً منهم يلوذ بالكبيرات في الصفوف الأمامية تجد الواقع يسيراً والحديث بمنتهى البساطة سلس ومباشر قالت من كانت أكثر لوعة في الحياة وقساوة في العمر والمشقة: قالت باشارات لمحطات عمرها وتدعوا الصبايا بالمشاركة في مأساة الشعب. إن معلوماتنا أيها الأخ لا تفيد في الكتابة فعلى أي شيء ومن أين نبدأ بالكتابة وحياتنا أمضيتها كل يوم في أرض؟ وتلطيفاً للجو عقب هذه

المساهمة المرتبكة منها تقربت قليلاً كأنها تبلور نكتة في غير مكانها لعلها تبدد بعضاً من مظاهر الحزن والكآبة قالت شيئاً فانتزعت ابتسامة واحـــدة مـــن الحاضرين وكانت بهذا قد حققت شيئاً مطلوباً في هذا الظرف.

وهناك أخرى بل الكثيرات يلبسن أبهى ما لديهن من البدلات وأجدها ومغزى ذلك أنه لإضفاء الهيبة وتبديد الهموم وعدم الانسياق أكثر لما يحلم به عدونا، وأخرى متمردة تحسب للشدة ألف حـــساب تجـــوب المجموعـــات متطوعة لتقوية المواقف الضعيفة تعطي الكلمة العطوفة مشفوعة بقطعة مـــن الحلوى، وبعضاً من البسكت المفيد وفي أروقة التجمعـــات تجـــد الـــبعض يضحكون على الصعاب ومرحهم من الأعمـــاق يتـــسابقون في الحركـــة وحراساً بمعنى الكلمة يسندون من ينال الإعياء منهم ويكتمـــون الأخبـــار المحبطة للعزائم، وكأنهم في تمرين عملي يأخذون بالكثيرين يداً بيد بعيداً عـــن تأثير القذائف التي لا تكف عن مناطقهم لحظة.

ومع تقدم ساعات النهار يزداد القلق وتمتزج المشاعر خليط يتصـــارع بين الخوف والأمان، أمان لأن الليل اقترب والبيشمركه أعطوا عهـــداً لأن يكونوا معهم في نقاط العبور وبكل الأسلحة الضرورية لتـــأمين عبـــورهم، وخوف من غدر المجهول وخطط العدو على مقربة منهم، فلم تعد الأســـرار مصانة بما فيه الكفاية،وهاهي الفاشية تزحف من كل المحاور وتقصف المناطق بكثافة فتحرق الأخضر واليابس.



الدكتور حجي الأيزيدي وهو في حالة إعياء

لكن مع هذا فالليل القادم هو الفرصة النادرة والكل يسعى لاستثمارها عند غروب الشمس في الساعات الأخيرة من نهار ١٩٨٨/٨/٢٦ روج البعض إشاعات(٧) على أن العبور مستحيل وكل الطرق مغلقة وقد خلق ذلك إرباكاً في حركة الناس وعكر مزاجهم وخلق الخوف والتردد وعدم استثمار الوقت بالكامل مما أودى بالآلاف أن يخونهم الوقت ويكتب عليهم التسليم في اليوم الآخر. وعندما عرفوا البيشمركه بالأمر أسرعوا في تفنيد هذه الدعايات وإثارتهم التأويلات للنوايا والغايات وقد تداركهم الوقت وللتأخير العواقب الوخيمة. وبغضون دقائق تعمم الخبر ليكون بشرى

للجماهير كل بوسائله الخاصة انتعشت الجماهير بنشوة مفاجـأة وانهـارت الإشاعات الزائفة أحبطت آخذه بمروجيها إلى الهزيمة بوجـه أسـود أمـام الجماهير تواصلت الجهود وفق وجهتها المرسومة في الصباح وأخذ برنـامج العبور طريقة للتنفيذ وتسللت المجموعات المسلحة لتشكيل النقاط والكمائن الضرورية، وانسابت الجماهير كأنها انطلقت من السجن وبمقدار فرحتـهم وتدافعهم للحركة لم يكن بوسعهم تسديد ما بذمتهم في المكان الذي سكنوه نهاراً ونصف ليلة تقريباً، اندفعت مسيرتهم حين عرفوا الطريق مفتوحاً وآمناً بحراسة المقاتلين من البيشمركه تسير بأقصى ما لديها من السرعة وفاض بهم الشارع وأحياناً الموجة تطفح لتغمر أنصاف البساتين الموازية للشـارع ولا يرقبون موطئ الأقدام، حركتهم عنيفة وتنسيقهم عفوي وتداخل حيوانـاتهم وقطعان الماشية بالآلاف ويبدوا أن حوافرهـا اسـتفزت الأرض بفوضـى حركتها مما ترك مزيجاً مختلطاً من غبار الأرض الهائجة ودخان الحرائق الناشئة من آلاف القذائف مما يشكل جداراً كثيفاً متماسك يؤشر حركـة سـيرهم بسرعة غير اعتيادية أبداً ، لا أظن في التاريخ مسيرة كهذا الحجم والاتجـاه. كانت مفرزة من البيشمركه تتوزع على امتداد نقاط العبور مقابـل قريـة ألكيشكي برواري باله ينتظرون بفارغ الصبر وصـول الجمـاهير لتـأمين عبورهم، هاهي الفرصة سانحة تماماً والتأخير له آفاته كما يقال.

وفي هذا الأثناء من الترقب والتوتر العام تجد نفسك فجـأة تغـرق في طابور بشري، تيار يأخذك عنوة إن لم تتجنب خـط مسـاره، تسـتهويك مشاعرهم وقوة إصرارهم على اختراق الحواجز فلا وجود لأفكار التـردد المدانة. فالجرأة خصيلة شعبنا الكردي أكثر من غيره، وسؤالهم الوحيد: مـا هي أخبار الطريق.؟ والجواب الأكثر تعبئة لهم... إن الطريق آمـن أسـرعوا أكثر ولا داعي للخوف والبيشمركه عند وعدهم ينتشرون بانتظار عبوركم. قال واحد من المجموعة التي تتقدم مسيرة الجماهير: إن البيشـمركه قـالوا الكثير لكن الأفعال هي المحك الأكثر صدقاً ولسنا بصدد المعاتبة عسـى أن يكون ما قالوه عين الحقيقة. أيقنت بما في خلد الجماهير فهي تحاسب بدقة ولا تتسامح مع الزلات ولا تنساها بالهين.

إذن كانت الفرصة أن نختار المكان المناسب ونتعامل مع الأحداث بجد وصراحة. فالليلة ليست كباقي الليالي وينتاب الصحفي الجديد شعور بجسامة المسؤولية حين يتعلق الأمر بمصير الآلاف من الناس، فيزحف قلـيلاً يلـوذ تحت أجنحة شجرة الهفرست العامرة ليتسنى له ضرب قطعياً مـن الطيـور بصخرة واحدة. هكذا يلبد على مرتفع ويحتل المكـان المناسـب لإحصـاء المعارف وهم يمرون على بعد أمتار قليلة ويحجز المكان الأكثر إشـرافاً بـل ونافذة واسعة على الجماهير كشريط سينمائي نادر. ومن نفس المكان تـرى وميض الدبابة قبل غيرها وفي عين الوقت فهذا المكان الأكثر صلاحية للقتال

والحركة، ناهيك عن مهمة الإجابات السريعة التي هي بمثابة الإحماء المباشـــر الضروري قبل أمتار من العبور وبهذا فهو موقع أقرب إلى مهمة الاستعلامات ولتسجيل اللقطات الأساسية التي تغني مشروعنا الصحفي بوثائق ميدانية.

ولكثر اللقطات الجاهزة لابد من الاستعانة بالذاكرة كأنها مسودة الآن يمكن مراجعتها في الظرف المناسب لتفريغها على الورق وتتقــاطر الخــواطر والأحداث حقيقة دون (ترتيش) وكمن يحمل الكاميرا يلاحــق اللقطــات الأكثر إثارةً للاهتمام. والبندقية كانت تطبق تماماً على طلقة حية في أقسامها الداخلية، وبندقيتي من تلقاء نفسها مستنفرة أيضاً، أخذها الحمية كوســيلة إضافية من أدوات الصحفي المعاصر تطلبتها طبيعة المهمة المعانقة للمــوت في هذه الليالي الغريبة. وعلى بعد أمتار فقط عبرت عائلة تركض بكامل أفرادها وأخرى جاء منها طفلين وامرأة وثالثة جاء منها رجل لوحده عــدا حقيبــة الظهر القديمة الخاوية وهذا الأعرج الفلاني يتسابق لتغطية ضعفه.. وغيرهــم وتخونني الذاكرة لعطل فيها فهي قد تجاهلت لقطات جيدة عــبرت دون أن تترك أثرها في الأرشيف المكرس للأحداث الهامة. عجباً هذه السرعة ما هــو مبعثها؟ إنه نفور من الفاشية المقترنة بالموت ونزوعاً للحياة والكرامة. أنــين النساء المثقلات وانحناء الظهر وبكاء الأطفال المكبوت بسبب الخوف وزجر الأمهات وفوضى الفلاح من لم يعتاد النظام والدقة في تعامله مع الأشياء فهو لا يطيق الصمت دقيقة واحدة ويسأل عن الشيء عشرات المرات ويتوعــد

زوجته بالقتل ما أن تناديه بملاحظة جادة.. الرجل يتمتع بالنـــزق الإضـــافي فهو أحياناً يتعب لدرجة تخرجه من طوره فتنطلق كلماته القاسية لزوجته التي لم تآلفها منه طيلة حياتهما. (هؤلاء أطفالك، قابل ابتليت يطبكم مرض) وهي نماذج قليلة جداً لكنها مؤلمة للغاية. ويمرون أفواجاً أفواجاً ووقع لا زال قوياً، ولا أدري لماذا كنت أريد مشاهدة الوجبة الأولى وهي تعبر؟ ربما لرؤية مدى فرحتهم بالحقيقة كونها المحك الأكثر صدقاً كما قالوا، والطريق فعلاً أمـــين. سريعاً بانت طلائعهم الأولى، فالمسيرة على مقربة من الشارع. اتسع حجمها ترقب يميناً ويساراً وتباطئت الخطوات واشتد الانضباط وخـــف الضـــجيج وتتوزع الأنظار للقمم المجاورة وللدبابات اللعينة خطرهم الوحيد الجاثم على الشارع قد عبرت تنحط قريبة منهم.. إنها حقيقة هاهم البيشـــمركه أحيـــاء ومعهم أسلحتهم والتزامهم في النهار بتأمين العبور، هكذا البيشمركه كمـــا عهدناهم. قالوا نعم يعني نعم. ومن الطرف الثاني للشارع جـــاءت نســـائم منعشة تأخذ بأيديهم إلى النجاة، إنه نسيم اجتياز المخاطر.

اندفعت الوجبة الأولى مفتتحة سجل العبور في أصعب لياليه حتى الآن، في دقيقة واحدة وبضع ثوان اجتازت الشارع دفعة تربوا على الألف بكل تأكيد لتصبح بحوزة النهال المؤدي إلى قرية الكشكى وهناك يتصاعد العـــزم بكل تأكيد وتشتد الأقدام ويستعيد الأنفاس وتطفـــح الوجـــوه بالبهجـــة والإصرار وتنحرف اتجاهات الجدار الترابي قليلاً نحو الشرق وضوضاء العبور

رغم المناشدة بالكف عنها ولكنها تجلب الانتباه وغريب أنها لا تعرف تلك الدبابة الرعناء بذلك.

لقد بدأ العبور بنجاح باهر وبسرعة وتنسيق دقيقين، حيث ما أن يظهر وميض الدبابة من بعيد حتى يهبط كلٌ في مكانه دون مماطلة ومجرد عبور المنطقة المحددة حتى تندفع الوجبة الأخرى ودقات القلب تفقدهم التوازن والصواب، هاهم على بعد أمتار ليكونوا من عداد الناجين من الموت ومتوجين تعباً لليالي بثمرة بين الأيدي.

في هذه اللحظات تسيطر مشاعر الرهبة والتوتر والجرأة في آن واحد. وتنفرط تشكيلية العوائل والقرى والمناطق وتعم الفوضى حتى مكان آخر بعيداً عن الشارع ليعاد تشكيلها من جديد وكثيراً ما تترك أم أبنها الصغير مضطرة لتنتظر عبوره في وجبة ثانية وكل ينشغل بنفسه. وهناك من يتعلق بأبخس الحاجات إذ ترى امرأة تهم وتتعثر وبيدها اليمنى فانوس بال وفي اليسرى علبة زجاجية خالية. يواجهون التعب المتراكم بقوة إضافية متجددة جاءت بها لحظات العبور الحقيقي وطعناً ميدانياً بخلق الفاشيين. من ظنوه شعباً اعزل تحت قبضتهم الظالمة متى أرادوا. وتتواصل السيول البشرية وما أن يتقدم الليل حتى يشعر الأنصار والبيشمركه هناك أن الوقت منقذهم دون غيره وفي هدوة من الليل الدافئ والصافي إلا من عبث الفاشيين الخونة، وكلما راجعت المعطيات المثبتة في مسودة أرشيف الذاكرة تجدها لا زالت

تؤشر وتيرةً متصاعدة مع تقدم الزمن لتبلــغ ذروة منســوبها في الســاعات الأخيرة من الليل. لذا لابد من تشديد الضوابط تحاشــياً للخســائر بــين الجماهير. هذه الجماهير الفقيرة ولكنها في حقبة من حياتها ستكون بلا شك جانباً أساسياً من سياج الثورة وليس عبثاً أن لا يفرط بنفر منها.

أخذت التوجيهات تصلهم ويتلكأ تطبيقها من قبلهم لا يقتنعون بأغلبها فهم لا يستسيغون لغة الأوامر ولا يكترثون بقوة المنطق لوحدة ويريدون كل الأشياء مكشوفة والتبريرات مباشرةً وكأن الانضباط الصارم عدوهم ودخيل على تقاليدهم.. اقطعوا الصوت تماماً وضاعفوا السرعة واحــذروا مداهمــة الدبابات الحاقدة علينا واستجيبوا لتوجيهات البيشــمركه فهمهــم الأول والأخير سلامتكم من كل مكروه. وما أن يساوركم الاعتقاد انه قد خــف زحفهم بناء على قلة الأصوات وتلاشي العتمة الواسعة كجبــل حالــك في البداية وتنجلي معالمه والحركة كلما اقتربوا أكثر وهيهات أن يكون الاعتقاد حقيقة فدقيقة واحدة فقط تأخذك تظاهرة صامتة تماماً كل يحمل أثقاله وشبح تطلعاته،ها إنها الفرصة للفضول وحب الإطلاع أكثر بهذا القصد يتنــاول الصحفي القريبين منه بسيل من الأسئلة ربما تكون أو بعض منــها في غــير وقتها المناسب، يسأل رجل على طرف منهم؟ من أي المناطق أنتم ؟ يتــأخر الجواب وكان السؤال قد أضاف حملاً آخر، وبعــد يــأتي الجــواب وهــو يستنهض أنفاسه كأنه توخى من الإجابة مكافأة لطول الشوط الذي قطعوه.

أننا من الدوسكي.. ومن أي القرى؟ من جديد تغيرت ملامحه ما الفرق بين القرى وهل فيها احسن حظاً من الأخرى؟ وفي غصون حوار بينهما بين الجد والمناكدة ولاحت إشارة الدبابة الأمامية وتمحور حشد منهم ما أن عرفوا مصدراً للأسئلة يريدون مزيداً من تبادل الأحاديث وتوثيق القصص وسيلة للتعارف فمنهم رجل طويل القامة في منتصف العمر لكن هندامه ونبرة حديثه يشكلان انطباعاً أنه ذو تحصيل دراسي معين وهو الوحيد المتحرر من حمل الأثقال سوى البرنو التي أضافت عليه لياقة ورونق معين، فمن كلماته القليلة الموزونة تبين أنه من السندي، من قراه البعيدة. وامرأة أخرى تناولت رغيف الخبز بلهفة وهي من قرية كربراصكى هذه القرية التي يشعرون الانصار فيها بالطمأنينة ويأكلون في بيوتها كأنهم في بيوتهم، الشاب العنيد ذو الأسئلة الحادة في الندوات السياسية: لماذا مفرزتكم قليلة ولماذا سلاحكم غير متطور؟ ما هي أعمالكم العسكرية خلال هذا الشهر؟ وغيرها أنه لا زال طافح بالحيوية والاصرار... ومن بعيد جاء صوت أليف مخاطباً بلهجة التعارف القديم، قال وهو ينحني قليلاً صوب جذع شجرة الهفرست حيث يتمدد الصحفي الجديد ويجري لقاءاته الخاطفة قال: أهذا أنت تلوذ بهذه الشجرة الخاوية؟ قد ارتاح قلبك وأنت ترانا بهذا الحال؟ وان كنت بحال ليس افضل من حالنا فنحن على الأقل بكامل القامة وطليقي الحركة.. أمعن به جيداً فعرفته الرجل الكبير ذو الآراء النيرة والطباع الطيبة ها قد تجرد من

مظاهر الأبهة الفارغة التي ابتلى بها فهو كما يبدو لم يعد بحوزته ما يضعه في مصاف الأغنياء المصنفين على برجوازية الريف جردته منها الحياة بقوتها لتلقيه في صف الثورة ومتاعبها اليومية وبقيت نفسيته الطيبة ومرحه وضيافته الكريمة. هكذا انسلخ بين ليلة وضحاها فهذه واحدة من حسنات الأحداث القليلة إلى جانب سيئاتها الكثيرة. ويتحول الحديث المفتوح الودي الى جلسة بضع دقائق... حوار بلا مقدمات كل يدلي بدوره ما أن جاءته الفرصة. وامرأة على جانب تتحدث بصوت خفيف خذلته المحن وهي ترقب الطريق حيث حان وقت عبور الدبابة اللعينة.

عرفتها من صوتها المميز ونكتة كانت تقولها لنا في الأيام الخوالي الذهبية عندما نزورهم في قريتهم الطيبة حيث كانت تقول: أنتم الأنصار ما أن سألناكم عن الجديد وأفق المستقبل حتى قلتم بلغتكم السياسية البارعة أن الانعطاف الجماهيري آت والثورة بخير والنظام زائل ويئن من ثقل الأزمات والمستقبل القريب للكادحين. قالت هذا بأسلوبها البسيط ولغتها الكردية الشعبية وقبل أن تنهي حديثها اختنقت بالعبرة، فعرفت أن مبعث حزنها خوفها علينا نحن البعيدين عن الأهل وربما لا نراهم ثانية، فقالت جملة من القلب تحول الحوار إلى لغة الصمت والتوقف عن الكتابة، قالت: (نحن قوم معذبون في كل العهود ولكن أنتم(٨) ما ذنبكم.. يكون الله بعون ذويكم)

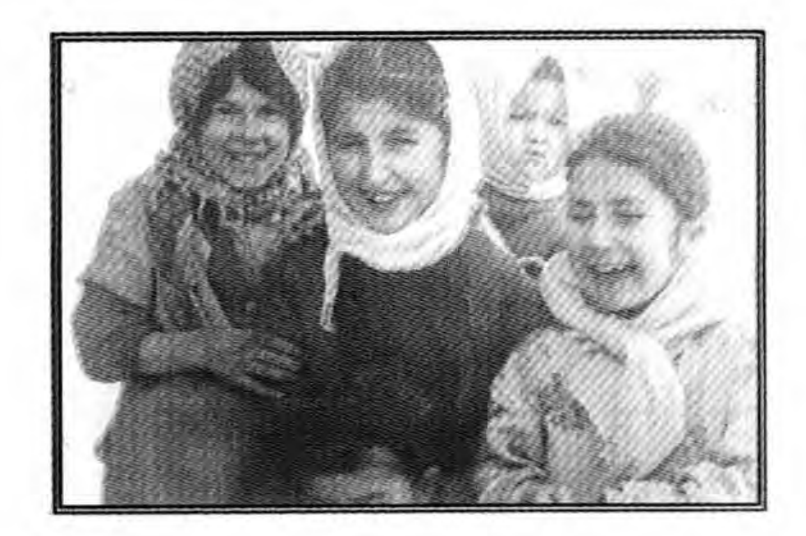
وأشرت بيدها مودعة وهي تدفع بابنها الذي طلبت له الدواء عندما زرناهم قبل أيام وأصرت على غسل ملابسنا كأنها أم الكثيرين منها.

وسألتنا حين ذاك عن الأخبار وعن الرفيقات القدامى هاهي ترحل مهمومة وابنها يصحبها وهو معافى إلا من مخاوف المجهول. لقد شعرت برابطة عميقة بهؤلاء الناس وبجدوى أن تدون هذه المواقف بأي شكل من الأشكال والتعابير.

كيف تسنى لكم قطع هذه المسافات بهذا الوقت القياسي؟ سؤال يقابل بالإهمال التام، فهم يعطون مقتطفات فقط عن أوضاعهم ولا مجال للتفاصيل المؤلمة، وتأتيك أسئلتهم الأكثر وجاهة وضرورة: أين الربيئة؟ من فيها جيش أم جحوش؟ ومتى عبرت الدبابة؟ وهل معكم آر. بي. جي؟ ماذا تعرفون عن الذين عبروا قبلنا؟ هل بينكم شهداء؟ كونوا حذرين ونحن أمانتكم هذه الليلة إننا بخير ما دمتم معنا..الخ.

وتقترب الساعة من الثالثة ليلاً ولازالت أعداد الجماهير على أشدها وتشتد المخاطر أيضاً حيث أخذت المسافات تضيق بين دبابة وأخرى أكثر من السابق وأحياناً أكثر من واحدة في كل دفعة، إذاً يجب تحديد وقت توقف العبور قبل الفجر الذي لاحت بداياته، ولكن كيف يمكن إقناعهم بهذا الأمر وهم على بعد أمتار من الخلاص؟ فالمجازفة في حساباتهم مبررة بل هذا وقتها

وعلى قاعدة (فاز باللذات من كان جسوراً) في الرابعة إلا ربع عبرت قافلة من الدبابات وهي أربعة على أبعاد متقاربة وبحركة بطيئة متطلعة لما في المنطقة. دجى الليل قد تسرب شيئاً فشيئاً ولابد من توقف العبور لصالحهم فالليل القادم مرهون بساعات فقط ولكن رغم هذا فقط أجهش العشرات بالبكاء وأصابتهم خيبة الأمل الكبيرة. أخذوا يتوسلون للمساعدة وإنقاذهم من الخطر ولكن كيف يمكن ذلك؟ وهل هم بالمئات؟ أبداً فهم بالآلاف الطائلة ومن يضمن ألا تأت الكارثة في اللحظات الأخيرة وندفع الثمن الباهظ؟ توقف العبور وانكفأت الطوابير وهي تجر الخطوات بصعوبة قاصدين وادي بازي ثانية ليكونوا ضيوفاً عليه ومعهم المزيد من المخاطر فقد ضاقت بهم الأرض وفي هذه الليلة فقط ومن نقطة واحدة قد انقذنا ما يربوا على (١٤-١٥) ألف مواطن عراقي مهاجر رفضاً للإرهاب هكذا انتهت ليلة ١٩٨٨/٨/٢٧ وجاء نهار ١٩٨٨/٨/٢٧ وقصصه الأكثر تعقيداً ومآسي.



# مقرنا في وادي الخيول يشد الرحال أيضا

بعد جولات عسكرية استطلاعية أواخر عام ١٩٨٢ استقر بنا الأمـــر على بناء قاعدة في وادي الخيول (كلـــي هســـبا)، ومنـــذ اليـــوم الأول في ١٩٨٢/١١/٢٦ وما كانت عليه من موجة ثلجية عاصفة ســـألنا الـــوادي العتيد عن التسمية ومغزاها وتاريخها فأجاب دون استطراد علـــى أن ذلـــك تاريخ سحيق والتسمية لا تحمل ألغازاً أو التباسات وهنا كانـــت الإجابـــة الأشفى على كل ما أدلى به الكبار.. قال الوادي نفسه انظروا هذه الشبكة من الطرق.. انظروا ماذا تركت في واجهة الأرض ضربات الحوافر هذه آثار الخيول وغيرها مما يؤمن نقل حاصلات الفلاحين للجانب الآخر مـــن جبـــل متين فلا وسائط نقل أخرى حديثة تؤدي إلى العمادية وسرســـنك وبـــامرني وغيرها. ثم ما لكم بهذه الأسئلة العقيمة فقد كان وادي الخيول واليوم أصبح وادي الشيوعيين وخيولهم فهو مضياف لكم وحصين. وفعلاً كان اختيـــاراً ملائما فهو على عيون الماء المتدفقة وعلى بعد قليل من القرى الكثيرة (٢٦) قرية كما تظهر الخارطة. وهناك كهوف منـــزوية ويصـــعب حـــتى علـــى طائرات العدو التأثير عليها وهكذا قضينا فيه منذ التاريخ الوارد أعلاه حتى ١٩٨٨/٨/٢٧ وتعتليه غابات كثيفة من المراعي تصلح كمراعي للخيـــول

وغيرها والتسمية ربما تحاشياً للاقتران بأسماء أخرى أقل مكانة (البغال والحمير) مثلاً لدونيتهما. فالخيول كما تعلمون رمز للأصالة والشموخ واللياقة.. الخيول مدعاة للخيال والعشق والكرامة واسترسل فقاطعناه بلمسة مصافحة حارة وتعابير الامتنان.



في صبيحة ١٩٨٨/٨/٢٧ عادت المجموعة من مهمتها في تأمين عبور الجماهير والنعاس يثقل أجفانهم وتعب الأمس (يسطرهم) كمن شرب حتى الثمالة. كان يترنح كأنه فقد صوابه. أما الوجهة في مقر الفوج الثالث للحزب الشيوعي العراقي في كلي هسبا فهي محسومة بخيار وحيد لا غيره هو اللحاق بمن سبقونا في العبور قبل يومين وينتظروننا في الأماكن المعلومة لنا وهم هذه الساعة أبلغت نقطة متين[٩] بضرورة التهيؤ للحركة وإخفاء الأثقال والأجهزة باستثناء الدوشكة. وعند المساء جاءت رسالة من لجنة

(العمادية) (لحدك) بضرورة تعزيز نقاط المرابطة في قمم متين وعلى هذا فوجدت هذه المجموعة أن مقرهم في قرية (بيشيلي) فارغاً تقريباً باستثناء مجموعة صغيرة والقيادة كانت في غير مكانها السابق، وعند اللقاء معهم تحدثوا بعكس رسالتهم إلى الفوج الثالث ففي الوقت الذي يطلبون تعزيز نقطتنا في متين أبلغوا نقطتهم هناك بالنزول على وجه السرعة وهذا أمر أربك عملية المخاطبة مع نقطتنا مما اضطررنا إلى إرسال بريد مباشرة للنقطة المذكورة بالنزول بالسرعة أيضاً وموقف قيادة الحزب الشيوعي العراقي في الفوج الثالث كان واضحاً من هذه التطورات وجرت لقاءات عديدة مع محلية العمادية للحزب الديمقراطي الكردستاني الحليف لتشكيل المجاميع وتوزيع القوى على المنطقة لكن ممثلي الحزب المذكور ناوروا بدعوى مفادها أنهم سوف يتصدون للعدو وحتى يوم ١٩٨٨/٨/٢٧ فأعلنوا قرارهم للعبور إلى تركيا وحاول حزبنا أيضاً التأثير على حدك من أجل التمسك على الأقل بالشريط الحدودي في هذا الوقت ظهر أن هناك لقاءات مع الأتراك من أجل التسليم لهم. وفي سياق الأحداث كانت أحزاب المعارضة تكشف لقاءاتها وتتدارس الجديد في الأوضاع بشكل متواصل نهار ١٩٨٨/٨/٢٧ لم يعد هناك سوى التنسيق مع من يعبرون هذه الليلة فليس من حل آخر سوى النجاة، ففي مثل هذه الظروف تقاس المواقف، سيما وحاجات الحزب ورفاقه مسؤولية الجميع والكل معنيين بها، كان جلّ الرفاق يدركون حراجة

المواقف وتراهم في حركة دائبة ذهاباً وعودةً مشغولين كل الوقت ويقظين أيضاً وساعات قليلة بأيديهم كل يبحث عن المكان الملائم لإخفاء حاجاته الخاصة فهي جزء من حاجات الحزب الهامة، كان يوماً مليئاً بالتلاحم الرفاقي والمبادرات الواعية في اللحظات الحرجة وتشاور يجري على أصغر الأمور والعقل الجماعي هو السائد، وأذكر أن للكل جهودهم المخلصة في هذا اليوم وكما يقال: في الملمات تجد الكثيرين ممن لا يملأون العيون في الظروف الاعتيادية الآن لا معين كالرماح لا تحتويها الأغطية المهلهلة، يقتحمون الصعاب بشراسة يشتبكون معها ليأخذوا منها لقمة ويرفسونها بأرجلهم مبعدين شرورها ويسخرون منها من نواياها الدنيئة.

وهناك الرفاق من يطوفون كل الغرف وأماكن الصيف ومخازن الأرزاق وأحدهم خص بالزيارة المقصودة لبرج البراجنة (١٠) فهي جديرة بالوداع اللائق وذكرياتها ستبقى خالدة. اللمسات الأخيرة تضع لترك المقر ولابد من زيارة المواقع ذات الدلالات وفي المقدمة منها الكهف المدور الصغير الذي ائتمن الحاجات في جوفه ولم يفرط بشيء منها، كان بالاسم مشجباً لسنوات عديدة لكنه في الحقيقة احتوى الأشياء الكثيرة فهو مخزن للبنادق بأشكالها والعتاد الإضافي وفيه أجهزة الاتصال والبوسترات التحريضية وأوراق التحقيق وسجلات الجمرك والمجلات الصادرة في السرايا ودفاتر الرفاق ووثائقهم الخاصة. فيه الألغام وصواعقها، وقنابل يدوية وقابوريات في

منتصف العمر وأمور أخرى كثيرة. هذا الكهف الغيور كان الملاذ الطبيعي لرفيقنا الشهيد أبو ليلى (نزار ناجي يوسف) في قضاء أشغاله الحزبية الخاصة في الأشهر الأولى من عام ١٩٨٣.



وعندما زرنا كهفنا الأمين آخر يوم وجدناه متنكراً وفي حالة الانـــذار المشدد منذ فترة طويلة فهو يؤكد عندما توثق أننا أصحابه القدامى دلنا على بعض الأشياء التي أخفاها وأنه عاد إلى ماضيه في اقتصار مهماته على استقبال الشمس صباحاً ككل المواقع الأخرى وسيبقى هكذا حـــتى وقـــت آخـــر. واستطرد في تطميناته من القلب أنه سوف لن يبيح بأي من الأســـرار الـــتي يعرفونها وهي في القلب منه تماماً أنه قمة ما ارتقيت إليه من مجد فقد وسموني بلقب لم تبلغه كل المواقع الأخرى وهذا شرف عظيم. الرفـــاق يبحثـــون في

منامات من عبروا قبل أيام ويجمعون الأشياء المتروكة من شـــواجير وأمـــور للطبابة ونواظير وكتب ذات قيمة كبيرة في حياة الأنصـــار و أوراق تحمـــل أسرار خاصة، وآخرين يأتون برسوم الأهل والحفلات والعبارات المكتوبـــة بخط اليد ولا زالت تحتفظ بعبق المشاعر الجياشة ووجد داخل ظرف كـــبير وغلاف أخضر بطاقات العضوية ونسخة من ملحق طريق الشعب الجريـــدة المركزية لحزبنا والخاصة بالمخربين، وصورة تذكارية لعدد من الرفاق أغلبهم شهداء وكراسة ديمتروف عن الكادر وتصريح المكتب السياسي لحزبنا عقب توقف الحرب العراقية الإيرانية. وفي لجة الحركـــة لا ينبغـــي الانشـــغال إلا بالأساسي والأمر يتطلب البرمجة المحددة بيوم واحد هو الأخير في هذا الموقع، ولكي تسير الأمور بالاتجاهات المرسومة لا بد من اليقظة ومراقبـــة الموقـــف والتحسب ذو المفاجأة وأول بأ ، وبهذا الشعور توجهت مجموعة رفـــاق إلى نقطة الدوشكة المطلة على المة من موقعها الصيفي المؤثر، كان أحدهم يخفي آلامه وتفضحها شدة الحرارة واحمرار الوجنتين والأنين المسموع الـــلاإرادي توتر الأعصاب وصداع يزداد وقصف مدفعي كثيف، نعم كانت المدفعيـــة المعادية قد دمرت أغلب قرى البرواري ومن يراقب ذلك يشـــق أن الليلـــة القادمة هي الحاسمة والمحدودة لاجتياح المنطقة بكاملها، وبعـــض القـــذائف تسقط على مقربة من أطراف مقرنا وبعضها دخانية فقط وللرصد. الســـاعة تقترب من الخامسة عصراً من ١٩٨٨/٨/٢٧ والموقف يمر ثقيلاً كمن ينتظر

شيئاً بفارغ الصبر قبيل غروب الشمس انسحبت هـــذه المجموعـــة إلى المقر استعداداً لمغادرته بعد قليل حين تكون كل الأمور جاهزة ولكن التباساً في إبلاغ نقطة متين أدى بها أن تتأخر وتعيق الانسحاب في لوقـــت المحـــدد، كانت هذه الثغرة البارزة قد أربكت خطة النهار من أن تنفذ بحـــذافيرها في الليل، انفعل الكثيرين ومعهم كل الحق حيث الساعة عبرت الحادية عشـــرة ليلاً ولم يأت خبر من النقطة فالكل على النار كما يقال في والوقـــت أخـــذ يمضي بسرعة ومجموعات أخرى خرجـــت بمهمـــات لم يكـــن في حســـابها ومواعيدها مثل هذا التأخير، وعلى غفلة جاءوا يكتمون الحركة بشكل جيد لكنهم في قمة ضبط الأعصاب فتبليغهم متأخر بترك النقطـــة ولا يعرفـــون الوجهة الجديدة ومواعيدها وتساءلوا: ترى لمصلحة من هـــذا الإربـــاك في التبليغ ومن المسؤول عنه؟ لماذا لا تؤخذ المهمات بما تستحقه من الاهتمـــام؟ أليس من الأسلم في هذه الحالات أن يصعد إلينا أحد المسؤولين كي يتم كل شيء وفق الخطة ولكي لا تتضارب في جوانبها الأخرى، على كـــل حـــال اللائمة لا تجد شيئاً والعبرة فيمن يوظفها لاحقاً وعلينا معالجة الأمور بجهـــد إضافي انطلقت المسيرة بكامل قواها وتركنا كلي هسبا (وادي الخيول) هذا الموقع الذي تناولته بالاستهانة الألسن الطويلة الصلفة وطعنه الكثيرين. بعض الرفاق ألقى نظرة وداع إلى كل بقعة من مقرنا العتيد الذي كان قلعة قهرت أزلام الفاشية سنوات عديدة... أليست من هذه المواقع وجهت الضـــربات

لمواقع السلطة ملحقين بها الخسائر البالغة في مئات المواقع، كانت أمنية للكثيرين أن لا تعتب علينا مواقعنا ونتركها بما يوحي بالهزيمة.



أنصار السرية الأولى الفوج الثالث بهدينان يحتفلون بذكرى ثورة أكتوبر عام ١٩٨٤

أبداً فالأنصار ومواقعهم كل لا يتجزأ ويؤمنون بمبدأ المصارحة وبالتثقيف الدؤوب والألفة القلبية الصادقة استوعبت هذه المواقع المفهوم الصحيح لحرب الأنصار وإرادتها تجربة مكللة بالنجاح وبهذا كانت كل المواقع جلدة في وداعنا وعقدت موعداً مع كل منا. وأحد الأنصار ردد مع نفسه وسمعه القريبون منه قائلاً (عذراً مقرنا العزيز) ولكن من جانبنا على العهد ما دمنا أحياء لن نحيد عن الطريق ولتكن شاقة، كم كانت الظروف حرجة والوقت ثمين والمسؤولية جسيمة، فهي ليلة هم الحزب بأسره فيما تعطيه من نتائج والأصيل يظهر في نهاية الشوط كما يقول المثل القديم.

رغم الظلام والسرعة فقد أخذتنا التفاتة جادة إلى تلك الغرفة التي كابدت الصعاب لتكون هي المدرسة الوحيدة في وادي الخيول فهي تجربة رائدة وخطت بمسعاها بعداً واعداً بالنجاح. إن قلقاً مبرراً يسري برؤوس كل الرفاق حيث هنا يتحدد مصيرهم وممتلكات الحزب... حزبنا الذي لم يأبه بالصدمات يوماً، وهذا اليوم أيضاً يسجل صفحة ناصعة في تأريخه الطويل وقد تكتب بالدم هذه الصفحة أمام أنظار الأعداء والأصدقاء معاً، وقوات العدو مستنفرة في كل المناطق وعلى امتداد الشارع متأهبة لتنفيذ خططها اللئيمة المحكمة، وكان السجناء الأنذال تغمرهم غبطة داخلية على الشيوعيين سيرغمون على إطلاق سراحنا تحت ضغط المخاطر كم هؤلاء الشيوعيين صارمين في تطبيق المبادئ، وقضية الحزب لا تقارن عندهم بأية قضية أخرى، القوى الأخرى ترقب عن كثب فنون الشيوعيين في تخطي الصعاب وهم أهلاً لها، الجماهير ما زالت في ذهنها عهد الليلة الماضية على أننا وإياهم في خندق واحد، وحتى الرفاق يحسبون كل خطوة بالتقييم ويراقبون كل تصرف في حينه، يضعونه في مقاييسهم المكشوفة الرهيفة ويشطبون بكل سهولة على تاريخ من تنال منه زلة.

إذن يجب الضغط على الجرح واستثارة الهمم وتلقين الدروس للمعنيين بها وقوة الحزب لا تقاس فقط بعدد أفراده وسمك عضلاتهم وبالضجيج وفوضى التصرف التي ساورت الكثيرين.

انطلقت المفرزة بسرعة مضاعفة قاصدة العبور على طرف من قرية كركة، الممر الوحيد هذه الليلة، ففرصة الأمس لم تعد قائمة وكانت هذه مأساة الآلاف ممن لم يحالفهم الحظ في المساء الفائت، لقد جاءت الصور ثانية أمامي، كيف أقنعناهم بالعودة وعهدنا معهم أن نكون معاً، ولا أدري لماذا يشعر المرء بالتقصير وينتابه تأنيب داخلي وكأننا قد غدرنا بهم والحقيقة أن الوقت هو خائنهم الأول وأعدادهم الغفيرة جداً حملتهم وزر النتائج التي يعيشونها الآن، ومن كانوا وراء الإشاعات حتى اللحظات الأخيرة وجهوا طعنة دنيئة للجماهير لن تنساها.

يمضي الوقت وتتسابق معه حتى أشرفنا على الشارع العام حيث الدورية بكامل يقظتها ونقاط الحراسة نراها بالعين المجردة وحركة السيارات بينهم والليل يجر أذيال ساعاته الأخيرة وكل يمسك بالبندقية بكلا اليدين تحسباً للمفاجئات وأي صوت محرم والإشارات فقط وسيلة التفاهم ونقطة للاستطلاع تتوغل للأمام حيث لا خيار غير المضي والمخاطرة في اقتحام الشارع.. الأرض المحروقة في النهار وبعض الأشجار لا زالت تحتفظ في خواصرها خزيناً من الجمر يأكل ببقايا أحشائها التي تعتصر آخر السوائل، وتأتي إشارة بالحركة الشريعة والمنظمة صوب النهال (وادي صغير) الذي تغمره المياه وتطوقه الصخور والحشائش المختلفة حادة النهايات. فينسل الرفاق بكل انضباط ووعي وأي تراجع يأخذهم أمام قبضة المقدرات

المجهولة. ملامح الصبح لاحت في الأفق وأزيز الراجمات والمدفعية والدبابات تهز الدنيا من أعماقها.

في هذا الظرف اعتمدنا أسلوب التسلل الجماعي السريع في داخل مجرى المياه التي تملأ الوادي من تحت الجسر. هكذا تسرب الرفاق بين الماء والأشجار والصخور دون توقف كطلقة أحدهم ينده الآخر بالسرعة والتوازن وهناك من هو بكامل الاستعداد لنجدة من يعثر ويغمره الماء حتى الرقبة، فدقيقة واحدة فقط كافية للخلاص وفعلاً تم العبور بهذه الطريقة. والحق أن لقيادة المفرزة دور رئيسي بل الوحيد في إنقاذ الرفاق من عبور محفوف بالمخاطر وقد تحقق التحدي الذي قطعناه في الطريق مع من كانت الدنيا حالكة أمامهم وهؤلاء هم وراء الإشاعة في كلي بازى التي أضرت الجماهير وأرادت الإضرار بنا أيضاً(١١).



مفرزة قتالية للحزب الديمقراطي الكردستاني في مناطق بروازي بالا

في استراحة قصيرة بعيدة عن الشارع قليلاً، تمتعنا باستراحة لـــدقيقتين تقريباً لنستعيد أنفاسنا ونتجرد مما لحق بملابسنا من أوحال ونعصرها من المياه الداكنة وبعضنا أبدل جواربه بسرعة بأخرى جافة ونظيفة ولا زالت أصوات القذائف تغزو كل المناطق لكنها تبدو بعيدة وعديمة الخطر علينا، وربما أنـــا الوحيد أتمدد على طرف من المفرزة أحذر أن تستهويني الراحة فهذا إغـــراء عواقبه وخيمة وأضراره كثيرة. قاطعتني فكرة أخرى فرضت نفسها، آخذتني صفنة، صورة الأمس القريب حين لم نزل في مقرنا العزيز، هاقد بدأ الحـــنين إليه إلى كل صخرة فيه وكل غرفة أرهقتنا في بنائها، هكذا بكل سهولة ينال منه الجبناء؟ وربما حنينا إلى الوريقات العزيزة التي وئدت هنـــاك وصـــغائر الحاجات ذات المعاني الكبيرة.

والأشرطة بأصوات أعشقها من القلب وتلخيصات كلفتني ســـاعات وأيام ورسائل أعتز بها وكراسات حزبية مركزة، حنيناً للماء المتدفق الذي لم تنال منه كل تقلبات المناخ، سخياً بدفئه، صافياً حلو المذاق بعذوبته، أشـــياء كثيرة لا تغادر الذاكرة، والصورة الثانية التي أحاطتني وســـحرتني بكامـــل الإحساس جذبتني من الأعماق فأجد نفسي الوحيد واقفـــاً، كأنـــه إيعـــازاً بالحركة فوجدتها صورة لا تنفصل عن الأخرى بل امتـــداد لهـــا تـــراءى لي موكب شهدائنا في المنطقة التي نتركها، وقفتهم مشدوهين كـــأنهم يريـــدون اللحاق بنا، أن لا ننساهم، عرفت منهم الكثير من بعيـــد وهـــزتني منـــهم صيحات أبو كريم (حاتم نمش) وابتسامة أبو رغد (عباس مهدي) المعهـــودة وإيماءة من أبو سمر وهو بهندامه القديم وعلى جانب منهم ســـليم مـــانكيش

وسليم الآخر ذو الطبيعة الهادئة الأليفة وكل الآخرين إذ لم يتغيب من سهداننا في بهدينان آخر، كانوا مستنفرين كل بما لديه من أسلحة وعتاد. وهكذا إذا يتولد الحنين للوطن وللقمم الشاهقة فيه بشكل خاص. آه كم كانت بلادنا تمدنا بالدفء والقوة والضحكة غير المفتعلة. تمدنا بالإصرار والتفاؤل.



مفرزة انصارية



# إيحاءات آخر الليل

تظافرت المتاعب التي لا تطاق مع السهر المتراكم وانعدام الزاد والشهية معاً حتى أخذت أجواء القصف تحيل مواطئها إلى ألسن اللهب المتصاعد.. ومن وجهة الوميض حددنا كم هو نصيب مقرنا في وادي الخيول.. هزتنا هذه المشاهد وضجيج الصدى العنيف ومشاعرنا قلقة متوترة في هكذا حال زودنا الخيال بأشياء كثيرة جميعها مخيفة وإذا بفيروز تلقي بالكلمات النابعة من صلب الأحداث.. ترتقي عنان السماء وتناجينا وتحد من فزعنا وربما تناجي أيضاً من تركناهم شهداء تحت الثرى في مقرنا المقابل لنا فتقول:



يـــا جبـــل اللـــي بعيـــد
خلفـــــك حبايـنـــــه
بتمـــوج مثـــل العيـــد
وهمـــك متعبنـــــه
اشـــتقنا للمواعيـــد
كلمـــا تعـــذبنا
بعـــدوا الحبايـــب
بيعـــدوا بيعـــودوا
عـــا جبـــل عـــالي
والقلـــب ذايـــب
شتل ازهور وبين هلشـجرات
في طيريـــن
وعميســـألوا لاويـــن
ها الأصحاب راحـو لـوين
شـــوفوا المواقـــد
رئمـــدوا رمـــدوا
قلـــت لهـــم يـــا مـــين
علحلـــوين يســـألني
بيـــذكروا تخمـــين
صـــاروا هيـــك غـــدارين
مـــن غيرنـــا راح
يسعدوا.. يسعدوا.. يسعدوا

# قمرية هذه القرية الباسلة

أفاقت المفرزة مع بشائر فجر ١٩٨٨/٨/٢٨ وأخذ الرفاق يلــوذون بحماية منعطف آخر يهزأ بكل مهاترات النظام وأعطى عهداً أن يكون منيعاً يحرص على الأنصار كما على حدقة عينه، إنــه وادي قمريــة.. فالوديــان تتضامن فيما بينها لصنع المآثر الكبرى وهذا ما لم نعرفه سابقاً، نسير بطريــق يلتوي أحياناً وينحرف قليلاً باتجاه الشرق وعلى اليسار منه يأخذك خريــر الماء يطرب النفس رغم متاعبها التي عكرتها، وكلما تقدمنا أكثر في العمــق يتصاعد الاطمئنان.. قال أحد الرفاق: اليوم نحن ضيوف قمرية، هذه القرية التي سمعنا الكثير عنها، عن ماضيها وجهادها وعن تاريخ أهلها وطيبتهم، في مثل هذه الأيام فقط نعرف قرانا ولا نأتيها في الأيام الاعتيادية، وللأنصــار أمثلتهم اليومية إذ يقولون: في الشدائد تعرف أصالة القرى وعمق عــدائها للطغيان، وفي الشدائد أيضاً تأخذها الحمية تستفزها الأحــداث لتغضــب وتقاتل بما أوتيت من قوة وبما تمتلك من أسلحة، صخورها تقاتــل والقمــم المشرفة عليها تعتصم ترفض أن يقترب منها عدو دخيل وأشجارها تتســابق لاستضافة الشيوعيين وهي تقدم أفضل أثمارها للمناضــلين وتحرمــه علــى غيرهم، فالأشجار طيبة القلب حسنة النوايا لم يكن في بالها ما يجــري مــن مكائد على الحدود، بل ليس الأشجار وحدها تجهل ذلــك إنمــا الأنصــار

وأشجار كردستان وارفة الظل يتقاسمون الطيبة وحسن النوايـا ومبـدأهما الوحيد والمشترك هو الصراحة أولاً ومن ثم الاتفاق، قرية قمرية قـد شملنـا بالاطمئنان الكامل وأبعدت شعور الخوف عنا هذا الشعور الذي تسـبب في تبدد انضباط الأمس وحماس العبور بل أكثر استسلمت عضـلات الـبعض لينفذ فيها التعب المتراكم وبعضهم كمن يعيش على بقايا الاحتياط من قواه. كل يجر قدميه للأمام بصعوبة والعرق يتصبب سخياً من جبينـه والـوجنتين وكل الانحناثات الأخرى وما أن وجد فرصة إلا واستلقى على الأرض كأنه جزء منها.

كان هؤلاء الرفاق قلة والأكثرية يدركون بخبرهم الأنصارية ومخـاطر الاسترخاء في غير وقته ومغريات النوم والشعور بالأمان وهم يعرفون مكان الاستراحة ولا يريدون التنقل أكثر من مرة فقد زار بعضهم القريـة سـابقاً وربما يقصدون بيتاً مضيافاً ليكونوا فيه قبل غيرهم وهكذا انشطرت المفـرزة إلى مجموعات ثلاثة الأولى أفلحت في الوصول إلى المكان المناسب وفريق آخر من تسعة رفاق توسدوا عين الماء أسفل القرية وناموا هناك وفريق ثالث بـين الاثنين قد اختاروا أماكنهم كيفما أنفق هكذا (على التراش) ولـيس عبثـاً اختيارالهم هذه فقد جذبتهم المزارع اليانعة بكل ملذاها والأنصار قبل غيرهم ذواقين في اختيار الأماكن وتأخذهم (الميانة) بدون شعور منـهم ليكونـوا والأشجار كالتوأم ومع المزرعة أولى من أصحابها، ومياه كردسـتان غالبـها باردة، عذبة المذاق بل أهل كردستان قاطبة يعشقوها من منابعها الرئيسـية، ونيراهم تعتمر على العجل ولا تؤذي ممتلكات الفلاح الـذي ربمـا يحمـل

السلاح مثلهم، وبهذا تبعثرت المفرزة حيث الأوائل وصلوا البيوت في نهاية القرية وملاجئها الحصينة التي كانت على امتداد القرية يشكل شريطاً ينحني بانحنائها وتسعة رفاق أخذهم غفوة الصبح إلى ماضي رغيد في الطريق المنحدر من القرية وهناك العدد الأكبر بين المجموعتين كانوا قد توزعوا على عادتهم في البيشمركة وانصرفوا كل لمهمة بهدف تهيئة وجبة الصبح والبعض حتى الآن يعتقد أن قمرية عامرة بأهلها، إذ لا يمكن للمرء أن يتصور هذه القرية وباهيئة التي كانت عليها إنها مهجورة، فليس هناك ما يدلل على ذلك وكانت المزارع تقطر ماءً وإنتاجها مبذولاً والرفاق والرفيقات قد تناولوا الأكل الجماعي وكم كان شهياً وعلى فراش من الثيل المعطر ببخة خفيفة من الندى يشربون الشاي ويتبادلون السجائر ويضحكون ولا زال تعب الليل يترك بصماته على وجوههم الذابلة.. يتذكرون الصعوبات التي زادت من لحمتهم وعزمهم على تذليلها وللذود عن آمالهم وأهدافهم التي أفنوا سنوات العمر من أجلها أخذهم صحوة مؤقتة بالحديث وبشيء من السخرية عن عقلية عملاء النظام ومرتزقته ودنائة نفوسهم، فهم يذبحون أبنائهم وصولاً لغنيمة مادية تافهة وإن أفقدهم قيم النزاهة وشيم الرجال وأولويات الوطنية.

وبينما كان الجميع في هذا السياق من الحديث وبعضهم قد تحلل من قيود جعب العتاد المتراصفة كحزام من الطابوق منذ اليومين تجثم على أحشائهم ويستلقي في مواجهة الشمس التي مدت خيوطها الذهبية لتكتسح الموقع برمته، وآخرين لا زالوا على مقربة من مائدهم المتواضعة يتناولون

بقياها بحجة (النكنكة) لكنهم عملياً يوغلون بالشهي منـــها مـــن ســـلاطة متكاملة المكونات وقطع اللحم وقد تحمصت في زوايا علبتها وهـــي علـــى حاشية من الموقد الهادئ وفاكهة تستقطب اللعاب مـــن أعمـــاق الغـــدد، وحتى الآن ليس بيننا من لديه تصور عن الذين ما زالوا ينطرحـــون أرضـــاً كجذع النخيل على مقربة من الشارع، أسمائهم، عددهم، بعدهم عنا؟ أحداً لا يعرف ذلك وعلى غفلة جاء ما يبدد هذه الصورة الرومانسية في الطبيعـــة في قمرية وعكر الأجواء الشاعرية الساحرة التي تحدثنا عنها.. يـــأتي النـــداء يدعونا بالسرعة والاستعداد الآني للانسحاب ومرتزقة النظام يحتلون القمم المطلة علينا من الجنوب الشرقي بما يقارب المائة متر أو أكثر بقليل كخـــط نار.

استخف بعضنا بالخبر ولكن الالتزام تعودنـــاه في الحيـــاة الأنصـــارية والتنفيذ جماعي ومطلق نهض الجميع كل يعالج نواقصـــه والقلـــيلين كـــانوا بالجاهزية الكاملة فاتجهوا فوراً إلى المنعطف القريب الغـــير المواجـــه للقمـــم المذكورة وآخر من الرفاق شهم انطلق من تلقاء نفسه إلى حيث ينام الرفاق التسعة عند عين الماء أسفل القرية وربما كان معهم في بداية غفـــوتهم هنـــاك ويعرف مكانهم، لحظات وتبدء رماية العدو الكثيفة، رشقات في كل المنطقـــة التي ننتشر فيها وبعض الاطلاقات بين أرجل الرفاق تماماً وطلقـــة حارقـــة أدوت بكديس الحشيش اليابس أن يشتعل ليشكل خطراً على المحتمين بـــه، وبعض الرفاق والخطر يداهمهم أبدوا شيئاً من التماسك والمبادرة الواعية في وقتها وفي انتشاهم للبنادق وأولها الـــ بي كي ســـي إلى جانـــب النـــواظير

والمخازن وحقائب الرفاق البدينة بالأشياء الضرورية الخاصة، لكن قوات النظام واصلت الرمي بكثافة وظنوها فرصتهم للغدر وديدنهم الخسيس، فتطلب الأمر الاختفاء التام لحين أن يتسنى للرفاق في المواقع الأخرى الرد والمشاغلة لتأمين اكتمال انسحاب المفرزة المشتتة، كان هؤلاء المرتزقة قد فاتتهم حقيقة أنهم يؤدون مهمة لا تشرف وأيديهم قصيرة وأفق تفكيرهم محدود بمدى ما يقبضون بأي الوسائل ولهذه الاعتبارات وغيرها ارتبكت قواهم وكانت لهم أصوات أخرى منكرة وخانهم افتقارهم للمعنويات أصلاً وهم ليسوا أهلاً لها، ولا زالت بنادق الأنصار مشرعة وأيديهم بالكفاح الثوري متكيفة على الزناد والشعيرة. قالوا: هم بدأوها فلتكن ملحمة قمرية المتميزة ولتشهد هذه القرية الأبية ذات التاريخ العريق أن هؤلاء المرتزقة أذلاء وهم مطايا للفاشية البغيضة عدوة شعبنا.

يمر الوقت وإطلاقات النار منهم همجية وأصواتهم الخلفية والحق يقال تسمع منهم بوضوح أيضاً كصدى متزامن مع الإطلاقة، ونقطة الخوف الرئيسية كانت على الرفاق وقد عرفناهم تسعة خاصة والصعوبات على بعضهم مضاعفة ولا زالت في نفس المكان بعض الأسلحة والأدوات والحقائب وأمور أخرى انتشر الرفاق على أكثر من سفح وفوق القمم والمواجهة للعدو وإيقافهم عند حدهم وواجهت نيراننا بكثافة مضادة وسديدة متواصلة حتى الغروب تقريباً.

وقمرية ترتدي ملابس الحزن ومظاهرها مؤلمة تترك في القلب حسرة عميقة، الآن عرفناها مهجورة تماماً منذ الأمس كان هذا مفاجأة للكثيرين وما أكثر المفاجئات والخفايا المجهولة، قذائف الـ آر بي جي تنهال على القرية لتحرق الأخضر واليابس وتعيث بالبيوت خراباً، وأشجار (السبندار) (١٢) فارعة القامة تعانق الجبال هي الأخرى تشتبك مع العدو أيضاً وأجسادها دروع مضادة لهم تقي من يخبو خلفها لم تحني قامتها له فهي أشجار أروع ما فيها قامتها الشماء إلى جانب تنديدها بالفاشية وسخريتها من الرصاص المعادي الخائب أما البيوت فهي تحكي العجائب، تروي قصص رحيل أهلها الطيبين ولكن باللغة الصامتة الحزينة فهذه خطوات من كانوا حفاة ولا زالت مطبوعة في الوحل على جانب مجرى من الماء النحيف وذكرتني وباجرف (١٣) وأماكن النوم كما هي مفروشة في أولى ساعات الليل المكبل بخفايا المستقبل، لكن قمرية هذه الليلة لم تعد على سابق عهده أجوائها رغيدة وفي غضون دقائق تقرر تركها كما يبدو في وقت واحد بدليل إن آثارهم تؤكد ذلك مناماتهم في بدء هيئتها قبل النوم فيها فهذا مكان رجل البيت على طرف وذاك مكان الشاب وزوجته في مكان يؤمن لهم الخلوة المطلوبة وأماكن الأطفال بعيداً عن مصادر النار وهناك بالتأكيد كانت الإمرأة وهي تعد وجبة العشاء لكنها لم تنته منه فالطماطة في إناء مقطعة وبقي البصل المفروم لوحده يحترق وسط بركة من الدهن في مقلاة على نار هادئة، وأخرى تفتح رغيف الخبز على النصف فوق قطعة الخشب المسطحة (الخانك) (١٤) وقبيل أن يرتديها الصاج المحموم حد الاحمرار تترك الحالة

بهذا الموقف وكل يأخذ طريقة للانسحاب ومظاهر أخرى عجيبة. وقمرية تبدو من هيئتها أنها غنية بإنتاجها فهناك أكداس من الأرزاق في كل بيت والأثاث الفاخرة وصور عائلية بشيء من العناية وأوراق زواج وأواني زجاجية لم تدخل ميدان الاستعمال المطبخي بعد، وغيرها ويترك كل شيء على ما هو عليه بعد ظهر ١٩٨٨/٨/٢٨ دفعنا الجوع إلى بيت متروك يجاورنا فقصدناه وأخذنا ما يكفي لوجبة من الرز وقليل من الدهن والأواني اللازمة لطبخها وما عداها فمن المزارع مباشرة، ورفاقنا بعادتهم يتوجسون في أخذ ذلك على أنها ممتلكات الناس وربما في الليل يكونون عندها والتجاوز على قليل منها يعرضنا للإحراج أمامهم في المساء القريب، لم يكن في بالنا أن هذه الأرزاق وغيرها هي ستكون غنائم المرتزقة ما أن يحل الليل، تمر ساعات العصر وقذائف العدو لا زالت تنهال على قمرية فحقدهم عليها دفين. في ساعات الغروب ازدادت القذائف وظن بعض الرفاق أن تسلل من الجنوب تعرضت له القرية وازدادت الخشية على الرفاق المقطوعين عنا منذ الصباح فهم حتى الآن مجهولي المصير وتصاعدت أعمدة الدخان الكثيفة في أرجاء قمرية وتولد شعور أن المقاومة القادمة ستبدأ من هذه المواقع الملائمة للمقاومة وقهر أي تقدم ينويه العدو ولم يرد في خلد أي منا المصير الذي عرفناه بعد يوم واحد على امتداد الحدود مع تركيا، كل ما في بالنا أننا تجاوزنا المخاطر الحقيقية وسنرغم العدو على التقهقر يجر أذيال الخيبة. عند الغروب لاح شبح في الأفق من بعيد على قمة من الغرب وصوت من هناك لم نفهم ما يقرب اقترب قليلاً فاترب منا صوته.. إذن رفاقنا في الحياة يا

للفرحة فقد خابت كل مراهنات الأوغاد وعار عليهم ما بذلوه من عتاد فلم يحصدوا سوى الهزيمة، جاء الرفاق وعمتنا البهجة والمصافحة الحارة المهم هذا اللقاء أما التعب الطويل فهذا تبدده عزيمة المناضلين التي لا زالت ذخيرة منها لمثل هذه المواقف.. تحركت المفرزة إرتداها جبل عريق آخر فنحن في عهدته ومن خلاله نسير مع الرفاق التسعة بعد أن أشرفوا على الموت الحقيقي وكأن فراقنا معهم دهراً على جانب أجرد نسير بتلاحم ومعنويات قوية وكلما تسلقنا أكثر نشرف على مناطق البرواري التي كانت أعمدة الدخان تخنق صدرها ورأينا معالم مناطقنا هناك التي نعرفها بدقة ونحن إلى القمم التي كانت تحتلها نقطة متين وبدايات وادي بازي التي تشتبك مع الموت الفاشي وعرفنا امتدادات وادي الخيول ومعالمه.. وهنا قد لاذت الشمس دون سابق إنذار لتطمس بصيغة تآمرية معلنة انتهاء واجبها النهاري المرهق.

تحركنا وملاحظات الرفاق وإيضاحاتهم بدأت عن قمرية وتاريخها وكم عانت في عمرها من قذائف مدفعية النظام وطيرانه، لقد أمدت الثورة بالحاجات الضرورية وخاطرت في استقبال البيشمركة وحتى هذا الطريق الذي نسلكه الآن لم يبخل يوماً في الأخذ بأيديهم بعيداً عن مداهمات العدو وكان حلقة الوصل الرئيسية بين الثوار ومتطلبات حياتهم اليومية وبينهم وبين الجماهير مصدر قوتهم. في هذه القمة جرت عدة محاولات بجهاز الاتصال المتطور لمعرفة الوضع عند المكتب العسكري المركزي ولكن لم يحصل هذا الاتصال وبهذا انقطعنا أيضاً عن الفوج الأول وانقطعت معلوماتهم عن نسير بمعنويات عالية وقبل أن يحل الظلام دخلنا قريةً أخرى لم

يسبق لأغلبنا زيارتها قبل الآن واعتقدناها مأهولة لكن المفاجأة حين عرفناها خالية إلا من رفاقنا ممن وصلوها في النهار من قمم كانوا يحتلونها كإسناد لنا في موقفنا مار الذكر في قمرية، إنها قرية هرور الصيفية (زوم هـــرور) كـــان العشاء على طريقة اخدم نفسك بنفسك وأكثر الزاد هو الـــدجاج إلا مـــن تعب الإعداد والطبخ فقط، أما المنامات فكل على ذوقه في الاختيار وبعضنا يطوف في البيوت بحثاً عن لحاف بمواصفات يرتاح لها بعد تعب طويل كانت ليلة هنيئة ونوم من الأعماق حتى الصباح ومنـــذ ســـاعاته الأولى تحركنـــا بانضباط عال فدرس الأمس استقر في الذاكرة طوال العمر، والإهمال لم يعد مدعاة (للمحارشة)، والأوضاع تبدوا جادة في تعقيـــداتها ولا تشـــفع لمـــن يرتكب خطيئة وهو وحده يتحمل ما تجلبه من عواقب.

كانت تسير معنا قوات أخرى وجماهير ولم يكن لـــديهم جديـــد مـــن المعلومات عن المنطقة أكثر مما نعرف.. الأرض جرداء والطريق مسحوق من كثرة المارة وهذا ما عزز المخاوف من الطيران والمباغتات.



# وينشأ قلق لم يكن في البال

ونحن نسير قاصدين الحدود ونقطة تجمعنا بكامل القوة، جلب اهتمامنا شيء غير طبيعي وحركة الطائرات التركية المتواصلة على الحدود، وخلقت هذا بدايات التخوف.. إذن نحن أمامنا مصيدة والمثل يقول (الطـير النجـر ينصاد من منقاره) لم يكن في بال أحد منا الحقيقة التي عرفناها بعد يوم مـن وصولنا كلي شهيدان على الحدود مع تركيا، كـان اعتقادنـا السـائد أن الجماهير تتخذ من المواقع الحصينة ملاجئ لها وبحماية البيشمركه ممن توزعوا للالتفاف على العدو وإيقاع الخسائر في قواته. وصلنا ظهراً فكـان الفـرح كبير بوصول الوجبة الأخيرة من الأنصار، واكتملت القوة بعد مسيرة طويلة متعبة.

ازداد الخوف عندما وجدنا من سبقونا بوضع نفسي معقد، والجمـاهير اندفعت مضطرة داخل الأراضي التركية، واشتبكت مع الجندرمة في أكثـر من موقع، ووجدنا أعدادهم الحقيقية تفوق بأضعاف ما كنـا نعتقـد وقـد تعرضت جماهيرنا هناك للإهانات من عناصر تركيـة حاقـدة وهـددوهم بالتسليم الإجباري للفاشية بكل صلافة، كانت بعض الإشاعات بالضد مـن مصلحة الجماهير إلى جانب مخاطرها ومضاعفة متاعبها، حيث راجت إشاعة

أن العبور إلى تركيا غير ممكن من هذا المحور عند قرية خنـــوكي الحدوديـــة، وربما تكون الفرصة مواتية أفضل من محور آخر على طريق قرية أوري، وأمر كهذا يتطلب العودة للعمق العراقي ومخاطرة اســـتفزازية إلى جانـــب عـــدم وجود ضمان بمثل هذه المحاولة للعبور من هناك مع تأثير الجوع الـــذي هـــد القوى وأخذ يغزو الجماهير الفلاحية وعوائلهم الفقيرة وإمكانياهم المحـــددة، ممتلكاهم الأساسية كانت عبارة عن الأرض الخصبة والمياه الوافرة وحيواناهم التي تشكل ثروهم الكبيرة وقد ناصبتهم الدكتاتورية عدائها الســـافر منـــذ سنوات، فالحصار الاقتصادي هو السمة البارزة في أفعالها وفرضـــت علـــى منتجاها المحاصرة المشددة أما ثروهم الحيوانية وهي مركز رزقهم اليومي فقد تفرهدت بالآلاف بأبخس الأثمان إن لم تسطوا عليها الضـــواري البشـــرية.. كانت قطعان الغنم والماعز والأبقار والبغال والخيول والدواجن إلى آخـــره، تملأ الوديان وتأكلها الوحوش الهائجة، إن الأحداث بما هي عليه من مخاطرة ترغمهم على ترك الممتلكات وبهذا تجردوا من مقومات العيش وضـــماناته، ويغادروا أرضهم والبيت مرغمين وأشجارهم المثقلة بالثمار، ومنـــاظرهم في الإنسحابات مأساوية ومؤلمة جداً، يتبادلون الحسرات يأسفون عدم اغتنـــام الفرصة لبيع أغنامهم قبل الآن وتحويلها إلى عملة نقدية سهلة النقل تحســـباً لمثل هذه الأحوال، فقد كانت أسعارها باهظة لكـــن للظـــروف أحكامهـــا الجائرة.

إن متاعب مصاحبة الحيوانات لا تحصى وعليه أن يتركها في أي وقت حينما يتعرض للمخاطر أو تداهمه أسراب الطيران وهو في أرض مكشوفة أو كمائن الأعداء، أو عندما ينكشف النهار لتجد الربايا من كل الجوانب وبهذه الظروف كثيراً ما تكون ممتلكاتهم ليست من نصيبهم، وعند تعذر العبور في الليالي الماضية بقيت آلاف الأغنام محاصرة في البرواري باله مما دعا أهلها للهروب وتركها هناك سائبة، فغنموها المرتزقة عند تقدمهم على المنطقة أما التي أمكن إيصالها إلى الأراضي التركية وهي بعشرات الآلاف أيضاً فقد هبطت أسعارها حيث التي كانت قبل يوم تصل السبعين ديناراً مثلاً تراجعت إلى أقل من العشرين ديناراً فقط. وكانت القطعان متروكة في الوديان لوحدها، ومما هو مؤلم الصورة التي يغادر بها الناس حيواناتهم وهي تموت أمامهم ولا يمتلكون حلاً لها وكانت هذه كارثة على الجماهير حيث انتزعت منهم ممتلكاتهم تحت ضغط الفوضى والتعب والمخاطر والخوف والإنهاك والتشتت وخرجوا بأنفسهم فقط وتحولت الشعاب إلى بؤر لا يمكن اقتحامها من تأثير الروائح من الحيوانات المتفسخة، وبقايا المذبوحة منها، وعند الحديث عن مأساة الجماهير فإن جزءاً من هذه المأساة جلبتها لهم مواشيهم التي تسببت في تأخيرهم وإرهاقهم حتى وصلوا نهاية المطاف فتخلوا عنها. في هذه الأيام نشط تجار السوق السوداء فهي فرصتهم وظهروا (القشورية)[١٥] على حقيقتهم، وحتى البنادق لم تعد مدعاة للاعتزاز في هذه التطورات الشائعة.. الأخبار تصل عن آخر تطورات الموقف على الحدود

وهي تثير الهلع أكثر لدى الجماهير والتهديدات في كل نقطة عبــور وآلاف الجماهير يفترشون الأرض ليلاً ونهاراً ويتهامسون فيما بينهم في أن تكون أية إهانة من جانب الجندرمة التركية الحقيرة هي ساعة الصفر للتصادم معهــم وليكن ما كان، فكفى تحملاً ما دامت المسألة تتحدد بالكرامــة أو المــوت، فالموت بكرامة لا زال بطولة.

إن هذا الواقع هو الشكل الجديد الذي تجلى فيــه تلاحــم الجمــاهير وغيرتهم على بعضهم وتناسي الخلافات السابقة، وكانت الأوضــاع علــى امتداد الحدود مشحونة بالجديد المرعب والأحلام السوداء تراود الكــثيرين وتداعي المعنويات ينتاب بعضهم والوقت لا يحتمل المراوحة على الحــدود، لابد من الاندفاع إلى الأراضي التركية فهذا هو الســلاح الجديــد الــلازم للمنازلة في الميدان وهو بهذا الحال أصوب وأمضى من البنادق تحت ضــغط الأمر الواقع.

إن أنصارنا فحتى الآن يتوزعون في وادي كالح ومكروه وآثار الآلاف تترك بصماتها على امتداده فقد تجردوا هناك مما يثقلهم من ملابس وبطانيات وأمور أخرى كثيرة، نعم كان الرفاق مهمومين لا تسعهم الأماكن فهــم في حركة ووجوههم شاحبة وإن كانوا لا زالوا يمسكون بالنبــادق ويعــززون مخازنها بأخرى إضافية جديدة وتبديل القابوريات بأنواع أخرى أكثر جــدة، ويبحثون عن الزمزمية اللامعة وحقيبة الظهر والنــاظور والقنبلــة اليدويــة

وحربة حادة تتوهج.. فمن جديد ينبغي التأثيث لحياة البيشمركه في أيامها العصيبة، وتحدياً لمن ألقوا بأنفسهم متهافتين في غياهب المجهول المظلم، إن هذا مأخذ مادي ملموس على ضعف هؤلاء ووصمة دامغة في تاريخهم وعندما عرفنا أن مفرزة تحركت بحثاً عن مقر مؤقت طفحنا بالمعنويات والنشوة والمرجلة، وحتى الآن ليس ببال واحد منا إنها ساعات فقط ويفرض علينا إلقاء السلاح بكامله عندما تعقدت الأوضاع وللتاريخ إن قوتنا بقيت لوحدها حتى الأخير والتفاف قوات النظام الدكتاتوري على كل المحاور الرئيسية وتهديد موقعنا بالتطويق والمخاطر الجدية، هكذا تولد ثم تعاظم القلق مع تقدم الوقت وكانت بعض المعلومات قد أفادت أن اعتقالات واسعة بين الجماهير وبيشمركه الأحزاب وحتى مجموعة من أنصارنا كانت بمهمة استطلاعية قد شملها الاعتقال ومصيرها مجهول ومهدد، وفي هذا الأثناء عادت المجموعة التي كانت تبحث عن مكان ملائم كمقر مؤقت وهي بقناعات أن فكرة اختيار أماكن معينة كمقرات ليست واقعية على الإطلاق ومستحيلة حيث كل المواقع التي كانت في البال هي الآن تحت قبضة قوات العدو، فمن جديد تبدد الأمل في إمكانية الاستعداد للعودة المعاكسة. تأتي ليلة ١٩٨٨/٨/٣٠ ثقيلة كئيبة بشكل لا يوصف ويتعمق التعب حتى وصل العظم وشل الأعصاب.. تجد مجموعة رفاق يقبعون تحت بطانية واحدة وآخرين يتقلبون على الأرض وجهاً لوجه مباشرة حتى يأتي الصباح يحمل الجديد من الأخبار المفرحة ينصرف كل إلى مهمة معينة في المواقع العديدة،

فالانتشار لا يستثني أحداً فهو إجراء ضروري ريثما يتقرر شيء من الهيئة القيادية وربما الواقع يفرض إجراءاته التي لا مناص من الامتثال لها. إن قلقاً واقعياً خلقته الأوضاع والأخبار الواردة كل ساعة وآخر الأخبار أن عدداً من البيشمركة لم يعبروا الحدود التركية فقط إضافة إلى أنصارنا بكاملهم واللقاءات تعقد بشكل متواصل لكنها لا تتمخض عما يبدد حالة الاكتئاب المخيمة على النفوس والكل يلسبهم قلبهم عما يحصل للآخرين وآخر التطورات على كافة القواطع وانقطاع الاتصال ما زال قائماً مع قيادة الحزب ومواقعنا الأخرى رغم المحاولات العديدة، أما الجماهير آلاف العوائل فقد خاطرت واندفعت داخل الأراضي التركية وتدافعت واصطدمت مع الجندرمة في أكثر من موقع، أما البيشمركه فيرقبون نتائج هذا الوضع.. يقفون خلف الجماهير، يلوذون بها وهم طليعتها كما يدعون ولكن الواقع له منطق آخر لا يؤكد ذلك، في حين كلمة بيشمركه كردية معناها (فدائي) ينبغي أن يخوض الوغى قبل عامة الجماهير ليكون أمام الموت من أجل القضية، ماذا يدور في رؤوس هؤلاء الناس؟ لماذا بهذه السهولة يعتمد اللجوء الجماعي؟ وبكلمة أدق لماذا لم تحصل مقاومة للعدو؟ لماذا اختيرت الحلول الأضعف؟ هذا كان مأساوية الموضوع ككل. في هذا الظرف الدقيق كان الإجراء الأول أمامنا يقضي بإرسال عدد من الرفاق المرضى ومعهم الرفيقات ورفاق لهم ظروف خاصة، كان قرار صعب جداً لا يستوعبه أحداً فهؤلاء الرفاق رغم أمراضهم مناضلين بعقولهم في أصعب الظروف وأثارهم

هذا القرار باعتباره إهانة لهم واستهانة بتاريخهم الطويل وكأن ذلك محاولـة لإبعادهم عن الحزب، في وقت كانت فكرة القرار أن يكون هؤلاء الرفـاق وبسبب ظروفهم الخاصة مع الجماهير يذوبون فيهـا في القـرى التركيـة، الخواطر تعكرت كيوم القيامة والرفيقات بشكل خاص دموعهن نابعة عـن حرقة قلب حقيقية، حدقات العيون حمراء تجدح بالغضب معبراً عنه بالصمت والدموع الحارة وهذا قرار كان مرفوضاً رغم أنه لخدمة الحـزب وفرضـته الحياة القاهرة. لكن هيهات إقناع الرفاق بتنفيذه فهم يقولون: هـذا لـيس سهلاً إنه كل شيء ويصعب تحمله، وقبل تطبيق هذا القـرار وفي أعقـاب أحدث الاجتماعات التي درست الموقف العصيب المرتبط بـالواقع البـالغ التعقيد، كان الاختيار الذي لابد منه وليس من طريق آخر سوى اختـراق الحدود لجوءاً للأراضي التركية أسوةً بالجماهير وبهذه الطريقة تداخل القرار الأول بقرار آخر أشمل منه هو اللجوء الجماعي، كم كان قاسياً هذا الاختيار بعد أن تبددت كل الآمال للحصول على مواقع تصلح كمقرات مؤقتة، إذن القرار الوحيد ممكن التطبيق رغم مرارته هو الانضمام إلى عموم البيشمركه للقوى الأخرى كان هذا مفاجأة للرفاق ولم يرد ببال أحدٍ منهم قبل الآن بل لا يراودهم في الأحلام أيضاً أنه بمثابة الطعنة لقلب الكثيرين ومـن جديـد انهمرت دموع أغلب الرفاق لكنها ليست دموع بدون معنى ولا هي تعـبيراً عن خوف أو ضعف، إنها قبل كل شيء تعلق بالحزب وبالنضال.. وتعلقـاً بالأرض التي ترعرعوا فيها والمواقف القوية التي اعتادوها، جـاء التوجيـه

الآخر بالتخلص من الوثائق وكل الأمور الخاصة بشكل جيد استعداداً للالتفاف بالجماهير في خنادقها وتحمل ما ينطوي عليه هذا الارتماء من نتائج وهذا القرار هو الآخر ذو وقع أليم على الرفاق لإدراكهم مخاطر أن نلقي بأنفسنا تحت رحمة المجهول المخيف ونتجرد من السلاح تلقائياً وهو وسيلتنا المادية لتطبيق السياسة الصائبة. يعون أن لا تضيع من أيدينا المبادرة ولا نفرط بالاستقلالية التامة، فهي سمتنا الرئيسية عن كل الآخرين إن هذا اليوم كان بمنتهى اللوعة وأمرّ من العلقم لكن ليس في اليد حيلة فهو الاختيار الوحيد الممكن وهنا تجلت مواقف الرفاق التي كانت مشرفة في غالبها وبعضهم يتردد من أن تغادر أشيائه الخاصة جيوبه الداخلية فهي والبندقية بنفس المنزلة عندهم، إذ يصعب حرق الرسائل حتى القديمة منها الممزقة فهي خلاصة تفكيره الذي تطور مع تقدم عمره، كتبها في سني نضاله المشرف الطويل ويسعى لتعزيزها، ورفيق آخر يحتفظ بصورة شهيد للحزب في مقدمة دفتر ذكرياته إلى جانب صورة زوجته البشوشة التي تحثه على الصمود ومع الصورة طفلهما الوحيد الذي أخذ يتكلم بعيداً عن أبيه الثائر الصبور، وربما جانب من الرسالة كانت بخطه المتعثر الضعيف وهذا مبعث الاعتزاز بها وآخر يلقي بها بكل الوثائق بين ألسن النار النهمة وينتحي جانباً يرقب كيف يغزو سناها الصور أولاً بأول وهكذا تنكمش الأوراق تقاوم وكاحة النار وصلافتها كأنها متشفية بما حل بالمناضلين، وصورة تكبس اللهب أولاً ثم تتقلص لتنقلب وتجدها عن احتفال الحزب وعبارة بخط كبير

المجد لشهداء حزبنا الشيوعي العراقي العظيم يقف مشدوهاً بها ودموعاً حارة تعبيراً النقاء بهذه الطريقة العاطفية وآخر يتوسل أن يعطى له المجال في البقاء حيثما يريد الحزب فهو يقولها بصراحة أنه لا يستطيع بأي شكل من الأشكال ترك الوطن ويفضل وهو بكامل الوعي أن يموت فيه على كل الاختيارات الأخرى إن مثل هذه الحالة لم يألفها الرفاق بحياتهم، فهم حساسين أزاء المساس بالمواقف المبدأية وتثيرهم المساومات غير المتكافئة ومشاعرهم نبيلة، أفنوا شبابهم من أجل الحزب ولا زالوا رهن الإشارة. تمرسوا بالنضال منذ بداياته وواكبوا الحزب ملبين نداءاته وتعلموا قيم الشجاعة ولازالوا على أعرق تقاليدهم التي أرساها الحزب فيهم. همهم مصلحة الحزب وتجسيد وحدته خاصة في تجاوز الصعاب وتنفيذ الالتزام مطلق واعتماد العقل السياسي المرن والحنك في التعامل مع العقبات الناشئة في طريقه وأمام إرادة الحزب ينحني الجميع وهذا أبلغ درس في هذا الموقف. وهكذا يلقي الجميع بأسلحتهم وملحقاتها في غضون دقائق ويلجأون لسلاحهم الأمضى أفكارهم التي أخذت أماكنها وأعلنت السرية التامة والسبات الضروري وحتى إشعار آخر.

تستعد المجموعة لدخول القرى التركية ولا جدوى من التأخير لكن المشكلة أن الطرق مجهولة والسيطرات تنتشر ومتشددة على النقاط والرفاق يجلبون الانتباه فهم لا يجيدون اللغة الكردية ومجمل ملامحهم لا تنسبهم على شاكلة العوائل المهاجرة من الإرهاب والأصعب من كل هذا هو الشعور

العام بما تحمله الأيام القادمة من ملاحقة وجرد وتحقيقات تستهدفنا أكثر من غيرنا. وكم يشعر المرء بالضعف بعيداً عن سلاحه والوطن وهو يركض باتجاهات مجهولة وتثير الريبة ولكن بهذا وحده تحدد الاختيار. تتسلل المجموعات وأيديهم متشابكة خلف الظهر كمن يتعرى تماماً أمام الناس، تسير هذه المجموعات كل وفق تقديراته ومجازفات البعض فيها غير مبالين بما تحمله من مخاطر، في الليل في أولى ساعاته تتدفق جموع الرفاق من هنا وهناك لتكون داخل آلاف العوائل.. وبمقدار تردي الظروف في هذه المواقع فكل أخذ يلتزم بالمقربين له فقط وتحولت الحياة إلى التزامات وتضحية ومآثر. وأحياناً يراود البعض شعور بالإحباط والغربة القاسية جداً ويتلمس تجربته الشخصية رغم بساطتها علها تضعه على الطريق القويم والمغامرات أحياناً تشكل في حياة المناضلين محطات نادرة جديرة بالاقتداء والتطوير.

أذكر وأنا ألتمس الطريق أتبين محط الأقدام على سفح أملس لا يستقر على ظهره الماء كما يقال، وفي غفلة لعينة اهتزت قدمي اليسرى وزلت عن موقعها لتأخذ بكامل الجسم إلى مهاوي الانحدار متدحرجاً وسط آلاف الصخور متباينة الأشكال والأحجام ما لا يقل عن المائة متر تقريباً وأموالي جميعها منقولة دون عناء (مشياً أو تدحرجاً) وهي عبارة عن بطانية توشحت بها مقايضة بالسلاح وكنت مع هذه البطانية الفاخرة كتلة واحدة لا تتجزأ إلى جانب حقيبة الظهر قليلة المحتويات.

وجدنا العوائل هناك حياتها مربكة، حاجاتها لا تحصى، لم تألف التجرع بهذه الحياة والظروف وتخشى أيضاً والحق معها مستقبل التعامل ودقائق ويذوب الرفاق بين الجماهير ليكونوا جزءاً لا يتجزأ منها، لإزالة حالة الانكسار التي تشكل حاجزاً أمام سرعة التفاعل والأنصار يتحاشون الأسئلة ولا يحبذون الحديث المسموع ويهجرون الكلمات المثيرة للمشاعر القومية ويروضون ألسنتهم عن كلمات الكفر والغزل ولا يتسامحون مع من يستهين بذلك. ويعتبرون الأسئلة استفزازية وموتورة حتى عندما قد لا تحمل من ذلك شيئاً وأكثر الأسئلة إزعاجاُ: ما هو مصير سلاحكم؟ أحقاً كنتم لا تعرفون بهذه الأمور قبل حدوثها؟ كيف تعاملتم مع السجناء عملاء النظام؟ هل قاومتم التقدم؟ وتبقى الأسئلة أو أغلبها دون أجوبة ناطقة والسكوت وتقاسيم الوجه هي أجوبة بالغة الصمت المتميزة ومع الجماهير رغم انكسارها يشعر المرء بما يمنحه القوة وتستنهضه بوادر التمرد الإنساني الضعيف.

كانت حياة الناس ائتلافية، ونشطت المقايضة فيما بينهم، والراديوات القوية خاصة منتداهم ونواة تجمعاتها عند الغروب، والكثيرين منهم يفسرون الأخبار على هواهم وبغير حقيقتها، وكل يروي النوادر التي تعرض لها، ويأسف على حاجاته التي يمكن بوسعه نقلها ويفضل حتى حرقها كي يرتاح قلبه. ومع تقدم الأيام يتطبع الناس على هذه الحياة، ومنهم من يعيش على الماء والبسكت أياماً طويلة، وبمقدار ما تحمل الأيام من صعاب تحتفظ النفوس

الأبية بالكبرياء ولا تتنازل قيد شعرة عن مواقعها الرفيعة ومبادئها الإنسانية السامية.



# ما هو مصير السلاح في النهاية؟

كانت وجهة الأحزاب إجراء تغييرات في خططها القتالية من خلال تخفيف التشكيلات العسكرية في العدد والعدة واعتماد المجموعات البارتيزانية وتخفيف الأثقال وعزل العناصر المعيقة للحركة وبهدف إرباك العدو، وبعد توقف الحرب مع إيران حيث باتت مؤشرات ذلك ولكن التنفيذ لهذه الوجهة لم يتم فعلياً بل كان على الورق وحسب وضمن هيكلية خطط الطوارئ غير مكتملة المعطيات... هذا من جانب أما السلطة فهي لديها خطة سريعة التنفيذ وواسعة القوى والمعدات بما فيها سلاح الإبادة الجماعية المذهل للجماهير وقدرت وسائل الإعلام العالمية تعداد قوات النظام بأكثر من ١٦٠,٠٠٠ شخص مخصصة لاجتياح كردستان، هذه التطورات كانت في النصف الثاني من آب ١٩٨٨ وقد أخذتها الجماهير على محل الجد وبدأت بالنزوح صوب الحدود مع تركيا في الليل والنهار.. أما الأحزاب فكان شعارها الصمود وعدم التنظير وحاولت إقناع الجماهير بموقف كهذا والتصدي لقوات السلطة ولكن هذا الكلام هو الآخر عسير التنفيذ وتقديرات الجماهير هي الأصوب بفعل تجربتها المريرة مع هذا النظام

الكسيف، وحلبجة في الأذهان، وفعلاً أخذت المفارز القتالية التقـرب مـن نقاط التماس مع منطقة البرواري باله مسرح الأحداث بل وبعضها انشغلت في نقل العوائل وتأمين عبورها الحواجز الحكومية، وحتى الآن كل يحمل مـا لديه من سلاح وليس في خلد أي منهم المصير الذي ينتظر الجميع.

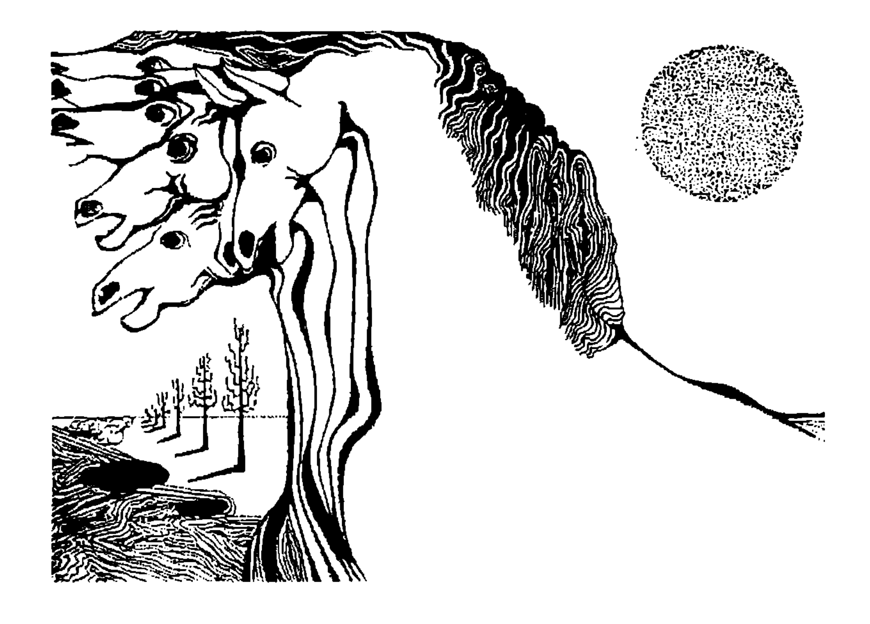
في الأسبوع الأخير من آب ١٩٨٨ لم تعد أية إمكانيـة للمنـاورة ولا التصدي المشار إليه وتكاد المنطقة تخلو تماماً من البشر سـوى مـن يحـاول المجازفة للعبور بأية طريقة وكل المحاور تخضع للواقع الناشئ وبدأت حـالات التوجس والخوف من النتائج المأساوية بسبب تسارع الأحـداث وبـدأت الأخبار تتواتر عن اندفاع الجماهير داخل حدود تركيا وحـالات مصـادمة هناك مع الجندرمة.

هنا لم تعد أمام المقاتلين خيارات أخرى سوى الاقتداء برأي الجماهير في اختراق الحدود التركية وهذا تحدده ساعات قليلة فقط، الكـل في منطقـة كالحة يصعب فيها إخفاء مخزن إطلاقات مثلاً ماذا بوسع المقـاتلين لإخفـاء السلاح في حين الأمزجة متأزمة ومتعكرة وحتى القـادة مـن عسـكريين وسياسيين ووجهاء للجماهير والإدلاء انتابتهم معضلات ميدانية قاسـية في حياتهم ويبحثون عن أي منفذ ممكن، وكل المحاولات لترك مفارز قتالية قليلة باءت بالاستحالة.

إنها ظروف قاهرة وحصلت حالات رفض لـــدخول تركيــا مقرونـــة بمشاعر حزينة لكنها عولجت بمنطق الحكمة والالتزام وهذا الاختيار الوحيـــد الممكن وإن كان كالعلقم.

وللعلم فإن السلاح الثقيل (مدافع، مضاد الطــائرات، الدوشـــكات) وغيرها قد تركت مدفونة في الأراضي العراقية ولكن بطريقة لا تدعو للأمان عليها في جبال متين وكارة.

ليس دفاعاً عن نواقص أو أخطاء نقول للأمانة إن الذي في ذهن القارئ الآن لم يكن حينذاك ممكناً بل هو المستحيل بمعنى الكلمة، وقد توحدت هناك مواقف الجماهير وأحزابها وكل العوائل عندما تكدست في مجمعات بائسة في مناطق تركية وتحولت هذه الظاهرة إلى مادة إعلامية في كل العالم.



# قلبي على وطني

محمـــد الـــفيتـــوري

إلى عبد الخالق محجوب ورفاقه

حين يأخذك الصمت منا

فتبدو بعيداً..

كأنك راية قافلة غرقت

في الرمال

تعشب الكلمات القديمة فينا

وتشهق نار القرابين

فوق رؤوس الجبال

وتدور بنا أنت..

يا وجهنا المختفي خلف ألف سحابه

في زوايا الكهوف التي زخرفتها الكآبه

ويجر السؤال، السؤال

وتبدو الإجابة نفس الإجابه

***

وناديك..

نغرس أصواتنا شجراً صندلياً حواليك

نركض خلف الجنائز..

عارين في غرف الموت..

نأتيك بالأوجه المطمئنة

والأوجه الخائفه

بتمائم أجدادنا..

بتعاويذهم حين يرتطم الدم بالدم..

بالصلوات المجوسية الخاطفه

بطقوس المرارات

بالمطر المتساقط في زمن القحط

بالغاب، والنهر، والعاصفه!

***

قادماً من بعيد على صهوة الفرس

الفارس الحلم ذو الحربة الذهبيه

يا فارس الحزن..

مرغ حوافر خيلك فوق مقابرنا الهمجيه

حرك ثراها..

انتزعها من الموت..

كل سحابة موت تنام على الأرض

تمتصها الأرض..

تخلقها ثورة في حشاها

انتزعها من الموت يا فارس الحزن

.. أخضر..

قوس من النار والعشب..

أخضر..

صوتك..

بيرق وجهك..

قبرك..

- لا تحفروا لي قبراً

سأرقد في كل شبر من الأرض

أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كالشمس فوق حقول بلادي

مثلي أنا ليس يسكن قبراً

لقد وقفوا..

ووقفتَ..

- لماذا يظن الطغاة الصغار

- وتشحب ألوانهم-

إن موت المناضل موت القضيه

أعلم سر احتكام الطغاة إلى البندقيه

لا خائفاً..

إن صوتي مشنقة للطغاة جميعا

ولا نادماً..

إن روحي مثقلة بالغضب

كل طاغية صنم.. دمية من خشب

.. وتبسمت

- كل الطغاة دُمىً

ربما حسب الصنم، الدمية المستبدة

وهو يعلق أوسمة الموت

فوق صدور الرجال

إنه بطلاً ما يزال

- وخطوت على القيد..

- لا تحفروا لي قبرا

سأصعد مشنقتي

وسأغلق نافذة العصر خلفي

وأغسل بالدم رأسي

وأقطع كفي..

وأطبعها نجمة فوق واجهة العصر..

فوق حوائط تاريخه المائله

وسأبذر قمحي للطير السابله

***

قتلوني..

وأنكرني قاتلي

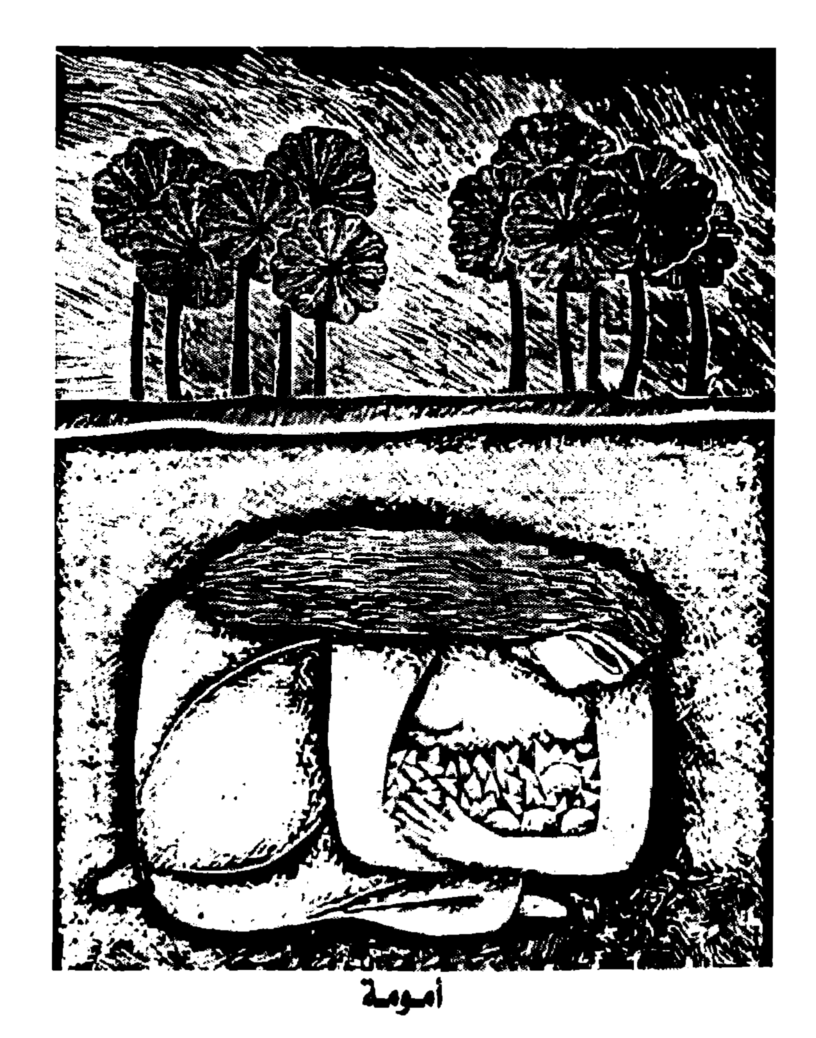
وهو يلتف بردان في كفني

وأنا مَن؟

سوى رجل واقف خارج الزمن

كلما زيفوا بطلاً

قلت: قلبي على وطني!



أمومة

# الخلاصة المريرة

إن ما تقدم من موضوعات هي حصيلة استعراض تفصيلي ومبسط في وصف حالة واحدة حصلت بالمعايشة الفعلية والمشاهدات المباشرة وإن لم تخالفني الموفقية بدقة الوصف، وهناك جوانب كثيرة تجاهلتها، كونها وجه مظلم للأحداث لا تستحق الاهتمام والتوثيق، فالصحفي الذي تردد في البداية الآن تكلل جهده بإنجاز مشروعاً طويلاً وحاول فيه أن لا يكون محايداً أو بعيداً عن تحمل عقبات الإخفاقات في إطارها العام.

قد يلاحظ على تناول الأحداث وجود النبرة السياسية، وضعف الصيغة الأدبية، وهذا أسلوب تقصدته كي تمتزجان الصيغتان فيما بينهما، لوجود الترابط الموضعي أصلاً، وإلا أخفي حقيقة أن كتابتي للمادة أردها مقروءة بوضوح باعتبارها من مقاتل يحمل البندقية ويواكب الأحداث وليس فقط منسوباً على سائر المعارضة من أي الفئات كانت.

فالأحداث رغم مرارها، حاولت تطويعها رغماً عنها، ترتيبها لتكون جوانب مشرقة من سجل شعبنا النضالي، وتجسيداً لدور مقاتليه في تفاعلهم

في بحر الأسى الطامي بحثاً عن الأجواء الملائمة للانطلاق من جديد وبــزخم أقوى واستنباط المهمات الرئيسية الراهنة أمامنا.

لقد عرفنا من حصيلة تاريخ حزبنا ومجمل الحركة الوطنية، تلمسنا ذلك عملياً في آلاف المحطات إن الصعوبات بأشكالها، كل أبواب الــردى لــيس بوسعها إطفاء شعلة نضالية، وإنه بمقدار تصعيد الإرهاب ضد الشعب وقواه الوطنية ينبغي للموقف الثوري حقاً، الموقف الذي فيه الكلمة أمضــى مــن الإطلاقة، تنبض بقوة تخترق الشفاه دون أن ترتجف، تخرج بحرارة وبمعناهــا المبدئي لتبلغ مداها الثوري اللازم خاصة في المنعطفات الحادة، المواقف المؤلمة كثيرة والمعاناة يومية وصفحات كثيرة ليس بوسعها أرشــفة مــا حصــل، فالقصص حية ونوعية في غالبها وأبطالها ينتشرون في أغلب بقاع العالم، وهم يتكيفون مع الجديد الذي لم يكن في أحلامهــم ولم يقــرءوا عنــه في كــل الكتابات القديمة عن الصعاب. إن المعطيات الثابتة للأحداث هــي المراجــع الأساسية في تقييمها الضروري. فلابد مــن دراســة الأحــداث بحرارتها ومؤشراتها، وليس فقط تناولها من جوانب انتقائية، فهــذه طريقــة تزييــف للحقيقة، ومرفوضة أن ما حصل باعتقادي هو ليس مهمة صحفية وإن نقــل الآلاف من الجماهير إلى العمق التركي وما رافق هذه الطريقة من اضطرابات نفسية ومعاناة هي وحدها لا تحتويها المجلدات ناهيك عن رتابة الحياة والقلق اليومي وتفشي الأمراض متعددة الأشكال والمسببات والإشاعات وغيرهــا.

إن الفصل الأول من الأحداث رافقته شدة الانكسـار المعنـوي وتطـاول العواطف بمسعاها اللئيم وتراجع زخم التفاؤل الثوري خطوات إلى الخلف، ولكن الخلاصة بإيجاز أن السبيل للنجاة ليس سوى اختيار طريقـة الثـورة بمعناها.. الثورة كما عرفناها في قصص الدنيا حولها وكما نريـدها ونقـرأ الجديد عنها ولم يتم شيء بدون هذا.. المجد للرفاق وللرفيقات في المقدمة من تمسكوا بوحدة الحزب ووصاياه الخالدة وصانوا أسراره وقيمه الأصيلة، فهذا بحد ذاته وجه مشرق للحزب لتاريخه المشرف الطويل.



# في المنعطفات المرأة طاقة هائلة

من يستنطق الأحداث والضمائر يجدها أصدق محكاً عملياً لمعرفة جهد هذا وذاك من البشر ومقدار التضحية قد لا تصدق ما لم تقرأ آلاف القصص النادرة في كل يوم ولكل موقع حوادث ومغزى، وحين تسأل تجد الجديد الذي لم يوثق لكن الرواة يعكسون حدوده الدنيا فقط، والرجال لا زالوا لم يختبروا نسائهم قبل الآن حتى جاءت معطيات الحياة لترغمهم على الانحناء الاضطراري أمام المرأة وجهدها المجهول فهي في كل الأوقات جسورة باعتبارها وليدة هذا الشعب المكافح، تحمل تراكم معاناته، لا تهاب المواقف الحرجة كأنها بالإنذار في منتصف الليل أو في الظهيرة، فهي أول من تقدم لعبور الشارع، وتهزأ بكل المواقع المعادية، عذراء كانت أم في منتصف العمر غير آبهة بمن يصحبها رجل كان أم رتل من الصغار قد يشكلون عبئاً عليها. وهي عرضة للأمراض أكثر من غيرها، كحالات الولادة التي لم تتوقف تأثراً بالأوضاع إلى جانب أمراض النساء الخاصة التي تجري في ظروف عسيرة

تفتقر لأبسط المستلزمات مما يتسبب بالإحراجات ومخاطر الموت من مضاعفاقا فحالات النزيف والإغماء والتقيؤ والإسقاط تجري في كل الأوقات، مع انعدام الأدوية والراحة حتى لمدة ساعة واحدة، وقد ازدادت الوفيات في الوسط النسائي وبين الأطفال الذين ساءت تغذيهم بسبب تدهور صحة الأم وتعبها وتردي تغذيتها وهي التي لا تفرق بين أولادها، وربما الصغير أقرب إلى قلبها فهو وليد المحنة كما تقول ووراء المتاعب والشقاء المر الذي صاحبها وتسبب في سهدها وعدم قدرها على الوقوف بكامل القامة. إنه عذاب يا إلهي ماذا جنينا كي تكافئنا بكل ذلك؟ حالات تحصل على غفلة وبعيداً عن الطبيب وفقدان الاستقرار ووسط المخاوف والفوضى لكنها لم تذرف دمعاً ولم تلوب بما يجلب انتباه الآخرين، بطولة النساء خاصة الأمهات بطولية وصبرهن رهيب فهي تكتم الآلام وتستنجد بزوجها دون غيره لتبيحه كل أسرارها وهو الأكثر قرباً منها وارتباطاً مصيرياً معها، وهي تلوذ خلف شجرة لا تؤمن لها درجة كافية من الستر، فهي ولادة أمام الأنظار.



التزام بكل شيء أساسي وفي كل الظروف

عرفت بما لا يعطي المجال للشك أن النساء طاقة هائلة في كل شيء حيثما وجد الرجل كانت معه عضيدة تتحمل عبئها بجدارة وقوة كإنسانة صقلتها الحياة بخشونتها الضرورية فهي تظلل على الأبناء ولا تفارقهم لحظة، ومع الآباء لا تنام الليل تبدد الهموم بشجاعة لانقة بها في كل تجمع، وبوجه أي ضابط حقير باع نفسه للفاشية ويتطوع لتطبيق خطتها الإجرامية ضد شعبنا، تحرس على الصغار وتحافظ على الممتلكات، كأن البؤس قدرها

رحيد تقاوم بحدود لا تصدق أمام التعب والجوع والسهر الطويل والعطش قاتل..الخ.

فهي آخر من تنام وأول من تنهض ما أن تسمع صوتاً غريباً وتبلغ عن سوير المعادي وشدة القصف المدفعي، وأحياناً للنساء مبادراتهن في تشكيل مجموعات للحراسة على بقايا ضوء القمر، ولتلبية حاجات طفلها وتحسباً متاعب اليوم القادم ومفاجآته. أما على الأطفال فتأثير الأحداث فوق طاقاتهم بعضهم اندهلوا بها ويعيشون حالة من التوتر ولا يأخذهم النوم وعبثاً يحاولون ذلك حتى في وجود الاستراحة، صغارهم كالبراعم لا يجدون ما يسد الرمق وليس بوسعهم مواجهة الأرض مباشرة وتخيفهم عقاربها الهائجة تضامناً مع الفاشية العفنة. ولكن دود الأرض ليس كله معادي وعار على العقارب اختيارها غير المشرف. لقد اعتاد صغار كردستان مشقة الحياة الاستثنائية واستباح الداء الآلاف منهم ألفوا صوت الطيران وتطربهم انفجارات المدافع وعندما يكتبون شيئاً أو يطرزونه على الأرض تجده طيارة وجبل ومقاتلين. أشياء كثيرة خاطئة فرضتها الظروف عليهم ووسمتهم أحياناً (بالمشاكسة)، ومفاهيمهم مأخوذة من الجهالة، ويعيشون في وسط متخلف وليس للوقت قيمة عندهم فهو يمضي هباءً، ومدارسهم مغلقة وليس لإشعار آخر، ولم يعرفوا التلقيح ضد الأمراض وأعداد الأطفال كبيرة ومناظرهم مؤلمة جداً، فالفلاحين لا يؤمنون بطريقة التحكم بتحديد النسل بل يريدونه

كثيراً لعدة دوافع. فهم أولا يريدون لشعبهم الكثرة لمواجهة شوفينية القوميات الأخرى، كما ويعتقدون أن صنع الأطفال مرتبط بإرادة الله دون غيره. والبعض يريدونهم لتعزيز أرزاقهم وللمرأة قصد آخر بكثرة أطفالها الذكور خاصة لإغراء زوجها وكبح تطلعاته من أن يأتي بزوجة أخرى. إن مثل هذا التفكير يخيف النساء ويدعوهن لمعالجة حالة الجفاء مع الرجل دون أن تتراكم. ويصل الأمر ببعض النساء أن تتعامل مع زوجها كأنه طفلها المدلل، وعندما تتحدث عن الأمهات فلابد أن يتداخل الحديث ليشمل الأطفال كجزء من الكل. وتجد بعض النساء تؤدي دور ليست معنية به. فهي تعمم الأخبار المشوشة عن المدن ومواقف الجماهير فيها. وتستمع لأحاديث السياسة، وتتنبأ وتفند وتعطي أحكاماً مطلقة عن أفق مضيء تراه وشيكاً، وتبشر بفكرة كما تراها! وعندما ينشب نقاش بين اثنين كانت ثالثهم، تتدخل دون سابق إنذار لتراها وسط الحديث الجاد بكامل كيانها لكنها تدلي برأيها دفعة واحدة. وعندما ترقب أنظار الآخرين تشعر بالفضول لاحقاً فتنسحب بأدب وبراءة ولملافاة ما حصل تستدرك بلهجة وجلة اعتذارية قائلة: عذراً أنا لا أعرف عن السياسة شيئاً وربما كلامي بغير مكانه. ولكن كنت طفلة عندما كان والدي من أوائل البيشمركه الأباة واستشهد على هذا السفح من جبل متين وهو يقاتل حينما كنت أحبو على الأرض. ومن حينه عرفت أن أبي فداء لقضية.. تبديداً للشعور الذي ظننته

لازال قائماً في ذهن من تناقشوا على أنها امرأة كسيرة الجـــنح وإن ادعـــت عكس هذا. لذا تراها تتباهى تحمل بندقية زوجها وكامل العتاد وهي تتباهى بها دون استهانة أو افتعال، فها هي قد استحدثت لها مهمة جديـــدة، فقـــد تحولت إلى مقاتلة وداعية في آن واحد، ووجودها في العائلة لولبـــاً وإطـــاراً يوحدها يبث فيها التعاضد والإصرار والإباء.



عائلة أيزيدية تعد وجبات الغذاء أثناء الرحيل



يتدافعون لقضاء الحاجة

# الفقـــــر

نـــيرودا

آه

إنك لا تريدين

الفقر يخيفك

إنك لا تريدين الذهاب إلى السوق

بالحذاء الممزق

والعودة بالفسطان العتيق

***

يا حبيبتي

نحن لا نحب الفقر

كما يريد الأغنياء

سوف نقتلعه كضرس خبيث

ذاك الذي ما يزال حتى الآن

يعض على قلب الإنسان

لكن لا أريدك أن تخافيه

وإذا كان قد وصل إلى دارك بسببي

إذا كان الفقر قد أتلف حذاءك المذهب

فلا يتلف ابتسامتك

التي هي خبز حياتي

وإذا لم يكن بوسعك تسديد الإيجار

فاخرجي للعمل بخطى مزهوة

وفكري يا حبيبتي إنني أتطلع إليك

ونحن معاً أكبر ثروة

لم تجمع فوق الأرض قط

# بدء الصراع مع الحياة الجديدة

في أعقاب وصول الجماهير الأراضي التركية وتطور الأوضاع في كردستان واستحالة الاتصال بها بسبب اكتساحها من قبل القوات الحكومية واستباحتها لكل ممتلكات الناس، مزارعهم وحيواناتهم وأثاثهم هكذا تعمقت متاعب المهجرين واشترطت حياتهم الجديدة تعاملاً ميدانياً صبوراً وتكيفاً مع الظروف الناشئة وتفاعلاً عسيراً وحركة يومية. وتحولت الحياة في تركيا إلى نمط أخرى تماماً لم تعد كما كانت قبل أيام. رحيل متواصل وجوع حد الإعياء وبنادق مشرعة بوجه المجهول ورفض قاطع لفكرة التسليم لأي كان. فالتسليم سلوك مرفوض من أساسه آنذاك أما الآن فرحيل الأيام المتواصلة تمخض عن ولادة طور جديد لكنه جلف.. قلق في كل لحظة وفوضى الحياة بكل تفاصيلها وإهانات وحاجة لكل الأشياء التي تشكل أولويات حياة البشر، أي أن المجهول الذي كان شبحاً في مخيلتنا الآن يعل أكثر في تهديداته وسطوته الغادرة كأنه عاش في رحم الفاشية وانبثق عنها متشبعاً بسجاياها الإرهابية الشاملة.

هكذا تولد الشعور الدائم بنوايا الأتراك لإعداد طبخة طالما حلموا بها سنوات خلت، ها إن المعارضة العراقية المتمرسة بالنضال. هذه الطلائع السياسية ذات التاريخ الطويل والوجهة العملية المناهضة للفاشية والعزم على إسقاطها وقبرها إلى الأبد، هذه المعارضة جاءت بها الضرورة ووطأة الإرهاب الذي لا نظير له. جاءت بهم كل تلك العوامل ليكونوا بين أحكام أسلحة الحلفاء سيئ الصيت.. آن لهم تدشين نسيجهما المشترك المكرس للانتقام من جماهير شعبنا العراقي.



المناطق الحدودية مع تركيا عند قرية آروش

كان التنسيق بين الجانبين يجري على قـدم وسـاق ويتمحـور حـول مصالحهما المشتركة التي تبيح لهما المواقـف الخيانيـة المتأصـلة في طبيعـة نظاميهما.. وساءت ظروف جماهيرنا، أمام أنظار وأسماع العالم فهي في مواقع غير آمنة، وليس من انفراج قريب في الأفق، تحيطهم بنادق الجندرمة صدئ القلوب إلى جانب سلسلة الممنوعـات والأسـلاك الشـائكة والغطرسـة والإجرام.. نعم إن عهد الأتراك لا يبعث على الاطمئنان وتواطئهم في كـل الأحوال، وأراد بهذا الشكل كانت أيام أيلول ١٩٨٨ الأولى، ووضع نفسي متأزم ومشاعر الخيبة تلقي بظلالها الثقيل وغابت عناصر التفاؤل كأنها تسبت خانعة أمام ضربات لا تكف عنها لحظة كي تستعيد أنفاسها وتتململ الإرادة انطلاقاً من مصادرها العميقة لتشتبك مع الجرح النـازف البليـغ وتكـبح جماحه، تردعه عن التمادي أكثر في تبذير سوائل الحياة الثمينة، فجديد الحياة رغم طعمه ينبغي للثوار تجرعه ببأس لا يلين.

كثافة الناس بمستوى قياسي. وحفيف الأشـجار الكثيفـة يسـتقطب الآلاف.. وخذ مثلاً شجرة واحدة لكنها مضـيافة ومتحسـبة للطـوارئ والإحراجات من هذا النوع كانت تظلل في النهار ما يربوا على المائة فهـي ردهتهم الطبيعية في الليل والنهار، أما الأرزاق فهي بالكاد تنتزع بالغرامات وحتى مياه الشرب شحيحة وحارة متعكرة كأمزجة الآلاف، كيف لا وهـي منحازة لهم بدوافع الإنسانية النبيلة في يوم محنتهم ومتضامنة بحـرارة فهـي

معهم في خندق واحد، النوم في غالب الأحوال في العراء ما عدا الأطفال فالآخرين يكتفون بالقليل من الأكل ويسهرون الليل ولا يهجعون إلا قليلاً في ساعاته الأخيرة، كأنهم حراس في كل المواقع يعالجون زخات المطر الحاقدة الاستفزازية من أن تجثم مباشرة على الأجساد العارية، يكتفون من تراص الأطفال وهم يلتفون بقطعة من النايلون بائسة لتقيهم شر الظروف القاسية التي ألمت بهم ومن لديه قطعة مما يوضع على ظهر البغال يمتدح حظه، يقبع بها ولا تستفزه كل الروائح الكريهة، فليس في اليد حيلة هذه أحكام الحياة وقد حرمت عليه الروائح العذبة، والأمهات يروضن أطفالهن بالقول الساخر والواقعي (ريحة بغل ولا ريحة كيمياوي) الكثيرون يتابعون حركة النيران التوسعية من أن تطال ألسنتها المواقع القريبة، فعلى مقربة منها يرقد الأطفال في غيبوبة يتوسدون ما يملكون من حاجات وأرزاق على مقربة، أما الكبار فلا ينامون يتابعون الأخبار وإن وقع الأحداث عليهم أذهلهم والمثل يقول عندما تبرد الجروح تزداد آلامها. المراجعة للمسلسل الطويل من الأحداث تثير الأفكار المخيفة عن مصير الأبناء المفقودين وعائلة تشتت وآخر ترك زوجته وأطفالها ويلتحق بمفرزته القتالية التي حوصرت بموقف صعب ولا زالت أخبارها مقطوعة تماماً. الجيش العراقي والمرتزقة يحتلون القمم المطلة على المواقع الحدودية التركية حيث تنتشر الجماهير العراقية.



يقضون معظم وقتهم في ظل الأشجار عند الحدود أيضاً

ويهددونها في كل حين بخطر المداهمة، والموقف التركي مهزوز ويبعث على الخشية. لكن مواقف الجماهير فيه شيء من خزين القوة المدخرة إلى جانب وجود الأحزاب الذي يجد تعبيره في تفسير الأخبار والتحرك البطيء المشوب بالحذر وللتخفيف من عمق الحزن الذي يسيطر على الناس. هناك مساهمات بدرجة معينة لتحليل الواقع وخيوطه المتداخلة وإيضاح بوادر الأفق القادم واحتمالاته. فرغم حالة الإحباط لا زالت عناصر الحركة قائمة فلدى ممثلي الأحزاب بصيص من الخبرة وإمكانية التحليل وقوة الاستنتاج على ضوء السياسة العامة وكان أضعف العناصر هو إمكانية المعالجة والتغير العملي وهذا الجانب هو الذي تكبل بالجديد الشائك الحرج. وبدأت

لنقاشات في المجالس تحت الأشجار وللكلمة الواحدة ألف أذن صاغية وعين
'رنوا باهتمام أو تبددت روحية الاستئثار وحرفية النشاط السابق والمراهنات
على اكتساح الساحة تكريساً لهيمنة حزب معين واستحالة خضوعه لحالة
الانكسار والهزيمة.

هنا في هذا الواقع المشين ذابت المهاترات كجمرة في ماء انطفأت
جذوتها وتساوت الإمكانيات وتوحدت وجهة الحديث وخفت وتلاشت
مبررات المزايدة بخطيئة سابقة بل نتيجة الانقطاع عن قيادات الأحزاب
المباشرة عموماً والتواجد في أرض بلد آخر يحد من إمكانية فرض السياسة
بالقوة والتهديد ويمكن أن التفاهم لدى قواعد الأحزاب أسهل منه لدى
قياداتها لأسباب كثيرة ومعروفة من تجربة التعامل والتحالف السابقة أخذت
الأحلام تراود الجميع والأماني لكل شيء سوى فكرة التسليم بالإكراه
للعراق فهذا شبح مخيف نصب أمام مخيلة كل طفل وامرأة أكثر من غيرهما،
الحياة رتيبة وتوقعات بالتضامن الفعال أماني تستهوي النفوس مع الإدانة
الواسعة لجرائم الفاشيين الطغاة.

ماذا سيكون مصيرنا؟ هل سنبقى هنا في هذا المكان الخطر؟ وهل
معقول أن تتصرف السلطات التركية بالضد من مصالحها؟ وتتخلى عن
علاقتها مع النظام الدكتاتوري في بغداد الملطخ بدماء شعبنا العراقي؟ الحياة
مزرية ثقيلة بكل النواحي والوضع النفسي أكثر سوءاً واضطراباً، وإذاعات

العالم الغربي وجدتها فرصتها النادرة للتهريج الفارغ والترويجات الخداعة وتتلاعب بعواطف المهاجرين وأبدت اهتماماً مزعوماً بأوضاع الشعب الكردي المظلوم، الحركة بين القرى ممنوعة والتي تحولت من قرى بسيطة إلى نوانات لمدن كبيرة بين ليلة وضحاها وظروف العوز والمشقة تدهور الوضع المعنوي هي السائدة لدى الجماهير بأي القرى كانوا.. وهكذا نشبت حالة جديدة ولدتها الحاجة للحركة بين قرية وأخرى رغم صعوبة تحقيق ذلك. أن نتباحث في مصيرنا وآخر ليس بوسعه شراء حاجات يوم واحد إلى جانب الهوة الواسعة بين الإمكانيات الفعلية مقارنة بالحاجات الأساسية. فهم لا يملكون من المال ما يتناسب وباب الصرف الذي يطفي حاجاتهم.



منطقة شيف ريزان التركية قرب الحدود مع العراق

ومنذ البداية تتباين الحالة بين قرية وأخرى فقد تميزت قرية كرميس مثلاً عن قرية شيفريزان حيث الأولى حافلة بالأشجار الوارفة والمياه المتدفقة

والحياة أخذت تجري على نمط عفوي وترتقي بعد لمستوى البرمجة والتنسيق خاصة وهذه الجماهير جاءت بخلفية منقولة معها غير تخلفها السحيق وانتماءاتها العشائرية الضيقة وصراعاتها الطبقية غير القائمة بجلاء، كما أن أسلوب الإدارة للشؤون الحياتية هو الآخر لم يتبلور بعد.. هذا إلى جانب الخوف والقلق الذي ينام مع كل واحد، هناك من ينام وفي ذهنه فكرة كي يكون الصباح القادم فرصته الوحيدة لاختراق الحراسة المشددة على مداخل القرى وبأية وسيلة، ولكن ما أن يحل الصباح نفسه حتى تصطدم كل المشاريع المثارة في الليل بعثرات النهار الجادة.. يتبدد العزم وتأتي العراقيل بقائمة طويلة وتجابهك كلمات الممنوع والتهديد والزجر والمدافعات ومكالمات تليفونية لا تعرف القصد منها، وغيرها من التوسل والالتماس الذليل والحرارة هي الأخرى تشهر سيفها، ومن يشاكسها ترميه بسهم من لهيبها المهلك، ملحقة بالكثيرين ضربة الشمس كمرض جسدي ومن يصمد أكثر في الزحام يجد نفسخ يسبح في موجة من التراب الخانق جاءت بها سيارة قادمة اقتربت فصعدت من سرعتها تخلصاً ممن ينتظرون على جانبي الطريق الترابي الرث هكذا، ويقترب الليل يدنو ليؤذن لهؤلاء بالانصراف الإجباري ومعهم المزيد من الحمى والخيبة والاستياء، ولكن ليس من حل آخر، إنه تواجد مفروض، وحتى كمن يعيش في قفص سميك الجدران.

منذ الصباح ينتشر المئات على امتداد الساقية النحيفـــة، ذات الميـــاه الشحيحة المشبعة بالأوراق، ونتاج غسل الملابس والأواني والأجساد في آن واحد وهنا تولدت المخاطر الحقيقية على حياة المهجرين.

ولكن هذه هي الحياة، كل شيء فيها قد آل إلى الانحطاط، بما في ذلك النظافة ومستلزماها، أخبار البيشمركه من لم يعبروا قد انقطعت وإذاعـــات العالم تلقي الضوء على الأحداث يومياً ولكن تمسها فقط من زوايـــا محـــددة خاصة في نشرات المساء الإخبارية، وتجري حوارات مع المسؤولين الأتـــراك عن عدالة القضية الكردية ومسلسل نظام بغداد الإجرامي. في النهار يدور الحديث كل كما يروق له وهناك من يعتقد أن ما حصل من نتائج يزكي رأيه القديم الذي دحض في حينه حول شعار إيقاف الحرب فوراً، وعدم إمكانيـــة النظام من اكتساح كردستان بغضون أيام وعدم فعالية الجبهة الكردســـتانية لمهمة كهذه، وآخر موتور طول عمره والآن يكشر عن أنيابه النتنة متناولاً كل الأحزاب ومواقفها بالطعن ومتطاولاً على ماضيها القريب وكأنـــه قـــد تحرر من قبضتها وخرج من دائرة نفوذها ولم يعد معني بالولاء لهـــا، وهـــذه حالة وإن لم تكن واسعة لكنها استفزازية ومزعجة، الأحاديـــث السياســـية المباشرة يهتاها الناس لما قد تجلبه من نتائج من يخوض المساجلات الحادة لعله بهذا يسهم في تبرئة دمم الأحزاب ذات السياسة والمواقف العلمية والتاريخ المشهود والتي لم تخف سياستها عن كل المحافـــل العامـــة، ولم تجلـــب كـــل

الأحداث بنقيض لهذه التحليلات السياسية الصائبة في إطارها العام النظري المرسوم، على العكس تماماً مما يزعمون.. إن كل ما حصل هو تزكية لهذه المنطلقات التي بلورت وصاغت بشكل لا ينفصم عن المهمات النضالية المركزية الأخرى.

ولكن من الجوانب الأخرى فإن التعبئة الضرورية بهذه السياسة، وتحشد كل الطاقات بالاتجاه المعاكس لإرادة النظام ومخططاته العملية اللاحقة، ولتقويض مواقعه..الخ، هي النقاط التي عانت من الإهمال والقصور والضعف حد الترهل، حيث نشطت في هذه الأجواء الإشاعات، وتعمقت المشاكل اليومية، وأخذ الحديث اتجاهاً يرتبط بوجهة المستقبل القريب، وتتباين الآراء والتكهنات وتصريحات الأتراك حذرة فيما تعطي لوكالات الأنباء، فهي تتقصد الغموض عندما تدلي بشيء وتخشى الإيغال أكثر في إيواء الجماهير العراقية، وتخاف المواقف وردود الفعل، ولا تجرأ على قول الحقيقية في إدانة النظام العراقي صراحةً، ويتجنبون مثلاً الإعلان عن استخدام نظام بغداد السلاح الكيمياوي كأسلوب لإبادة شعب بأسره بهدف التخلص منه، لكنهم من جانب يطمئنون هنا وهناك في أنهم يسعون لمعالجة النواقص وتوفير الأرزاق وتنظيم الحركة بين المجمعات وفق ضوابط ضرورية، وتسعى سلطات تركيا على صيانة مشاعر الجماهير، وضمان

الجانب الأمني لها، وتتحاشى المواجهة المباشرة مع العوائل، وفوضى حركتهم في كل الأوقات.

بدأت عمليات تسجيل الأسماء بقوائم طويلة إلى جانب توزيع بعض الأرزاق الأساسية كالطحين والدهن والحلاوة، وبعض العوائل تتردد في الإقبال عليها بدوافع الخجل، وكأنهم يستجدون وهم كذلك تقريباً وهم في زمان القحط، وحين تحققت بعض الاتصالات بين المجمعات، تبين أن أحوالها متقاربة، وإن وجدت فوارق فهي طفيفة، في وجود الأشجار التي يستظلون بها ووفرة المياه.. ومجمع شيفريزان هو الأسوأ حيث المياه حارة وقليلة، والجماهير تحت رحمة أشعة الشمس اللاذعة مباشرة.

عصر يوم ١٩٨٨/٩/٥، وفي العودة إلى مجمع آروش، في الطريق كانت نقطة التفتيش لا يفلت من يقظتها أحد، وكلمتهم الدارجة الممنوع (يصاغ)، كأنها ولدت معهم، أو أنها مستخلصة من وثيقة سماوية لا ينبغي لها التحريف، ولكن ليس من سبيل سوى اختراق الطريق مجازفة، وهو محفوف بالمخاطر، أوقفنا أحدهم خشن الملامح كأنه عريق بعدائه لنا، توسلنا به لكنه يقاطعنا قبل الانتهاء من كلامنا ليدلي بكلمته المعهودة (اليصاغ العفنة)، مؤشراً بيده من بعيد طالباً العودة إلى حيث أتينا، وكانت الرفيقة التي برفقتنا قد عانت من الإحراج والمخاوف المضاعفة وترددت كثيراً في إتلاف وثائقها الخاصة التي تخفيها بعناية وذكاء حتى علينا، على طرف منهم توقفنا قليلاً

مشدوهين.. حناجرنا جفت من سوائلها، ما نفعل ونحن لم نعتاد توسلاً لهذه الدرجة والركوع لإرادة خسيس كهذا الجلف. أبدينا إصراراً على أن عائلتنا في مجمع آخر ونروم الالتحاق بها، واعتمدنا مضطرين أسلوب (المسكنة) وفجأة لانت عنجهيته المتحجرة، اقتنع وأومأ بيده إيذاناً بالعبور بسرعة.

انخرطنا بسرعة مذهلة عبر مسلك مخفي أحدثته السيول الماضية تحركنا ولحظات حتى توارينا عن أنظارهم وكأننا تحررنا من قبضة الفاشية في بلادنا.. وعلى السفح الشاهق، الحوض الدائري الكبير الذي يواجه كل المجمعات الثلاثة، هناك جلسنا قليلاً واستعرضنا محطات حالنا والظروف التي جاءت بنا إلى هؤلاء القساة، وخلصنا إلى القول: هكذا هي نوائب الحياة ما أن تجور لا ترجم.. واصلنا المسير وكأن أشلائنا قد تمزقت ومشاعرنا فاضت بالحزن والندم.. نمشي بتوجس من السيطرة الثانية على مدخل آروش من جانبه الشمالي الغربي حيث نقصد، حينذاك الشمس انحدرت خلف الجبال من جراء رحيلها، هكذا تركتنا دون حياء ولا استئذان مسبق، فمقتناها حينذاك كأنها عاشت مع (اليصاغ) في بودقة واحدة طول عمرها.

الطريق لا يخلو من المارة ممن يندبون حضهم العاثر من أمثالنا، وأغلبهم يبحثون عن ضالتهم مثلنا، سألناهم عن أخبار الطريق قالوا: سالكة وإن عارضتكم السيطرة تجاهلوها وخذوا طريقاً آخر إلى اليسار منهم وحثونا على مضاعفة السرعة واغتنام الوقت ومن جديد تمحورنا خلف صخرة

تحيطها بقايا العشب القديم وسبرنا الطريق باتجاه الموقع المحدد فعرفناه خالياً فعلاً فانطلقنا لنكون في ضجة مجمع آروش من جديد.

في اليوم الثاني كانت المحاولات باتجاه آخر أكثر تعقيداً إلى مخيم آشوت الذي يبعد قرابة أربعة ساعات كاملة مشياً على الأقدام ناهيك عن جملة من التعقيدات على امتداده، تخطينا النقطة الأولى التي كانت طيلة الأيام السابقة عبارة عن سيطرة، فوجدناها هذا اليوم قد تحررت بجهدها المثابر من واقع الأحداث العسكرية أخيراً أبدى هذا الموقع تعاطفاً معنا وامتعاضاً وكرهاً للنزعة العسكرية التي لا تعرف التفاهم، تبادلنا معها الوصايا وحثينا الخطى قاصدين آشوت نفسها حيث الآلاف هناك، نسير متطلعين لسيارة قد تأتي صدفة لنستفيد منها لكن المتاعب لنا كانت كالضرورة، هذا هو يوم ١٩٨٨/٩/٦، نسلك طريقاً ترابياً يلتوي أحياناً متأثراً بالتواءات الوادي الموازي له ومن بعيد رأينا الحركة واضحة على امتداد الشارع عند مد الشوف جيشاً تركياً وجماهيراً عراقية بكلا الاتجاهين، تعثرت مسيرتنا عند نقطة العبور وقبل وصولنا لها أخبرتنا مجموعة كانت عائدة بعد أن ردت على أعقابها بعدم جدوى إضاعة الوقت هباءً، فالسيطرة متشددة ولا تسمح لأي كان بالعبور، تبادلنا المعلومات وتقاسمنا الهموم فوجدناها بمستوى واحد تقريباً وإن تباينت أشكالها ومواقع حصولها، قد كانوا صادقين فيما قالوا عن المتاعب لكننا لازلنا نعمل على قاعدة التشبث حتى بمن لا يستحق التشبث

واصلنا الحركة وقلوبنا لا تتمالك نفسها، ارتبكت ضرباها وأخذت تطرح مشاريع عديدة منها مثلاً العودة إلى حيث أتينا وتحاشي المخاطر وعواقبها لكننا تظاهرنا برباطة الجأش وأرغمنا قلوبنا على التماسك وألزمناها أن تحتفظ برأيها المتخاذل فمحذور عليها التبشير به وهي غير مسؤولة عن النتائج. من بعيد رأيناهم يلوحون بأيديهم إيذاناً بالرجوع ويثرثرون بكلام حاد لا نفهمه لكنه واضح من الإشارة أن لا مجال للعبور مطلقاً، وقفنا برهة لمراجعة الموقف ومعالجة الجديد من خلال أساليبنا المبتكرة بدأنا من جديد على نفس الوتر السابق نبذل جهداً محاولة لنيل العطف والاقناع لكن كل الجولات الأولى أخفقت وبعضنا ادعى المرض الحاد وعدم إمكانية العودة وقطع الطريق الطويل، لم نفهم من كلامهم حاد النبرة سوى أن قضية الحركة بين القرى تربك عملية الإحصاء للجماهير وتعيق ترتيب توزيعها، ولهذا الحركة ممنوعة من جهات عليا، وكان مسؤولهم القصير الممتلئ حليق الشاربين وسيم المعالم يدلي بهذه الأمور ويعطي الموقف الجازم كما يقول، وهو متشدد ثم غادر النقطة فجأة إلى موقع قريب على مرتفع منه وجاء مكانه شخص آخر برتبة أدنى ذو وجه يميل للبياض الشاحب قليلاً وأومأ برأسه وبحركة من عينه اليمنى بالصعود لسيارة عابرة لازالت قيد التفتيش لتواصل سيرها إلى آشوت حيث ننوي الذهاب، كم كان متحمساً لقضية عبورنا وحينها أيقنا إلى أي درجة قد أجدنا التمثيل وإلا لماذا؟ وأذكر أنه ما

دمنا نراه والسيارة تبتعد عنه يلوح بيده مودعاً، وصلنا آشوت فوجـدناها متخمة بالبشر وحالهم أكثر بؤساً مما تعيشه آروش هناك كانـت الحيـاة لا تطاق والوادي ذو البداية المعقوفة قليلاً راسخاً وعميقاً في كبد الجبل يريـد معانقة الشريط الثلجي على السفح الشاخص كالعلم الأبيض حيث لم يـزل الثلج في الثلث الأول من أيلول ومثل هذا المنظر هو من مفارقات الطبيعـة، نعم الثلج تراه في عز شبابه يغذي التجاويف القاطنة على مقربة منه ومـن بعيد تخزره أعين تجدع ناراً بالغضب وقلوب تهفو ذاويـةً أظمأهـا غـدر الشمس التي شملتهم بحقدها على تجاوز الثلج في غير وقته أغلب الظن أنهـا رأت في تواجد الثلوج بهذه الصلافة تحدياً لها واستفزازاً واستهانةً بقـدراتها الحرارية، لم نعرف لهذا الوادي نهاية مادمنا هناك، عرفناه يتوسط الآلاف من العوائل، يخترقهم باقتدار ليرميهم على ضفتيه بما لا يقل عن الكيلومتر وهـو مصدرهم الوحيد لمياه الشرب وطهي الطعام وكل المسـتلزمات الأخـرى كانت الروائح من كل صوب وفي بعض المواقع بقوة تطرح الطيـور كمـا يقال في الليل جل العوائل لا يمتلكون أكثر من بطانية واحدة يضعونها علـى الأرض مبعدين شرورها، أما التغذية فهي هزيلة بدرجة لا تكفـي للطفـل وأبرز ما فيها الخبز والحلاوة التركية التي ذوبتها الشمس وغيرت من قوامها وملامحها، أما الشاي العراقي المعهود انطفأت شمعته فجأة وانـدحر منكفيـاً وحل بديلاً عنه تسلط الشاي التركي ليضيف للمياه مرارة أخرى.

في هذه الظروف كان رفاقنا من أكثر الناس متاعباً وأغلبهم ينامون على الأرض مباشرة ويواجهون السماء وجهاً لوجه، يحسبون ما يبعث الضوء فيها، ومنظرهم هذا يخيف الجيران بعض الشيء ويستدر عطفهم في عين الوقت فهؤلاء بالأمس كانوا مقاتلين مدججين بالأسلحة والأفكار والإصرار والآن تراهم يصطفون كجذع النخيل الجاثم على الأرض وقد فقدت جبروت ارتباطها بالأرض ومصدر الدفء فيها، يلتمسون بعض العوائل ليكونوا على ملاكها في التسجيل وحالة كهذه في مثل هذه الظروف لا تقابل بالارتياح والرضى إلا ما ندر للأسف، وحتى لدى أقرب العوائل إذ كانت ترتسم على الوجوه علامات الجفاء والامتعاض، في هذه الفترة ساءت المعنويات وارتفعت وتيرة اليأس وانتشرت الإشاعات المخيفة أخذ البعض يطعن بالأحزاب والجماهير تتآكل من الداخل وتضعف قوتها وانتشرت الأمراض المختلفة.

في ١٢ أيلول ١٩٨٨ صباحاً نقلوا مجمع آروش وكان حالهم المأساوي في النقل إنذاراً لنا وكانت المشاعر حينذاك باتجاهين، فرح لأن الآلاف ابتعدوا عن المخاطر والمتاعب وخوف أن تفرض التفرقة والتشتت على هذه الجماهير لاحقاً لغايات دنيئة غدارة ومحتملة.



# قافلة ذكرتنا بقطار الموت

كانت أفكار الجماهير منشدة إلى أجل يرحلون به فقد سأموا الحياة القلقة ولا يعرفون أي الموقع هو الأفضل لهم. وأسمائها لا يعرفون منها سوى أن منطقة سلوبيا التي يفضلوها مقارنة بمنطقة كفري البعيدة المهددة بالبرد المبكر. يريدون بكل الأحوال للمواقع أن لا تكون قاصية عن الحدود السورية وهذا هو تفكير رفاقنا خاصة والكثير من العوائل الأخرى والمزاحمة بين مجمع وآخر في اختيار المكان القادم كأنها بمشيئة القدر. عصر يوم ١٣/٩/١٩٨٨ جرى الإعلان والتبليغات بالاستعداد للرحيل منذ فجر اليوم القادم، كانت ليلة صافية وفيها لسعة برد ولكن رغم هذا فالناس انتعشوا قليلاً، استبشروا خيراً بمغادرة هذا المكان وتوترت أعصابهم وتقلصت ساعات نومهم وأغلبهم ليس لديهم من المستلزمات ما يتطلب التهيئة، لأنهم يفتقرون لها أصلاً وهمهم الوحيد إلى أي المواقع سيرحلون؟ لم يكن هناك من يعرف ذلك وحتى الأتراك يكتمون مثل هذه الأسرار فسائقي الشاحنات نتوسل بهم الإباحة بشيء لكنهم كعمال يتقيدون بالانضباط العام في هذه الليلة أخذت النيران تتسع وتتصاعد ألسنتها مبعدة دائرة مكتظة من

حولها فهم يقضون دقائق فقط قد أجروا جـــرداً لمتلكـــاهم فوجـــدوها لا تتطلب إلا واحداً منهم لنقلها إلى الشارع العام حيث تنتظرهم الشـــاحنات. منذ الفجر انتقض الجميع من نومهم فوجدوا نيرانهم الشرهة قـــد تطاولـــت وأكلت معظم الجدران التي كانت تظلهم في النهار وتصد عنهم الرياح وبرد الليل المفاجئ، أصبحت حياهم مقننة مع الوقت ولا يضعون باباً للادخار فلم ينفعهم ما ادخروه سنوات، ووجبة الفطور قد سطت على مـــا تبقـــى مـــن ذخيرة اللحم التي غزها رائحة التلف وبعضهم اكتفى بلقمة واحدة وقـــدح من الشاي.


الصمت هو السائد وكل يحاور ذاته

على الشارع العام كان طابوراً من الشاحنات التركية الطويلة متباينـــة الأشكال والأحجام، والحركة لا تجري الا جماعياً وهناك من هو بعيـــد عـــن نقطة الحركة وعليه عبور الوادي الذي يشكل حاجزاً مائياً وهكـــذا فقـــد

تسابق البعض وألقوا بحاجاقم على الشارع ظناً منهم أن الأولوية لمن في الشارع وبهذا فقد امتدت الجماهير لتشكيل ما يشابه التظاهرة لكنها غير منتظمة بعضهم يبحثون عن الشاحنة الأكثر جودة ويتطلعون باهتمام إلى السائق الأكثر وقاراً ويخيفهم الشباب وكثيري الكلام وبعضهم منهمك بكتابة اسمه على واجهة الأكياس التي ابتلعت كل حاجاته ولم تقتنع بها تجدهم جميعاً يتراصفون فوقها كأنها تضم شيئاً ثميناً... جرى تشخيص الشاحنات بأسماء القرى وباءت الجهود العشوائية بالفشل فعرف كل واسطته المعينة للنقل وبدأت المقارنات بين هذه وتلك من الشاحنات واختياراقم عديدة وبعض الألوان تجذبهم أكثر من غيرها والارتفاع كل ما كان مناسب أفضل وآخرين لهم اهتمامات أخرى وهم يركزون على الموقع الأكثر بعداً عن تراب الخلف الخانق. ينبغي التخلص منه قدر الإمكان ومعلوم أن سطح الشاحنة سوف ينشغل بكل بقاع جسمه وأذكر على سبيل المثال أن سيارتنا ذات اللون السمائي الجذاب كان نصيبها من البشر مائة وثلاثة من الركاب بمختلف الأعمار والقابليات طبعاً والأطفال لم يألفوا هذه المعاناة في حياقم وجلهم لم يعرفوا السيارة قبل الآن، عرفوها بهذه الطريقة المأساوية ومن جديد سادت الفوضى.


على ظهر الشاحنات باتجاه تركيا

وبكاء النساء المؤثر، وعويل الأطفال والمشاحنات على صغائر الأمـور وقد تبسمر كل في مكانه المحدد فقط بقاعدته الخلفيـة ووجـوهم متباينـة الاتجاهات وبين النساء بشكل خاص من اصفر وجهها قبل المسيرة فقد تجلت نزاكتها هنا فقط في رفضها على أساس العمر وتبدأ أحاديث النساء المعهودة وغير المبوبة والنقاشات العميقة.

فواحدة تعطي نكتة على صاحبتها على أنها يوم زفافها لم تجد مثل هــذه السفرة الخريفية الميمونة وأخرى تشير للعربات التي تسبقهم وهي أكثر سعة وحداثة وثالثة تزحزحت قليلاً فانفضح أمرها في إخفاء الزاد الجــاهز بــين ملابسها فسكتت كالجمرة في الماء وغــيرت وجهــة حــديثها. لا زالــت الشاحنات لم تتحرك بل تماطل ولا تعير اهتماماً للانفعالات الــتي تتصــاعد وتصاعد حرارة الشمس. طال الانتظار لكــن الحركــة ممركــزة بالقيــادة العسكرية التي ترافق القافلة وتتقدمها بضعة أمتار وهناك من حــدد مكانــاً مناسباً للطوارئ وهي كثيرة وبعضهم يخشى حالات التقيؤ الواردة وأخــرى تريد لطفلها حيزاً للحركة وللنوم، بدأت حرارة الجدران تكتوي بهــا كــل الأجزاء المكشوفة لتسري من خلالها لباقي أنحاء الجسم والأطفال أكثر مــن يتأثر في الشدائد لم يعتادوا مثل هذه الحياة ومنغصاتها ولهذا فسرعان ما تزول ملامحهم الاعتيادية ويتعكر كيفهم وتنال من وجوههم لفحة الشمس الحارقة وأغلبهم يرتدون الملابس القديمة غير المناسبة لهذا الأجواء لا يطاق خاصــة عندما تزداد حماوة الظهر وعرق الطريق الذي يستقطب أعمدة الغبار الجامحة والتي تشكل طبقة دخيلة على الجسم تضاف للطبقات المتراكمة كل يوم. في العاشرة صباحاً تقريباً انطلقت المسيرة فانتعش البعض في البداية لأن الحيــاة في هذا الموقع كارثة حقيقية يصعب على المرء أن يتصورها.

قبيل أن تغادر الشاحنات أماكنها استولى الفلاحون في المنطقة على بعض الأشياء المتروكة من أرزاق وغيرها وحتى أغصان الأشجار التي كانت تظللنا في الأيام الماضية انتهت مهمتنا المؤقتة مع جماهير المهاجرين ولم تصحبهم في التوديع بل عادت من هناك إلى أصحابها الأوائل. والجيش التركي الذي تواجد حيث تواجدنا وشاركنا بعض أحزاننا أنهى هو الآخر مهمته أيضاً وانصرف للحياة الطبيعية. كانت وجهة الحركة في البداية باتجاه الشرق والشمس حشدت كل قواها وتضامنت والتراب اللعين في خلق العذاب، أما تآكلات الأرض وتخرشاتها فقد أربكت العجلات وأنهكت الكثيرين في الساعة الأولى.

ها قد واصلنا البعد عن العراق مرغمين من جراء الحاكمين فيه، كان بحوزة هذا الرتل من الشاحنات، هذا الظعن الذي يدمي القلوب بين هؤلاء الناس قوى وأحزاب وآمال وأنفس لا تستسيغ الذل ولا تتجرع اليأس بسهولة وهناك الكثيرين رغم المحاذير يحافظون على قيافتهم الأنصارية باستثناء السلاح وملحقاته أما الكبار الطاعنون في السن فهم يضفون على المسيرة معنى آخر فهم ذوي الخبرة الحياتية الطويلة ويبعثون في نفوس الصغار الطمأنينة ويبعدون الوحشة عنهم. في فترات معينة تسود حالة من الهدوء التام. وجوم جماعي يسرح كل مع ما في خاطره... في أي الأماكن سنكون؟ وكيف يمكننا التعايش بعيداً عن الوطن؟ ألا نذكر الأحداث القريبة؟ أليسوا

هؤلاء هم الذين حشدوا قواهم في هجومهم الغادر في ٢٥/أيار/ ١٩٨٣. على مقرات القوى الوطنية هذه التي يحملونها الآن إلى حيث يريدون؟ كم اسهموا في مخططات الفاشية في بلادنا آنذاك؟ لقد أثبتت الحياة جفائها لنا ولكن على كل حال لسنا وحدنا فقضيتنا ترتبط موضوعياً بمصير شعبنا. انحرف الطريق قليلاً نحو الشمال واستقام وتواصلت الحركة كالسباق كل يفاخر بسيارته كأنه في ميدان الفروسية وإيماءات من هنا وهناك بضرورة ترويض السائق الطائش فبعهدته أرواح بشر وليس قطعياً من القطط، وعلى طرف من نهر غزير المياه توقفت الشاحنات فترة استراحة قصيرة وهناك من لم يستفيد منها فنزوله بضعة دقائق ليس بدون متاعب أولاً والمكان الذي يمكنهم قضاء الحاجة فيه بعيداً نسبياً وهذا المكان الذي يحتله وتكيف معه بما يشبه القالب وتفاهم مع القريبين منه قد يفلت من يده، ولعل الخشية الحقيقية نابعة أيضاً من تهديدات الأتراك التي قد تصبح حقيقة بترك من يتأخر.

تحاملت الشمس أكثر وربما أثار حفيظتها روحية التحدي والصبر لدى هؤلاء الناس الذين أحبطوا كل تهديداتها في الانتقام في أن تجعل من هذه المسيرة الشاقة تكراراً لمأساة (قطار الموت) تلك الحادثة التاريخية العالقة بذاكرة شعبنا العراقي عام ١٩٦٣ الأسود. كانت الوجوه بلون الأرض وتشوهت المعالم الخارجية كل يتكئ على ركبته ويبسط الكفين أمام وجهه

صاداً كل ما يفسد الأجواء والتذمر الأكثر بـــين ذوي الأمـــراض القديمـــة والضعف المزمن وحالات الدوار والتقيؤ. وبين فترة وأخرى يزداد الضـــجر والعصبية فينادون إلى السائق بتخفيض السرعة قليلاً مشفوعة بشـــتيمة إلى جده السابع ولكن كيف يتوقف دون الآخرين؟ وهل هناك من هو أفضـــل حالاً؟

في هذه الأثناء تضاعف المعاناة والذي كان يـــدعي الخـــبرة بتفاصـــيل الأرض قبل الحركة أنسحب الآن أمام استفسارات القريبين منه متى نصـــل الماء؟ وهل هناك قرية قريبة... ما اسم هذه السلسة الجبلية الكالحة؟ ... الخ. لم يعد اهتماماً لهذه الأسئلة الوجيهة. بل ازداد نزقة واجتاحته موجـــة غضـــب فصرخ بصوت أسمعه لأكثر من شاحنة كأنه يخطب في جمـــوع ثـــائرة... إن مواجهة الكيمياوي والموت على أرض العراق أفضل مـــن هـــذا التعـــذيب واعلموا إن من وراء هذا التلويع يد قذرة وقصد يـــرتبط بـــإدارة الفاشـــية نفسها، أنهى حديثه العصبي الارتجالي المقتضب هـــذا والـــذي أراده هتافـــاً وشهادة من أهلها فانهملت دموعه وأجهش بالبكاء وبحركة حزن وأسى هبط لقد أفلحت في حماسك وحققت هدفك القريب.

عصراً اعتدل الهواء قليلاً ورويداً رويداً أصبح الجو منعشاً لطيفاً حـــين اندحرت الشمس وهي تجر أذيال الخيبة، من جديد انبرت الأمزجة الـــتي لا زالت تختزن بقايا الابتسامة فهذا وقتها يوم الحداد الحقيقي و قبيل الغـــروب

تسلقت الشاحنات الطويلة المثقلة بالحمولة البشرية طريقاً يلتوي كـالأفعى المستلقية باسترخاء، بدأت تصعد عشرة انحناءات طويلة وعسيرة ومتواصلة وتعالى الخوف وصيحات المناشدة المؤثرة و انخطف لون الصغار تلك الغصون التي لم يأخذ بها العمر بعد إلى حيث القساوة بهذا الحد. هنـا كانـت قمـة الخوف والتوتر والقلق الحقيقي حتى في حالة العطل البسيط في أي المواقع من الشاحنات العزوم المصابة بالحمى الحادة. وكلما تقدمت السيارة للأمام أكثر تعالت الشهادة على أن السواق الأتراك هم الأمهر في الدنيا قاطبة، واحـداً لا ينظر إلى الخلف، كل يجمد في مكانه استجابة للقدر وانتظـاراً للنتيجـة، فحياتنا في هذه الجولة ليست اعتيادية بل صراع مع الموت واختباراً لقـدرة الأعصاب على التحمل وطعناً ميدانياً بكل ما يبعث الدفء وتقارب تفرضه الحاجة بعيداً عن لمسات الجدران الحديدية المتذبذبة تبعاً لمصـالحها الأنانيـة، فهي من الحرارة فوق الاعتيادية التعذيبية فجأة تنتقل إلى طور آخر يتبـاين كلياً مع الأول كأنها تعرضت إلى نوبة قشعريرة لكل برغي فيها ربما هي حالة ملاريا الشاحنات أولاً كمدخل تمهيدي لملاريا الإنسان المهجر؟ إذن في الحياة التناقض حالة واردة والليل قد يتناقض مع النهار ناهيك عن شمسه الحارقـة ولكن أن يكون أسوأ أفعالاً منه؟ ما الفائدة يا ترى من هذا التنـاقض علـى حساب الأبرياء ممن يقال عنهم أثمن رأسمال؟ البرد بدرجة لا تصدق وكـل يستعين بما يملك وأم تجمع أطفالها الستة وهي سابعهم تحت بطانيـة بالكـاد

تكسي أنصافهم المتعانقة وناموا كأهم فارقوا الحياة. وليس من أحد يستطيع الصمود إلى أجل غير مسمى، من بعيد يرف القلب لإشراقة دالة، كهرباء متناثرة الأعمدة يستدل منها على موعد كما يبدوا مع مرور القوافل وبسرعة تجتازها لتخترق الظلام الدامس من جديد وتبقى الأنظار منشدة للأيدي وهي تلوح تارة وتتشابك بقوة إشارة للاعتصام والتضامن تارة أخرى. ليتنا وقفنا قليلاً في هذه القرية الهادئة التي عبرناها، نقية الأجواء نقاء ماء العين في كردستان. ولكن كيف لنا نتوقف ونحن في حالة لا نحسد عليها؟ استعد الليل للرحيل مكتفياً بما حققه من متاعب تاركاً أجساد شبه مشلولة لتأخذ الشمس المتحاملة دورها الغادر الغني عن التعريف لكل الأجسام حرارة إضافية كاحتياط لابد منه ورغم هذا تواصلت المسيرة كانت الأرض منبسطة والطريق أقل تراباً والاتجاه صوب الغرب تماماً وقرى كثيرة بل كل القرى تتأهب لاستقبال ضعن المهجرين العراقيين، احتفاءً بهم وتعاضداً معهم، حشود جماهيرية غفيرة على امتداد الطريق وهتافات تضامنية نفهم منها(الموت للمجرم صدام، عاشت البيشمركه، وتماسك اليدين بقوة رمزاً للوحدة والتكاتف...الخ إضافة إلى أشكال المأكولات والسكاير والمساعدات العينية الأخرى، يلقون بها بقوة دون تسديد مسبق لتكون بمتناول الراكبين أحياناً على رؤوسهم أو على سفح منها ولا أنسى صورة المرأة (كبيرة السن ذات الحزام المخملي) التي كانت تركض وتحتضن صندوقاً من البسكت

وعيوها على السيارة التي لم تستطع اللحاق بها، كانت تصـيح كالطائشـة بصوت لا أفهم معناه لكنها وبسبب إنهاكها والسمنة التي أثقلتها سـقطت أرضاً على وجهها وأجهشت بالبكاء رافعة يديها كأنها تعتذر عن التأخير لمن صفقوا لها على ظهر الشاحنة العزوم وشكروها على جهدها النبيل. لم ينقطع هذا السيل من التضامن المباشر المعبر عن طيبة وأصالة الجماهير الكردية على امتداد الطريق وفي أية قرية نلتقي تفهماً وحضوراً منهم فهم يعرفون مسـبقاً أبعاد الجريمة التي دبرتها أجهزة الفاشية ضد شعبنا الكردي في أرضه وخيراته ورفضهم لمخططاتها الرامية إلى إلغاء وجودهم القومي.

ظهر يوم ١٩٨٨/٩/١٥ وفي غمرة حرارية لئيمة وأنهاك حد الإعيـاء وتعاضد الاثنين معاً كل يشد أزر الآخر لمصـادرة كـل الأذواق الرطبـة والضحكات الطويلة ومرح الصباح المؤقت. من جديـد سـاد الصـمت وانشلت الشفاه وأوكلت مهمة التفاهم للعيون الغائرة وهي تجدح ناراً جراء تفاقم العذاب.. حينذاك أحداً لا ينظر إلى معالم المنطقة وفاتتهم فرص كـثيرة نادرة للتعرف على مناطق قد لا تتاح لهم فرصة أخرى لرؤيتـها في حيـاتهم هذا لسوء الحظ قد اقترنت هذه الفرصة بتردي المزاج ووعكة الحواس الهامة في أغلب أنحاء الجسم الذي من جديد يرغم على الامتحان بصنوف عديدة من العذاب الجسدي، (خنطلت) الرقاب أينعت كل يحتضن القريـب منـه والماء هو الكلمة التي لا تفارق الشفاه ولكن هيهات أن تتحقق الأمنيات في

هذا الحال المأساوي. ومع السرعة القياسية طيلة هذا الطريق البعيد فجأة في وقت واحد تقريباً يفيق الجميع لشيء حصل حرك مشاعرهم من الأعماق وصعد عزمهم الباطني ونظروا على امتداد الطريق من جانبه الأيمن فإذا بمدينة عامرة مترامية الأطراف منتفضة تضامناً مع الشعب العراقي وقواه الوطنية فتعالت الهلال والهتافات والدموع والتصفيق غير المتكافئ، لأن الانكسار قد وصم مسيرتنا كذلك بانكسار الخواطر والعيون. فلأي الأشياء نصفق وبأي الألسن نتحدث مع أهل الجزيرة التي نهضت عن بكرة أبيها وأحاطت بالشاحنات من كل جانب تلقي بالمساعدات والأرزاق وأشياء أخرى ذلت معاني كبيرة. هكذا عرفت جماهيرنا لأول مرة في حياتها كم . هي عريقة بالأصالة هذه المحافظة وكم هي عميق إيمانها بالشعوب ومقتها للطغاة لقد ذكرتنا الجزيرة الباسلة بواحدة من محافظات بلادنا. بطيبة السماوة حين هبت لاستقبال المناضلين عام ١٩٦٣ حين أريد لهم الهلاك الإجباري دون علم الشعب العراقي، ورغم أن قطار الموت كان ابشع صورة مما نحن فيه ولكننا لا ننسى أن هذا التعذيب يستهدف شعباً طائلاً ولا يستثني صغاراً ولا كباراً ومناضلين ومرضى نسوة ورجال، وسلاحهم بذلك فتاك لم يكن آنذاك بذهن الرفاق وهم بين جدران الصندوق الحديدي المميت. القطار ذو الجدران السميكة المغلقة بأحكام والساخنة كأوضاع بلادنا في الوقت الراهن فما أشبه اليوم بذلك اليوم الغادر ولكن شتان بين

السائق الوطني في قطار الموت ذو الضمير النابض بالقيم وهي تهفو لخدمة الإنسان إيماناً بحريته. عن هؤلاء ذوي الرؤوس الكبيرة والأدمغة المغشوشة وهم يذعنون لتهديدات الفاشية ويقابلون طلبات آلاف الأطفال الأبرياء بالرفض وبقلوب صدئة وكلمات حقيرة.

كانت مسيرة حزينة ومؤلمة إلى أبعد الحدود، ومشاعرنا حساسة ومرهقة والبهجة لا تفتعل، فالصمت الجماعي هو المناسب وتضحيات مجهولة هي أوسمة رفيعة للمستقبل والجروح البليغة لمن يتعض أسلحة نوعية جديدة، فمع الشعب حيثما كان و رغم جراحه.

بعد اجتياز الجزيرة، حس الكثير بجدوى الصمود وضرورة العناد الواعي وبسالة الإصرار على المواقف التي ترتبط بها البشرية وقدسية وجبروت جهادهم الموحد بوجه أي إرهاب سافر. ضلت ترقب الأيدي المودعة وصدور تضيق بالعبرات وقلوب تقطر بالنيل.

واصلنا الحركة في شارع قاتم مستقيم كالأفعى الأفريقية بعد أن انشطر الطريق إلى شقين، الأيمن هو سبيلنا إلى النهاية المجهولة حتى الآن، تضاعفت السرعة وازدادت الإجراءات التركية لكننا في البداية لم نعرف سبباً لهذا الاستفسار، عرفناه لاحقاً كوننا على مقربة من الحدود السورية ويخشون من هذا الاقتراب وإشكالاته ومن جراء تصعيد وتيرة الحركة وحالة الفوضى خد

السباق والمزاحمة حصلت حادثة حريق في إحدى الشاحنات فأربكت الحركة واندفعت الجماهير في تظاهرة كل يعتقد أن كارثة قد حلت بذويه والمعارف وتدخلت عشرات السيارات للشرطة والمرور والنجدة والإسعاف لتطويــق الحادث وتنظيم السير تخفيفاً للازدحام ولمواصلة المسيرة حتى المحطة الأخــيرة وعند هذا وصلنا مخيم ماردين عصراً من يوم ١٥/٩/ ١٩٨٨ وبدأت الحياة فيه والتي نقتطف لمحات بسيطة منها في أبرز جوانبها.

# عنـــاد

كامـــل الركابـــي

ضايعه بوَجهي الملامه

وساكته ابگلبي الحروف

ونازل ابروحي،

الثلج مترين

وامعاند أطوف..

يَل تظن تطفي المحبه،

وشمسي غطاها

كسوف.

أرد أگلك:

آنـــه حق..

حق من تِنعَمي اعيونـــي

إبشبگه الملگه

أشوف

كردستان – مراني



# مخيم ماردين منذ يومه الأول


عبد الرحمن حسن
[illegible]

يروي أن ماردين كلمة جاءت من تحوير الاسم مارينا التي أصيبت يوماً بداء وخيم فوصفوا لوالـدها المكـان الشاهق النقي عسى أن تشـفى مـن مرضها فجاء بها إلى قلعة ماردين الحالية الشماء والرواية غير مؤكدة.

على بعد ٢٤ كم جنوب هـذه المدينة القي بناء في الرابعة عصراً مـن يـــوم ١٩٨٨/٩/١٥ في أرض صحراوية جرداء قاحلة محاذية لشارع عام يمتد جنوباً ليرتبط مع سوريا والعراق، هناك كانت مواكب الآلاف تثير الحزن وهي كقطعان الماشية تحاصرها الضوارى، لا يستكينون لحظـة وهـم يتطلعون إلى أسراب الخيم تغازلها الرياح لتأخذها على غفلة فتتسـلل بـدأ خلها وتبدأ بهزاتها العنيفة، بهذه الطريقة تنال منها لتضعف من مقاومة أوتادها المشدودة، بقوة إلى جوف الأرض، لقد عادت بناء الحياة إلي الوراء حقبـة

حتى عهد القرون الغابرة، راجت الكلمات الكئيبة واعتصرت القلوب باللوعة ها هنا نعيش، يالبؤس والخيبة وعذاب القحط، أغلب العوائل لا يملكون من الأثاث ما يستحق الذكر والأغذية تنعدم بالكمال وحتى المعنويات أيضاً هي الأخرى تلبد على الأرض جاثمة كالقماش المطور، وإن وجدت بعض المبالغ المالية فهي زهيدة لا تنفع في معالجة النواقص الطائلة.

في الساعات الأولى خارت العزائم مذهولين يخونهم جهازهم العضلي شبه المشلول من جراء الاعتكاف الطويل إلى ظهر شاحنة عزوم، لذا تراهم يحركون الأطراف ويبتدعون التمارين كل كما يشاء وبينهم من اختار الأسهل، تمرينه اليومي الرتيب، لكنه أضل اتجاه القبلة ولم يكن يسأل عن ذلك بل حددها على عاتقه فسدد باتجاه ديار بكر التركية، وآخر يلتوي بتفنن كمن يؤدي دور نجوى فؤاد، والأكثرية يعانقون الأرض الجرداء كأن الطيران المعادي يحوم فوق رؤسهم، والأطفال وحدهم الأكثر تفاعلاً وحركة، تراهم من كل القرى والمناطق تجمعوا ليشكلوا مواكبهم الغفيرة الناشئة وتجاهلوا الشدة التي تلم بهم وعلى قاعدة من تبلل لا يخشى المطر. أما النساء فكأن الأحداث كتبت مصيبة بحقهن فقط ووليدة هذا اليوم يندبن الجد الخامس عشر للمجرم صدام. الجماهير بحاجة قبل كل شئ للأكل والماء وقليلاً من الراحة ولا زالت حواسهم مضطربة مشوشة وأصوات الشاحنات

ما فتأت تنحط كأنها في سباق طويل قريبة من تجاويف أذنيهم المرهفة الحس ترتجف كأنها تواجه موجة ثلجية كانونية غزيرة.

أخذت النداءات تتعالى عبر مكبرات الصـــوت تـــدعوا إلى ضـــرورة التواجد المنظم لكل قرية في انتظار دورهم القادم، والغروب أشفق من كـــل الأوقات الأخرى حيث استعادت العوائل بعضاً من نشاطها التي كـــادت أن تفقده... دبت الحركة واعتدلت الأمزجة قليلاً والأسئلة غدت أكثر وضوحاً وتقبلاً عنها في حالات الانفعال اللعينة، فها قد صمدوا أمـــام فصـــل مـــن التعذيب ليواجهوا فصلاً آخر. في أوائل الليل استبات الغربـــاء في الســـاحة الواسعة كأسراب القطى ينتظرون الخبز وغطاء يقيهم بلاء برد الليل علـــى أمل تسجيل الأسماء والمعلومات الأخرى الضرورية وكل قرية تختزل أفرادها من بين الآلاف كاستحداث (بيرات الكونكان) وكأنهم من أم وأب وجلهم ناموا رغماً عنهم وقوي الإرادة وعنيد الأعصاب لم يستسلم للنعاس فهو في حركة كاللولب يتابع تسلل قريته ويدقق بحصصهم من الأرزاق كأنـــه رب العائلة زيادة مرجوة في كمية الخبز والحلاوة، في وقت ترى مئات العوائـــل الأخرى، يتعانقون كشدات السمسم بعيداً عن الاختلاط المعيق مع العوائل الأخرى وعندما جاءت البطانيات كانت في وقتها عند نفاذ الصـــبر وهـــي بمعدل للواحد واحدة كأنه زواج مسيحين، والبعض منها ذكرتنـــا بشـــرطة نوري سعيد فهي سوداء مهلهلة كوجه الفاشية الكـــالح. في الرابعـــة بعـــد منتصف الليل تبسمرت أسماءنا على السطور الناصعة في السجلات الطائلـــة

المنظمة بتشكيلات غريبة وابن الجنوب يتنازل عن ماضيه وينتقي لـــه اسمـــاً كردياً قح واسم أمه يتحول بقدرة الظروف من عشمه التي ينابزونه بهـــا إلى نسرين أو ستي وغيرهما بهذه السرعة تغيرت كل التفاصيل الثبوتية وبقي فقط دم ولحم المرء يحرسه جلده الخارجي من التغير الشامل الـــذي طـــال كـــل الأشياء وحتى المقاتل حفنه من سني العمر في المفارز القتالية والكفاح المشرف ينخرط في حال آخر لا يحسد عليه كمن أمضي معظم مراحل عمره في طلب الصدقات، ورغم أن هذه العوائل لا يمتلكون شيئاً محذوراً إلا انهم ترهبـــهم إجراءات التفتيش لأنها مقترنة بقصد إرهابي ونوايا سيئة، والنساء أكثر تهيباً من تلمس الجسم بكل تفاصيله، تراها تجفل كأنها تخفي في ناحية من جسمها درة وينتهي التسجيل تتويجاً بعملية التفتيش القصيرة وبورقة صغيرة تحمـــل رقم الخيمة واسم صاحبها الرئيسي وعدد أفراد العائلة. وخيمتنـــا اليتيمـــة كالعروسة وجدناها تنتظر قدومنا بفارغ الصبر وهي مجردة مـــن لوازمهـــا كعروسات المهجرين، لا يمتلكون غير الجواهر الإنساني عارياً، هكذا كانـــت خيمتنا موغلة بالعمر وموسومة بالخط الأحمر العريض ٤٠٤ هذا هو رقمهـــا الذي حفظته عن ظهر قلب منذ دخولنا لها قبل سبرة الفجر وعلى حاشـــية منها داخلية كان تاريخاً قد كتب باليد تعريفـــاً بماضـــيها الســـحيق وهـــو ١٩٤٣/٧/٥ ولا ندري كيف تسنى لها ذلك، وجدنا الهواء يعبث بهـــا مـــا يشاء ولا يقف بعينيه أحداً وهو حليف وطيد للشمس الغدارة.



إحدى نساء المخيم تقف مشدوهة بين مداراة ابنها المريض وتلبية حاجات البيت اليومية

أمضينا ساعة ونصف تحت أجنحة الخيمة وهي تخبو كطير يحنو على فراخه عند مداهمة عدو خارجي لتتحرك وحوافها تكنس ما في الأرض من شيء ولم تمدنا بمزيد من الدفء ولا أمان يذكر.

منذ الصباح غدونا وبيتنا الجديد كلاً لا يتجزأ أمام تحديدات الأعداء والأسلحة التي يتدججون بها. غفوة الصبح المغرية بنومه قلقة حتى جاءت الشمس التي لا زالت على ديدنها القديم لا تماري مريضاً ولا رضيع. مدت خيوطها مباشرةً في كل خيمة من نوافذ فيها فأفاق النيام في وقت متقارب يبحثون عن حاجاتهم ويتطلعون للجيران لتبادل الحديث معهم وتبادل الحاجات أيضا بعملية ائتلافية وتعارف في هذا الصراع الناشئ مع الحياة.

والأطفال في نهوضهم من النوم في أجواء الفوضى يغافلون أهلهم ليسطوا على خبزة في يومها الثالث طعنتها جذوة الجمر في أغلب مناطق جسمها الرهيف وقطعة من بقايا الحلوى الذائبة عساها تمدهم بشيء من الحركة والقوة.

ولم يعد إشعال النار كما هو في كردستان لانعدام مصادرها إذ لا حطباً يذكر ولا غيره سوى بقايا من القش تمحورت خلف بعض الصخور أو في حفرة أحدثتها مياه السيول. وأواني البيت لا توجد عند أغلب العوائل بداءً من ملعقة الشاي حتى القدر البخاري. هكذا فالأجواء ولدت كيفية معالجة النواقص التي لا تحصى. وعند المناداة لتوزيع المساعدات من الأكل الجاهز يركض المئات معاً وكل يحمل إناءه المميز، علبه وجدها بين الخيم وآخر إبريق فقد انفه في لجة الأحداث ومن لا يملك أي من هذه الأواني تفاهم مع المعارف لجلب حصتهم حيثما يعالجون الأمر لاحقاً وامتدت السلاسل البشرية يدافعون بشراهة كأن أحدهم لا يعرف الآخر وهم لا يعرفون نوعية الغذاء المرتقب وعندما يتمعنون به جيداً يجدونه تكتلاً من العدس الأسود المائل للزرقة لكنه يتنافر تناحرياً مع المياه التي يتمرغ فيها وهو على هيئة الكتل الرصاصية الخاصة ببنادق الطيور وكمية وفيرة لسوء مواصفاته كما يبدو. يجلبون حصتهم عائدين بسرعة خشية ردود الفعل السلبية والمشادات مع أفراد العائلة.

الصمون هو غذائهم الأفضل والأكثر وفره والأحسن نوعية إذ يجري التعامل معه للوهلة الأولى وكأنه قوالب من الكيك هذا ومن جانب ثاني فإن معاناة من ليس له عائلة تختلف كثيراً وأصعب فهو أمام مهمة التفاعل الإيجابي مع الجيران ويظهر بحالة نشاز بينهم عندما يكون في العراء وهو يغسل ملابسه الرثة المتسخة أكثر من الآخرين، ويطبخ في كل الوجبات ويتدافع مع النساء على نقل الماء من المرافق الصحية ويركض وراء عربات نقل النفاية وغيرها خاصة وأوساخ البعض متميزة بما تحتوي من القناني الزجاجية المحذورة.


مسجد في مخيم ماردين

أن مخيم ماردين هو الأكثر متاعب قياساً بالمخيمات الأخرى فقد كابد صلابة الشتاء ونزعات الصحراء ونزقها. فالطبيعة لا تلبث أن تأتي برد فعلها

العنيف معبرة عن ذلك بشتى المظاهر تارة تأتي الرياح من حيث يحط الجليد ويقطن الثلج معظم موسم الشتاء وحتى تنهال السيول بسرعة جنوبية لتبلغ درجة من التهديد الفعلي لأمن العوائل، والرياح بمقدار ما هي شرسة فهي لا ترحم بهؤلاء الأبرياء وهم بكثافة لا تسمح لهم بحرية الحركة وكمن يعيش في ملجأ محدود الأبعاد ويمكن تصور ذلك عند معرفة أن ١٦ الآلاف مواطن يعيشون مساحة يتقارب ٧٠٠م وعرضها ٥٠٠م، يتحركون في هذا المجال الضيق وبينهم المريض وكبار السن والضرير وذوات الأمراض النسائية الخاصة ورعيل لا يستهان من المجانين أيضاً انصرمت فترة من الزمن الرديء كما يقال في هذه الأماكن التي لا يحسد عليها أحداً والنهار هو المتنفس الوحيد بعض الشيء ، يتابعون الأخبار من كل المصادر وتخرقهم للأسف الإشاعات المضادة بسهولة وهم في منتداهم اليومي الفسيح الذي تجري فيه نقاشاتهم العقيمة سيراً كان أو على الأرض فإذا أردت اللقاء مع أي كان تجده هناك في الساحة التي يدعونها(الميدان) وقد شكتهم أكثر من مرة. قالت عن روادها انهم وراء تسريب الكثير من الأخبار العارية عن الصحة والإشاعات الضارة بل المثيرة للأعصاب ولا ندري لخدمة من انجرارهم هذا؟ انه انعكاس لنشاط السلطة الحاكمة في بغداد لمزيد الأسف من يروج لقرارات العفو المزعومة؟ والذي يخفف من وطأة إجراءات الإرهاب الشامل.

في البيوت هناك سلسلة من العوائل التي لم ترتكب جرماً يذكر. وحتى الطبيعة تعكف ذيلها متنكرة عن دورها في خدمة الإنسان دون مقابل، تثور رياحها لأتفه الأسباب لتأتي من كل فج بالمنقصات خصيصاً لتدفعها في كل خيمة دون استثناء ومباشرة دون مراعاة الوقت المناسب لا تأخذها رأفة بعائلة بل بمئات العوائل، غذائهم اليومي الهزيل غير متوازن القوى وقد فقد مواصفاته وتحلي دون خجل منه بمواصفات أخرى ومكونات دخيلة شوهت اللون وأفسدت الطعم والرائحة معاً. أما خيمتهم فهي الأخرى حركت أجنحتها كأنها عازمة على الإقلاع، وتبدأ العواصف على حين غره وفي لليلة ثقيلة جاءت عاصفة رملية في البداية لكنها تكللت بذروة ما تحمل أمواجها الهوجاء من ذخيرة حية، وأمطرتهم السماء بوابل من المياه لتطليهم برشقات الثلج، عرفنا فيما بعد أن هذه الليلة كانت متواطئة، منذ البداية عندما أعطت مجالاً لتطلعات الريح وغزوات المطر وأجواء تتمادى حتى تطال كل بقعة من هذه البيوت البائسة أصلاً.

تفاجئنا مثل هذه الحالات الطارئة فيلقي الكل بالملعقة وتنتشر العوائل صراعاً لكنه غير متكافئ من الأعماق مروضين شدة انفعالها ويزجون بكامل أفراد العائلة بالمهمات المناسبة لكل منهم، يلتحمون كالمغناطيس في مواقعهم في وقت تتلاطم الأمواج ويبدوا بلاءً حسناً في جهادهم بوجه مواجهة السيول العارمة التي لا يقف بوجهها أحد. وحتى الأطفال فلهم خطة تحدد

أدوارهم المناسبة ضمن خطة الاستفسار العام وعلى هامش منها يشـــكلون تكتلاً رزيناً تحت البطانية وتتوالى مناشداقم الصبيانية بتصعيد حالة التعبئـــة والتطمين وتجاهل كل التطورات المناخية وتحدي تدهورها بل الاستهزاء بهـــا متوخين من تكتلهم هذا على طرف من الخيمة جهداً بنـــاءً بوجـــه الريـــاح الصفراء وتعبيراً عن المشاركة الفعلية في مجابهة النوائب والتحديات الخارجية ولكن مهما بلغت حملاقم الاعلامية المركزة من ذروة رفيعة لها فـــلا يمكـــن للأطفال أن يتكافئوا ورغم الأعمار وتقلبات الأجواء الصحراوية القـــاهرة، فهذا دور فوق طاقتهم، وحتى الكهرباء هي ككل الأشياء التركية لا تصمد طويلاً عند الطوارئ فقد انهزمت مندحرة مع بدء الســـحابة في اللحظـــات الأولى والشمعة الفقيرة ماذا بوسعها أن تفعل وهي تحمل حجتها الدامغة على أنها وقعت أسيرة عاصفة عاتية وما دام الكل قد تنصلوا لاذوا عن مهـــدها التي تبعث بكل ما تطول على الأرض ورواسي الكهرباء التي لم يكن ببـــال أحد أن تناسق بهذه السهولة أيضاً، لكنها، للأسف، انجرت باتجاه الضـــعف الساحق تداعت فجأةً وبلا إشعار لأحد وبالشكل الذي لا تتـــبين مـــواطئ أقدامها بل تكبس بصورة عشوائية قبعة الخيمة بالضربة القاضية وبخط طولي تجثم عليها دون رحمة وترديها قتيلة، ففي ليلة واحدة لكنها كسيفة حققـــت أربعة إصابات من هذا النوع أسقطت خيمات أربعة، لم ترتكب ذنباً، ولهـــذا فهناك من ينام وعينيه ترنوا للعمود الشاخص على مقربة من خيمتهم وهـــو

يتحرك كمن يؤدي تحية الكبار، من يدري، ترى هل يكون العمود الفارع الذي يبدو وقوراً هو الآخر ضمن القوى التآمرية المتورطة بخطط الإيذاء لهؤلاء المعذبين، ربما يتحين الفرص ويتقمص الأدوار تغطيةً لقلقه وتبريراً لغدره الوارد في كل لحظة على أنه يريد الانتقام من مضايقة الخيمة له التي لا تعطيه متسعاً من الأرض وهي تلوذ به مستغلةً طيبته، ومتجاهلةً معاناته في صد العواصف والزوابع الرعدية وما يترافق معهما. إنها احتمالات تؤخذ بالحسبان وتتطلب التدقيق في جداول كثيرة قبل أن يغالبهم النعاس وهم يطاردون النوم في ساعات متأخرة من الليل هناك من ينهض من فراشه ليقف جانباً يناجي عمود الكهرباء بلهجة جادة طالباً المصارحة قبل ارتكاب أية حماقة ينصحه بنبرة تحذيرية أن لا يركب الموجة هو الآخر بسهولة خاصة في هذه الظروف فهي ممارسات غير مرجوة ومسايرة توفيقية ضعيفة لكنها رغم التأكيدات الداعية للاطمئنان ثانيةً يأخذ أسوأ الاحتمالات بنظر الاعتبار في حالة أن تجري الرياح بما لا تشتهي الأعمدة، يحسب كل هذه الأمور بدقة فيراها لا تثير الخشية أيضاً، ودون شعور منه يضرب براحة يده على العمود يداعبه بلطف توطيداً للعلاقة كأنه يلتمسه العذر عن خطية قديمة ويتبادل العهد معه من جديد، ومع كل هذا يجرف قليلاً من التراب بقدميه ليزيد من ثبات القاعدة أكثر حتى يعود لفراشه علّه يستكين من القلق، وهناك أيضاً تتدخل عناصر التشكيك بتعهدات خشبة جوفاء قاصرة التقدير وضعيفة

المواقف، ماذا نقول فيما لو نقضت عهدها على غفلة منا..؟ ونفذت مـــا لا تحمد عقباه..؟ فيسحب من فراشه قليلاً بخطى تراجعية كي لا يطاله مثل هذا الاحتمال وحال كهذا لا ينعزل بعيداً عن كل المواقف المهزوزة فالثقة قـــد اهتزت بأغلب الأشياء عدا قدرة هؤلاء الناس على التحمـــل أمـــام هـــذا الاختبار الذي ليس من سواه.

اعتادوا النهوض المبكر ليكونوا قبل غيرهم في ساحة انتظار الفطور ولا يعرفون ما يكون، يحملون قدراً واسعاً لا يملكون غيره وإذا بزادهم حفنة من الزيتون وغرفة من الشاي الجاهز يحمل من الحرارة كأنه قادر على مناهضـــة وصهر كل ما هو جامد في الطبيعة ليبث فيه الحياة والحركة وهنـــاك يبـــدأ التعليق اللاذع والإرباك المفاجئ كيف يمكنه الجمع بين الاثنين في إناء واحد خاصة والجماهير الكردية الغالبة لا يستسيغون الزيتون بمفرده رغم معرفتهم بدعوى كثرة منافعه أسوة بالتين لكنهم يريدونه بصـــحبة أشـــياء أخـــرى كالطرشي (والبرياني) وغيرها ولا يحترمون الزيتون بهذه الطريقة المفتعلـــة، ثم إنهم يجدون تناقضاً مع النص الوارد في الوثائق السماوية الذي يفترض بلـــداً آمناً في وقت لا يعرفون للأمان طعماً وعموماً التغذية قليلة والجوهري فيهـــا رديء والتحايلات أسلوب شائع، مثلاً صاحب العائلة مـــن خمســـة أفـــراد يريدها عشرة ولا يتنازل عن ذلك وهذا عرف سائد وحتى الأتراك يعرفـــون ذلك ويغضون الطرف عنه.



مخيم عزرين من احدى جوانبه

كل الأشياء نسبية وقلقة والضعيف في هذا الـــزمن تأكلـــه الظـــروف وتطوله اللائمة ويغزوه الإحباط، ومن المظاهر الشائعة أن المصـــلين بمقـــدار كثرقم تضيع عليهم الأوقات لأداء هذه المهمة الروحية ويختلط الفرض مـــع السنة فتتداخل لتؤدي دفعة واحدة، وعندما يتوقف ماء الحنفيـــات، وهـــذا ليس نادراً، تأتيّ مياه التانكرات الطويلة ويتحول كل منها إلى قائد لتظـــاهرة صاخبة ومختلطة من النساء والرجال وبكل الأعمار وتحتـــدم الفوضـــى ولا يركن أحد للانضباط ومن يتمالك نفسه بدوافع الخجل والالتزام يعود خائباً إلى بيته وهؤلاء لا يشكلون نسبةً ذات شأن أمام من يروها فرصتهم وميداناً إلى الربح والخسارة أما الحمامات فهي لا توجد بمعناها أصلاً في أي خيمـــة ولا على مقربة منها، ويجري ما يسمى الاستحمام داخل المرافـــق الصـــحية الجماعية البائسة بماء بارد وقليل والعشرات فقدوا حاجاقم بهـــذه الطريقـــة ومن يجد من هذه الحاجات شيئا بعضهم يأتيّ بها فوراً يعيـــدها إلى أصـــحابها

شرط أن يذاع اسمه في مكبرات الصوت ويشاد بنـــزاهته. وفي هذه المعمعة تحصل المشاجرات والتدافع خاصة بين الشيوخ والصبيان حيث لا تنسيق ولا برمجة بقيت في هذا الزمان العاهر، وقضية الحمامات أخذت تعـالج في كـــل خيمة في البداية بشكل مبادرات لكنها بعد أيام حققت هذه الوجهة فـــوزاً ساحقاً فلم تعد هناك خيمة واحدة متحررة من الحمام النموذجي المحشور في زاوية لا تربو على المتر بأفضل الأحوال وعندما يدخله الواحد يفرض علـــى الآخرين التشرد والانتشار في الخارج في حرارة الظهيرة أو بعـــد منتصـــف الليل أو عند انبلاج الفجر...الخ. أي ارتباطاً بفترة مجيء المياه.



أعمال يومية شاقة

أما الأواني فهي عجيبة المنظر فمثلاً يستعيضون عن قدح الشاي المعتاد بقنينة بلاستيكية كانت على هيئة بطل اعتيادي فانشطر من عنـــد القامـــة، وبدلاً من إناء الأكل المألوف بقاعدة الصفيحة المتأكسدة وعن القدر بسطلة متهرئة الحواف وعن ملعقة الشاي بسكينة صدئة ترفض تنظيـــف نفســـها،

وهكذا مع الأدوات الأخرى وعندما اقترب الشتاء اقتربت الحاجة للملابس الملائمة تحسباً لتغيرات الجو وصباحاته المبكرة المفعمة بالحركة في الفجر المعمد بالجليد الذي يدفن واجهة الأرض ويوقف السيولة في أية مادة مكشوفة، ثم هناك الطلبات التي لا تنقطع فكل عائلة تمتحن الأخرى بعملية المقايضة ولكن المخيف فيها تباين قيمها الاستعمالية فمن يطلب رز مثلاً ليس كمن يطلب شخاطة والشكر لا يقارن بالزيتون وبالمعكرونة المذمومين ذات يوم من أيام الخريف رب مفاجأة وإذا بظاهرة مبتكرة تنبع للوجود وتروج بالمخيم لدى البعض أولاً ثم انتشرت وبائياً فقد ظهرت موديلات من الملابس المصنعة محلياً من أجساد البطانيات الاعتيادية التي وزعت قبل أيام ظهرت في حلة جديدة.. روب.. بلوز.. قمصلة.. بيجامة.. قبعة يلك وغيرها وواجهت الناس هذه المودة في البداية بشيء من السخرية وتعليقات ويهمسون وراء ظهر الرواد الأوائل لهذه التشكيلة التي فرضتها الظروف للتصدي لهجمة البرد الصلفة ولكن أيام قليلة حتى تحولت هذه الحالة لتعم المخيم بكافة أرجائه حيث تبات البطانية غطاء لأحدهم وفي الليل يتفحصها جيداً ويحدد موعداً صباحياً معها للعملية الجراحية التي تطيح بها وتغير نمط حياتها جذرياً وكفاها تقوقعاً بين أجنحة الخيمة القابعة على الأرض لتظهر من جديد وهي تعانق الجسم بكل تفاصيل أجزاءه وحيث ما كانت تحركاته ويعلق أحدهم البطانية حياة مثل الطماطة في نجدتنا فهي أشفق من كل المتاجرين بالكلام المعسول المجرد.

وفي هذه الظروف الصعبة والفراغ القاتل أخذوا يبددون ذلك بالألعاب الغير الهادفة وعادت من جديد لعبة الدامة والدومينة التي قد اندثرت منذ سنوات فهم يعملون أدواقما من الحجر الفخار الأحمر ثم إن قصصهم خرافية كانت سائدة إبان العهد العثماني ماتت فنبشوها لتكون برنامجهم الثقافي الفصلي وأبطالها غالبهم من الثعالب فهي عطاء بائس لكنه للكثيرين متعة يمتص وقته ولا تفوقم نشرة أخبار واحدة أو تعليق صحفي في إذاعات العالم، وعندما يسمعون كلمة كردي يصغون باهتمام للحديث وتظنهم أيقنوا فحواه لكنهم ما أن ينتهي سياق الخبر حتى طلبوا مرماه تخونهم اللغة ودقة المفاهيم السياسية وأحاديثهم تحمل من السذاجة الشيء الكثير وتحاملهم على الأحزاب يتفجر عندما يسمعون شيئاً عنها ويريدون للعالم تغيير نقاط بحثه لتكون قضيتهم في المقدمة وتغيظهم حالة الاهتمام العالمي بالقضية الفلسطينية وكأن بحث هذه القضية هو على حساب قضيتهم التي يعتقدونها أكثر التهاباً وحدة.



ميدان التواجد النسوي وتبادل الأخبار عما هو جديد



منظر أشمل للمخيم

# أسرار الرجال تكشفها النساء

في الصيف في ساعات الظهيرة حيث الحرارة على أشدها تتحدد حرية المرأة في خيمتها فقط وتنطرح أرضاً بعد أن هدها التعب تداعب صغيرها ليضحك ببراءة كأنه بعيداً عن هذا الواقع المرير. يتطلع عله يحظى بغذائه المفضل وأخرى لا تجد مناسبة تعينها كي تلبس بدلتها الجديدة الجذابة التي اختارتها على ذوقها من القماش المخمل ومئات الأطفال جاءوا للحياة فتحوا عيونهم عليها ووجدوها هكذا معقدة شراهم الدوشاف (الدبس) وجرزاتهم بسيطة عبارة عن الحمص لوحده بأي شكل كان لبلبي أو محمص حد السنار الخنطاوي وتبركوا لأول مرة بالكنجر (١٧) باللون الذي لم يجدوا سواه ستارا لهم وحدهم كسوتهم الرئيسية وبعضهم لا يمتلكون حيلة وهم يطمحون في الحصول على بدلة من قطعة قماش جاءتهم تبرعات وهي لا تتجاوز المترين، فأي بدلة هذه التي ينقصها ثلث حدها الأدنى. لاشك أنها نحيفة لا تنسجم مع تفاصيل الجسم وكل جزء فيها قد عاش تجربته في التقشف وفرض عليه الضمور ولم تعرف الجيوب ولا التفنن بالنهايات ما يستر الأيدي.

هذه الحياة قد أفرزت معطيات غير مألوفة وربما هـذا الحـديث يـثير حفيظة الرجال وهذا ما لا نرجوه. فالرجال عرفـوا تكـريس السـلطة في أيديهم فهم قوامون على النساء، لكن للحقائق منطقاً آخر تماماً ولسان حال هذه الحقائق يقول: إن النساء في هذه الحياة بالذات والتي هي المحك الأكثـر صدقا واعتماداً للاختبار، أكثر كفاحيةً وعطاءً من الرجال، وليعرف الرجال هذه الحقيقة جيداً فالمرأة والحق ينبغي أن يقال في حركة مسـتمرة معظـم الوقت تكابد الظروف والأمراض وتبحث عن اللغة المشـتركة مـع كـل أطفالها. وتبرمج وقتها بدقة كي لا يتضارب مع الأعمال الأخرى الضرورية.



أما لهذه المتاعب من نهاية؟

تسهر الليالي لتأمين راحة البال لزوجها الذي لا يأتي للبيت حتى يـرى ساعته قد تخطت الوقت المقرر للوجبة المعينة حين يأتي للبيت يكتفي لتقـديم الملاحظات عن نواقص الغذاء وتدهور تركيبه النوعي وكأنه غير معني بمعالجة ذلك دون غيره، وأحياناً يسرب جملة من الأخبار التي اصطحبها من المسرح اليومي وهو بنفسه لا يثق في أغلبها في وقت المرأة عكس هذا فهي لولـب البيت حيث يشتد مرضها وتنقل للمدينة لأكثر من يوم آنذاك يتحدد البعد الحقيقي لفراغ تتركه بغيابها وتعم الفوضى وترتبك الحياة ولا يعود للبيـت وضعه إلا بعودتها لتضع يدها على الخلل واجتثاثه فهي التي تمضي أكثر مـن خمسة ساعات يومياً في جلب المياه من بعد مئات الأمتار وتسهر على تـأمين النظافة لأطفالها والأثاث، والكرديات متشددات بالنظافة ناهيك عن الطبخ ومتابعة زوجها الذي يهمها هندامه كانعكاس للبيـت وترتيبـات الزوجـة النادرة ذات الذوق الرفيع وأحياناً كثيرة تذهب بعيداً كي تجلب قليلاً مـن الطين الأبيض الخاص بصقل جدران الخيمة وأرضيتها وتؤدي ذلك بطريقـة متعبة للغاية بواسطة ملعقة الأكل بشكل مراحل، كم هو متعب جهد كهذا وكأنه من مهمات النساء فقط، الرجل أرفع من ذلك كيف يمكنه الظهـور وهو يحمل إناء الماء على كتفه أو أن يضع أدوات الشاي أمامه ويقدم قدحاً هذا تنازل ومؤذٍ للرجال في عرفهم، هكذا فإن معاناة المرأة كـثيرة وهـي

عرضة للانتقاد ما أن حصلت منها زلة صغيرة فهي أمام التزام اجتماعي عام وصارم.


ثيابهم الزاهية أثارت حفيظة أصحاب الفتاوي

ورغم كل هذه الضوابط فقد سجلت حصانة مطلقة تماماً فلم تحصل مشاكل اجتماعية تذكر رغم الكلمات الجارحة التي كان يثرثر بها الملأ الصغير عن نواقص وتجاوزات النساء لم تحصل حالة واحدة مكشوفة لخطاء خياني من امرأة أياً كان منشأها السابق وبأي الأعمار، إذاً دعوة الملا للعفة باطلة من أساسها في أن الكثيرات مسرفات في الانطلاقة ومتمردات على الواقع، ويتعمدن ارتداء الملابس المثيرة والمظهر الذي يتجاوز الإطار الاجتماعي المحافظ وغيرها من الأحاديث التي كان يحدد لها نصف ساعة تقريباً قبيل وقت الفطور من كل يوم، وأصبحت تعليقاتهن الساخرة الوسيلة الإعلامية المضادة والأكثر دحضاً والويل لمن يقع بألسن النساء، وأصبح هذا الموضوع مادة يومية للتثقيف وصراع محتدم بين الجديد المتطلع للنور والقديم

المرتبط بالظلم البشري والازدواجية السلوكية غدا حديث المرأة أكثر جرأة ووضوحاً، وليعلم كل من يريد الطعن بتخرصات جوفاء أن مشاركة المرأة في الأعراس وأداء الدبكات يداً بيد مع الرجال وارتداء الملابس اللائقة وزيارة المعارف وتوطيد العلاقة وتبادل العواطف واختيار الطرق المشروعة في إقامة الارتباطات وغيرها كلها ممارسات إنسانية مقبولة كمبادئ وهي ميدان لإعطاء الأحكام الأكثر صدقاً ونزاهةً.

والكثيرات أخذن يرددن أثناء النهار النكات والتعليقات اللاذعة على أن الملا يسمعنا وهو لا يقبل أن نضحك أو نرفع ملابسنا قليلاً كي لا تتبلل ولا نجامل الرجال من الآن فلديهم غايات أخرى وهذا ما لم نعرفه قبل الآن.

وسارت الحياة وفق منطقها الجبار فتعمقت الألفة بين الجماهير واتسعت العلاقات كالسيل العارم، اكتسحت كل الأصوات النكرة وتكلل النشاط الإنساني هذا بظاهرة الاتفاقات اليومية وتفجرت حالات الزواج بسرعة قياسية، تذللت الكثير من العقبات في هذا الطريق ومن أبرز الدوافع التي شجعت على ذلك هي قلة التكاليف إضافةً للخوف من التشتت إلى الدول الأوربية المخيفة اجتماعياً كما يقولون صيانةً للشرف من خفايا المستقبل الداهم ولكن السبب الأكثر تأثيراً هو أن الاختلاط في المخيم قد تحول من قرية صغيرة ضيقة إلى مئات القرى، شباب وشابات جمعتهم محنة الحياة معاً هذا خلق تعارف وتفاعل وبدء علاقات وتطورها يومياً حتى بلغت مرحلة الاتفاقات النهائية بغضون أيام فقط ورغم ما تحمله السرعة أحياناً من عدم

التأكد في التشخيص لكن هذا لا يقارن مع النجاحات الساحقة ناهيك عما يحمله التأخير من آفات.

وسبب آخر هو أن الزواج عامل أساسي في الاستقرار النسبي وتبديد الكبت الذي يواجه شباب في مقتبل العمر ونزعاهم نبيلة، أصبحت عمليات الزواج هبة رائجة بحيث خلال ثلاثة أشهر تقريباً تحققت ٤٠٠ حالة زواج ولم تحصل حالة طلاق واحدة، وأحدهم أعطى أمه لقاء زوجة له بالتبادل، جرفته الموجة لكنها أخذت به وأمه أيضاً إلى شاطئ الوئام وكانت هذه حالة للتندر، لم يحصل أن تزوج أحداً بأكثر من واحدة على الإطلاق وهذا مظهر على عدم عفوية هذا النشاط على العكس تماماً كان واحداً من أنزه الممارسات يبن القرى والعشائر التي كانت تضع الحواجز فيما بينها على أنها تقاليد جديرة بالصيانة والاحترام. نساء لا يعرفن الغزل الرخيص ومطاوعة العواطف الصبيانية والتعامل المبتذل، يحملن النفس على التهذيب والصرامة، فالمجتمع ضيق قاسي أزاء هذا الجنس من البشر ولهذا فالمكان الوحيد الشرعي لعقد اللقاءات بينهن هو في فترات جلب المياه التي تستغرق معظم الوقت، هناك يتبادلن الأحاديث الشجية والأسرار كل تبحث عن صديقاها وتنسى نفسها والالتزامات الأخرى فهي في مهمة رسمية وكفى خاصة والمكان لتواجد النساء فقط وصفيحة الماء تأخذ سيرها اقتراباً من الحنفية التي لا تكف عن التدفق وعلى جانب من هذا المشهد تعقد تجمعات النساء والوقفات الحذرة لكنها وقفات عمل كل تتابع الجديد تسأل عن هذه وتلك

لكي تعرف كل الحوامل والمخطوبات ومن في طريقهن عراقيل وتفاصيل المشاكل العائلية ومن وراء الإشاعة الفلانية عن وجود العلاقة الغرامية بين فلان وفلانة فهي رغم أنها لا تسجل حديث اللقاء لكنها لا تفوتها كلمة واحدة بل يستنسخ كامل الحديث بدقة في دماغها وتفرزن الحصيلة دون التباس لتقريرها اللاحق مع الأخريات. وبينما هي في غمرة حديثها والتساؤلات واعتذار عن مسألة تهمها وموقف يعنيها بغتةً وإذا بانائها يطفح تحت نزيف الماء الذي يأبى التوقف وهكذا ترتبك نقاط الحديث المثارة بأكثر مما يتحمل الوقت.



كأن هذه الأعمال محرمة على الرجال

ومن الحالات النادرة جداً ندرة الديمقراطية في بلادنا أن تجد رجلاً وزوجته متفاهمان إلى الحد الذي تجدهما يحملان صفيحة الماء معاً أحدهما يعين

آخر والحالة أكثر غرابة أن تجد شاباً يسير عصراً ويده بيد خطيبتـــه وهمـــا
لى أبواب الزواج، طموح كهذا شبه مستحيل غير وارد تحـــزره الأنظـــار
ألهما اقترفا جرماً وعندما يريد أحداً أن يوثق هذه الظواهر ويرصدها وهي
نية من دم ولحم يخشى التفسيرات بالنوايا السيئة وكم كان محرجاً عنـــدما
يقترب من حشد نسائي بالمئات على حنفيات المياه وإخراج علبة الكـــاميرة
هدوء ليلتقط سوراً مرتبكة وهو يرتجف كمن يساهم في اقتحام ربيئـــة لأول
رة. وعلى عجل لاذ بين الخيم تلاحقه التأشيرات والنظـــرات الســـديدة،
لكن رغم هذا لم يتوقف مشروع اختيار اللقطات لتغطية الموضوعات المعدة
ساعة فقط حين جاءت أحاديث الاستنكار قـــالوا بـــالحرف الواحـــد: إن
شخصاً شيوعياً يحمل الكاميرا وواجهتها بيضاء يلاحق الشـــابات وينتـــزع
شكالهن بصور ملونة ويروغ عن الأنظار ربما وضعوا هذا بقالب آخر كأهم
صدق حرصاً على النساء من الشيوعيين وهم أنفسهم يعلقون أحياناً علـــى
ن حزبنا الشيوعي حليف النساء وهو كذلك فعلاً، كان الإحراج بالغاً حين
واجهني شابة متألقة تحمل إناء الماء على كتف منها وتنوء تحت ثقله ليزيدها
طولاً ويمنحها الوقار فهاهي قد أصبحت في عداد البالغات ممن خطف قلبـــها
لى حيث قلوب كل العاشقات المغرمات بالقيافة والاتزان. ألم تكـــن هـــذه
اللقطة هامة؟ كانت تلك هي الأكثر أهمية لكن عدسات العيون وســـهامها
رمت من بعيد، تصدت لتطاولات الكاميرا فأردها قتيلة في كفنـــها البـــالي

الممزق ولم تأخذ أي صورة لموقف كهذا بل كانت صوراً اعتيادية لا تثير أحداً، ورغماً عن الكاميرا وصاحبها روعيت الأوضاع الخاصة والتقاليد المحافظة في المخيم وتداخلات كهذه لا تستطيع الكاميرا الإلمام بها وجمع تفاصيلها الموزعة في كل أرجاء المخيم ولكل لحظة يعيشونها في يومهم الفوضوي.



زفاف

# يوم جاءوا كالغربان

إن أسطراً قليلة لا يمكنها أن تعكس شيئاً ذا بال سيما والحديث يدور عن سلوبيا (معسكر الاعتقال الفاشي) الذي ضم أبناء شعبنا الكردي الفارين من غازات الموت... فالجماهير هناك عاشت محنة وليالي حالكة فقد ضايقتهم السلطات التركية بشتى الحجج والأساليب... إنها الفضاعة بعينها... إرهاب... سور منيع من الكونكريت المسلح متوج بأسلاك شائكة تكشر عن أسنانها.. مدرعات تجوب طرقات المخيم، جوع مزمن أصوات الرصاص وأزيزه يخترق آذان الطفولة، شبح التسليم يطارد الجميع وبنايات إبراهيم الخليل تكاد أن تتهيأ لاستقبالنا والجزمات العسكرية والمسدسات (تحت الجاكيت) وعيون حسن (١٨) وأعوانه تريد اختراق الخيم ومكبرات الصوت الذي يخشاه الجميع، وأزاء كل ذلك تجد التحدي والاحتجاج والتظاهر والاستشهاد من جماهير لا تملك منها قد حصن الجميع، إنها رحلة الكلمة والتصدي الجماهيري وعدم الاستسلام، وعندما جاء العفو الصدامي استجاب سبعة أشخاص فقط من مجموع ثلاثة عشر ألفاً كاملة ومن السبعة هؤلاء ثلاثة نساء وأربعة أطفال جميعهم كانت عوائلهم تحت

أيدي السلطة في دهوك وزاخو لم يكونوا من سكان الأراضي الـــتي كانـــت تديرها الثورة، والحصيلة إن دماء منا قد سالت على الساحة المبلطة الفسيحة أمامهم، فزجاج شبابيكهم قد تحطم حتى الطابق الثامن وتحطمت معه نواياهم الشريرة وقد جربوا أنفسهم مرةً أخرى على منظـــر الـــدماء أو الجمـــاجم المهشمة قد فت في عضدنا ولكن هذه المرة كان التصدي أضعافاً مضـــاعفة، مما اضطرهم إلى طلب الرحمة والاستعداد لتلبية كل المطاليب. لقد تعامل مـــا يسمون المسؤولين (القائم مقام والشرطة والأمن) بعنجهية وجلافة، فهم كما يبدو كانوا أسرى التأثيرات العراقية الضاغطة، وبحكم زياراتهم المتتاليـــة إلى زاخو ولقاءاتهم المشبوهة مع المسؤولين الفاشيين هناك، فقد نشطت تحركات العملاء داخل الجماهير نفسها واتسعت ممارسة البلبلة والتلاعب بالمشـــاعر، وفي واحدة من حوادث المواجهة المباشرة بين الجماهير العزلاء إلا من الأيدي والحجارة (فالأيدي والحجارة سلاح الفقراء الأمضـــى) وبـــين الجندرمـــة المدججين بمختلف الأسلحة... وقع شهيدين من جانب الجماهير ووجهـــت الإهانات والضربات بالأيدي والحجارة الموجعة إلى المسلحين وتأزم الوضع، وعلى أثر ذلك نقل عدد من الجماهير ممن اعتبروهم وراء حوادث الشـــغب كما قالوا عنهم... كان هذا الموقع لا يبعد أكثر من خمسة دقـــائق بســـيارة اعتيادية عن جسر إبراهيم الخليل... الرابطة النهرية بين تركيـــا والعـــراق وهذا بحد ذاته مبعث خشية من تدابير الأعداء ونشاط العملاء فالمســـاومات

وحتى الجرائم المدبرة تحوكها في الخفاء عناصر تخفي رؤوسها في كلا الجانبين والتنسيق فيها بينهما، ولهذا ازدادت المطالبة بالنقل من هذا الموقـــع المهـــدد لأشكال المخاطر وفوضى الحياة وفعلاً بدأت أعداد كبيرة تنقل مـــن هنـــاك بعضها إلى إيران والبعض الآخر إلى ماردين الأكثر استقراراً والأسهل تعايشاً وفي غضون التشرينين من عام ١٩٨٨ تم نقلهم جميعاً ليضـــيفوا إلى مخـــيم ماردين نمواً سكانياً مفرطاً حد التخمة، وعادة يجري الإعلان مسبقاً إن كذا عدداً سيصل قريباً وتبقى الجماهير تنتظر بفارغ الصبر، تخترق كل الحـــواجز الشائكة كالسيول لكنها بشرية لا تقف أمامها الموانع ومناشدات الانضباط الداعية للهدوء وبعيداً عن مبنى الإدارة ومواقع المســـؤولين، لكـــن هـــذا مستحيل كيف وهي مشاهد لا يمكن أن يتخلف عنها أحد، وحتى من لديـــه أشغال يتركها كما هي ويلتحق بآلاف المستقبلين وتبدأ نداءات الترحيـــب والتلويح بالأيدي من بعيد والتصفيق ودموع الكثيرين تســـبق ابتســـاماتهم فهاهي الشاحنات تقترب مغطاة بالبشر، وبحال يرثى له، كل يحجز معارفـــه يختزلهم ليكونوا ضيوفه الأعزاء. في واحدة من هذه الوجبات، أظنها الثانيـــة جاءت عدد من الشاحنات الطويلة ذات الجدران السميكة والشقف القاسي وعلى بعد قليل وقفت هي وكل شيء آخر توقف وسادت الدهشة كلاً من القادمين ومستقبليهم.. ترى ماذا لهذه الجماهير داخل الشاحنات؟ أليسوا هم جماهيرنا التي عهدناها برفض القيود؟ تردد الراكبون مـــن تـــرك مـــواقعهم

والنـــزول والحق معهم فبماذا يواجهون المعارف وبأي الوجوه يلتقوهم؟ إنهم يهابون اللقاء مع ناس هم جزء منهم وقد لطختهم مادة سوداء داكنة هـــي من آثار الفحم الذي كان ينقل بنفس هذه الشاحنات واختاروها دون غيرها لقصد خسيس تعبيراً عن الإهانة ولكسر نفوس هذه الجماهير التي أقســـمت ألا تذعن للفاشية ولا تساوم قيد شعرة لمشاريعها الإرهابية، فهي أدركـــت منذ البداية أن طريقها عسير لكنه الاختيار الوحيد ولا بديل سواه، وأخـــيراً نزلوا من الشاحنات بصمت لا يعرفهم أحد وليسوا على طبع من ســـبقوهم في المجيء، ليس بينهم من يضحك ولا يرفع عينيه بوجه مستقبليه انتشروا في الساحة كأنهم عادوا للتو من تشييع عزيزهم، جلســـوا علـــى أرض رطبـــة ووجوههم باتجاه آخر والهواء البارد لا يرحمهم هو الآخر ينتزع منهم غبـــاراً أسوداً ليأخذ به إلى أجزاء أخرى من أجسادهم وزخات المطر الخفيفة تكحل كل الأجزاء التي لم يطلها هذا الطلاء الغريب، وحتى الآن لا تعرف جمـــاهير مخيم ماردين ماذا حل بهؤلاء، ركضوا صوبهم للاستفسار أولاً فتعانقوا بحرارة وتبادلوا السواد بينهم، فعرفوه من بركات حلفاء الفاشية الحقـــيرة، طـــال عناقهم وتبادلوا القبلات الطويلة أيضاً أحدهم يحضن الآخر.. هكذا نلتقـــي وتحول الموكب الجماهيري الغاضب إلى مشهد مؤلم لا يمكن وصفه، كنت في البداية لا أفهم ما تعنيه الكلمات والقصائد الارتجالية باللغة الكرديـــة الـــتي كانت تبثها مكبرات الصوت إلى كافة أجزاء المخيم احتفاءً وتضامناً وألماً لما

حل بأخوة لهم، ولكن عندما نظرت للعوائل هنا وهناك رأيت المئـــات مـــن النساء والشيوخ يجهشون بالبكاء البطيء مغثوثين من أعماق الخواطر فهـــي إهانة لنا جميعاً ولطخة عار بجبين مدبريها الموغلين في الحقد علينا ورغم المعاناة الكبيرة في مخيم ماردين نفسه فإن الحمامات البسيطة استقبلت هؤلاء لتزيـــل السواد عنهم وملابسهم وئدت كأنها قد تدنست بأفعال فاشـــية والقصـــة رويت بكاملها كواحدة من سلسلة المعانـــاة لعشـــرات الآلاف لتكـــون في أرشيف شعبنا الخالد. هكذا عاشوا ليلة ثقيلة باردة مكتظة لكنها ورغم كل هذا تختزن حلاوة مبعثها أن كل بين ذويه بعيداً عن ســـلوبيا ذات الأجـــواء المريبة وواليها الدنيء وقصتهم هذه هي فقرة هامة مـــن الســـفر الطويـــل والسجل الكفاحي الذي يتعمد بالدم وآلاف الوقائع الكارثية.



# وعلى محور إيران كانت الأحداث مريرة أيضا

يتحدث المشاركون في الانسحاب بتفاصيل مذهلة حقاً حينها عندما كان قرار الحزب في البداية يقضي بالتخفيف لكل شيء وتحسباً للتطورات التي تلوح في الأفق وكان التفكير بإمكانية مواجهة قوات السلطة لكن عند استكمال المعلومات جاءت القناعة بعدم جدوى تفكير عقيم كهذا مما تطلب دراسة جادة للأمور تنطلق من الواقع وجاء القرار بالانسحاب إلى منطقة جمجو لمحاولة المقاومة من هناك وكان الانسحاب يتم موازياً للحدود مع تركيا وعلى طول هذا الخط جرى توزيع العوائل والمرضى مع العوائل الأخرى الاعتيادية وتحمل ما يصيبها.

واصلنا الانسحاب وتركنا فكرة التوجه إلى جمجو بعد التأكد أن كافة القرى خالية من البشر وجئنا إلى قرية نيروه سيتو وهناك وجدنا واحدة من مفارزنا قد جاءت من محور أربيل بعد أن قاوموا السلطة وأنقذوا عوائل كثيرة من قبضتها وتخلصوا بأعجوبة وهي مفرزة مام خضر.. عانينا من صعوبة إقناع الرفيقات وبعض المرضى وكبار السن في التسليم للقوات التركية لكن القرار صارم ولا سبيل سواه.

تواصلت مسيرتنا حتى وصلنا منطقة تدعى جمتو وهي عبارة عن وادي فيه مياه وفيرة وتسمى منطقة عريف ياسين من الحزب الديمقراطي الكردستاني وحتى هناك لازالت تدور في الأذهان فكرة المقاومة لقوات السلطة وجابهنا أصعب موقف عندما بلغنا المنطقة الميتة حينها جاءت فكرة جديدة في الانسحاب إلى إيران لكن من خلال الأراضي التركية وفي عمقها وكان تعداد البيشمركة مائة تماماً وجميعهم مسلحين وأن يجري الترويج لهذه الخطة كي تكون القوات التركية على علم وتعطي مجالاً للمرور ما دام الهدف الوصول إلى إيران وهكذا تسربت هذه الخطة إلى الأرض التركية وهذه الوجهة هي الوحيدة الممكنة بما تحمله من مخاطر جسيمة علينا التحسب لهذا الاحتمال الأسوأ، استقرت هذه الفكرة ولاقت الاستحسان ودخلنا أول قرية تركية وكانت قرية صابيّ وفيها جندرمة وفيها قوات مسلحة من قبل السلطات التركية (جحوش) والمقاومة PKK ومن هناك تسلقنا جبلاً حتى وصلنا قرية أخرى ووصلنا منطفة كفرى ومكثنا في قرية على بعد صف ساعة عن كفرى وهناك تناولنا العشاء وغادرناها فوصلنا منطقة داركمز قرب الحدود الإيرانية وتواصلت مسيرتنا وعلى الحدود الإيرانية التقينا مفرزة لـ(حدك) وعرفونا شيوعيين ومن الاتحاد الوطني الكردستاني ورحبوا بنا كثيراً وقدموا لنا العون اللازم، وفي إحدى القرى الإيرانية عرفونا بيشمركة والتي تشرف عليها ربيئة مؤثرة وقد جرى

اجتيازها بسرعة وهدوء حتى دخلنا منطقة نفوذ الحزب الديمقراطي الكردستاني والمكتب السياسي وحللنا ضيوفاً على ديوان مسعود البارزاني وأمدونا بالتقدير وحسن الضيافة والمساعدة حينها شعرنا بالأمان الحقيقي والراحة.

في اليوم التالي تلقينا التعليمات بالتحرك إلى مناطق السليمانية ونقلونا إلى هناك بالسيارات ووصلنا إلى منطقة فيها مقرات عديدة وقوات البيشمركة وفيها أرزاق والمستلزمات الأخرى.

وبعد فترة من الاستراحة تولدت فكرة العودة إلى المنطقة في كردستان العراق وتم ترتيب ذلك مع المعنيين من القيادة وهذه العودة هي الأخرى محفوفة بمخاطر جادة وتتطلب اليقظة العالية والانضباط والتعاون والسرعة والصبر وكانت الخلاصة أن تحققت المهمات المرسومة بلا خسائر ولا أخطاء وهي واحدة من المواقف الصعبة لكنها مكللة بالنجاحات، وفي محاور أخرى طبعاً كانت الصعوبات كبيرة خاصة في مخيم موش في العمق التركي وفي مجمع بحركي وغيرها، وصعوبات التسلل إلى سوريا من خلال صحراء مكشوفة وقاحلة.



# مخيم كفري

قصة آلاف عاشوا في مجمع كفرى قصة لا تقل مأساوية عمن كانوا في سلوبيا مارة الذكر سيئة الصيت، حيث في كفرى البرودة لا ترحم أحداً وأغلبهم بدون خيم. تجدهم في الصباح وجوههم وملابسهم تقطر بالندى وفي الفرص يهجمون على أعمدة الكهرباء الخشبية يهشمونها إرباً إرباً كي يتدفأوا على نارها ويخوضون المجابهات مع الجندرمة من أجل هذا، وذات مرة اضطر أحد الناس أن ينهب كونيه اعتيادية بصيغة السرقة لكي يضعها على أطفاله لكنه من أجل ذلك ألقي في السجن. أما الأكل فهو الآخر بالضد من متطلبات الجسم وحاجاته، وهي في أفضل الأحوال وأسوئها تتكون من صمون زائد حلاوة وأحياناً قليلاً من اللبن غير المتماسك. في ١٩٨٨/١٠/٥ حصلت مظاهرة ضد وجهة التسليم التي بدأت بأعداد قليلة فازداد الضغط التركي كي تطول الأعداد الأكبر وتدخلت السلطات التركية لقمع التظاهرة وفي ١٩٨٨/١٠/٦ عقد اجتماع حضره قائمقام كفري مع رؤساء العشائر ورسمت خطة لنشاطهم اللاحق والترويج للعفو الزائف وحثهم على التسليم مجدداً لهم فرصة قصيرة لاعطاء الرأي النهائي بذلك، وعند رفضهم

سيجبرون على التسليم وتتزامن هذا مع شتى الضـــغوطات والإزعاجـــات تصاعدت صعوبات الجو، وفي حادثة واحدة ذات ليلة تسلل العديد مـــن لجماهير خارج السيم لسرقة الخطب وعندما عرفوا بذلك الجندرمة أطقلـــوا لرمادية عليهم ولم يتراجعوا بدوافع الحاجة الماسة وتعبيراً عن التحـــدي. إن نذه الفترة شهدت تصعيداً للصراعات العشائرية خاصة بـــين الدوســـكيين الريكانيين[١٩] وقد تركز التسليم من الريكانيينن أكثر من غيرهم.



مجمع كفري ذو الحياة اليومية القاسية

في يوم ربما هو الأصعب من كل الأيام في ١٧ أيلول ١٩٨٨ حيـــث نهض الناس صباحاً وإذا بالمخيم على غير عهده وجدناه مطوقـــاً بالعســـاكر لتركية المستنفرة ولم يسمحوا حتى للأطفال بالذهاب إلى المرافـــق الصـــحية

وأعلنت حالة منع التجول وتصاعد البكاء بين النساء والأطفال مما حدا بعضهم قضاء الحاجة على أنفسهم، في البداية قالوا عن إجراءاتهم هذه بسبب حصول سرقة للبطانيات ولكن تبين لاحقاً أن غرضهم الحقيقي البحث عن عناصر من جماعة البككة (حزب من أكراد تركيا) وفعلاً اعتقلوا امرأة بتهمة تعاطفها مع الحزب المذكور وزوجها هارب إلى إيران، في هذا اليوم أيضاً فرضوا على الجماهير الوقوف في العراء بشكل طوابير ويتفحصون من يجلب انتباههم فيأخذون من يقع اختيارهم عليه ليتعرض إلى أشكال التعذيب والإهانات حيث يضعون أذنهم على قلب الشخص لملاحظة سرعة نبضات قلبه فإن تصاعدت عزلوه جانباً وأخذوه إلى حيث يرومون.



يشدون الرحال للمخيمات الأخرى

عمت حالة من الفوضى والسلب وتجاوزوا على ممتلكات الجماهير من راديوات ومسجلات وأمور أخرى واشتدت حملات الاعتقال والإرهاب وكادت أن تحصل مظاهرة احتجاجية ومصادمات وبقي العديد في السجن أكثر من أسبوع حتى أطلقوا سراحهم، كانت السلطات التركية تحاول معرفة اتجاهات الجماهير السياسية، أما الأطفال فيموتون برداً وجوعاً خاصة في الليل، إذ لم يمر ليل واحد دون حالات عديدة من وفيات الأطفال إضافة إلى تدهور نوعية الغذاء وكميته إلى جانب انعدام أي مظهر للراحة صباح ١١/١٠/١٩٨٨ جاء رجال الأمن التركي المسمى (الميت) طالبين الذهاب إلى إيران ومن يرفض يسلمونه للعراق دون مناقشة، وفعلاً بدأوا يقطعون حبال الخيم لتقع على رؤوسهم، والكثيرين رفضوا أي من الاختيارين الذهاب إلى إيران أو التسليم للعراق، وتعرضوا للضرب والإهانات والتهديد بالتسليم الإجباري للعراق. وقد ناوروا بمسألة النقل إلى إيران بحجة عدم ملائمة الأوضاع على الحدود وجود قوات عراقية هناك، بدأوا يحملون العوائل في شاحنات مكشوفة أمام المطر الغزير المتواصل لعدة أيام بلياليها، وأخيراً أخذوا هذه العوائل إلى الحدود لكن إيران رفضت استلامهم فعادوا بهم بطريقة لا تمت للإنسانية بصلة فهم أمام موجة ثلجية عاصفة وجوع لعدة أيام، وتعامل وحقد كسيف، ورياح تخترق الجسم لتسطي على تفاصيله الداخلية وتربك نشاطه، وتواصل هبوط الثلج حتى أن عدداً من

الكبار ماتوا من البرد فكيف بالصغار وتعذيبهم الفريد؟! وما يسمى بالمستشفى هو للإعلام فقط، فليس له دور يذكر ولكن من يستطيع التصريح بذلك؟ وهي حقيقة قالها يوماً رجل بريء امتلأ قلبه مرارة وتحدث لصحفي عن عدم وجود المعالجة الفعلية، فأخذوه بظرف غامض إلى السجن وغاب أي شيء عنه ولكن حين عرف هذا الصحفي بهذا الأمر تدخل شخصياً في إطلاق سراحه. في البداية لم يكن مسموحاً لأحد بزيارة المدن القريبة ومن يجدونه هناك يجري اعتقاله مباشرة، في هذه الفترة أخذوا عدة آلاف إلى مجمع موش والعائدين من الحدود مع إيران أخذوهم إلى مجمع آخر، وفي ١٩٨٨/١١/١٢ قالوا من لم يذهب إلى إيران أو موش ننقله إلى سوريا وهكذا صعدوا العوائل ظهر الشاحنات ثانية وهي مغطاة بالثلوج التي ابتدأت موجتها الوفيرة منذ صباح ١٩٨٨/١١/١١ ولم تتحرك القافلة منذ الساعة الثامنة صباحاً حتى ساعات العصر الأخيرة وهم بحال لا يحسدون عليه ولا يوصف، في الطريق حصلت حالات عطل في أكثر من شاحنة فوزعوا ركابها على الشاحنات الأخرى والثلج لم يكف عن الهطول لحظة واحدة ولم تقوى العديد من الشاحنات على تسلق الجبل فبدأت محاولات الدفع وكانت واحدة من هذه الشاحنات قد تراجعت عن مواصلة الصعود وكادت أن تحصل لركابها كارثة لولا أن ١٢ رجلاً منهم تطوعوا للدفع لعلهم ينقذوا من فيها وعندما صعدت الجبل تركهم السائق في الثلج وتحرك

مسرعاً وكانوا يتعرضون للموت الجماعي كانوا في الطريق يواصلون السير بصعوبة حتى الصباح فوجدوا قرية قريبة ولجأوا إليها وهم في آخر النزعات، ومن هناك أرسلوهم إلى مدينة تبليس، وفي الجانب الثاني من نفس الجبل جاء النزول المحفوف بالمخاطر هو الآخر فالنزلة حادة وطبقات الثلج تأخذ بالعجلات رغماً عنها وحصلت عدة مصادمات فيما بين شاحنة وأخرى المئات تعرضوا للموت، أما منظرهم فهو مؤلم جداً وهم في مسيرة ثقيلة على الثلوج يتساقطون على الأرض والبكاء يتعالى وخارت قواهم البدنية ونزلت السيارات فارغة وبصعوبة بالغة، وصلوا مدينة تبليس لكن لم يسمحوا للجماهير بدخولها، كانت مواقف الجماهير التركية جيدة وتضامنية لكن السلطات لا تعلن عن ذلك ولا عن دوافعه، في بداية ليلة ١٩٨٨/١١/١٤ وصلت هذه الجماهير إلى مخيم ماردين ووجدوه أفضل بشكل عام مما كانوا في سفرهم الرهيبة ومغامراتها المشرفة على الموت الحقيقي لكنه بطيء.

# وجود تأثير القوى السياسية

## ما هي الأحزاب الرئيسية؟

منذ البداية كانت مع الجماهير أحزاب ممثلة بأنصارها وأعضائها وهيئاتها القيادية وبمستوى أقل من المركزية طبعاً وهي الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك) وهو الواجهة العلنية، أما حزبنا الشيوعي العراقي فقد دخل العمل السري تماماً وأعماله اليومية أخذت تجري خلف الكواليس إدراكاً لمخاطر العلنية التي كانت شبه سائدة في مناطق نشاط الأنصار، ثم هناك منظمة الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) وكان وجودهم بالأساس رمزياً وأحياناً يصرحون بكونهم ضيوف على (حدك) أما حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني (حشدك) فهو وجود مبالغ فيه حيث هناك هوة واسعة بين جسامة التسمية وبين الحجم الحقيقي له وجماهيره الفعلية وأحياناً تعرفه من خلال موقفه المتقاطع بخط يعارض (حدك) بكل شيء. ونمى شعور لدى ممثلي وقواعد الأحزاب الأخرى أن حدك قد استثمر علنيته ليطمس أدوارها خاصة في الخطوات المهمة كقضية اللقاء والتفاوض مع الوفد العراقي، وأسلوب التعامل مع السلطات التركية وكان القرار الحاسم هو في

قبضة أيديهم لوحدهم. أما السلطات التركية فهي تخشى وجود التنظيمات وتدفع أطراف معينة للتحذير من ذلك وينصحون بعدم جدوى وجود التنظيم حيثما وجدوا فرصةً لذلك ويبررون ذلك على أن الأحزاب التركية المعارضة للحكومة التركية بكل الأحزاب في المخيم عدا منظمة الحزب الشيوعي العراقي ودعتهم للتعاون والتشاور ولم تعلن عن قصدها بذلك.

لاحظنا خشية من نشاط الشيوعيين بل وتحوطاً منهم وتحجيم نشاطهم وهذا يجري في تعامل الأحزاب التي يجمعهم والشيوعيين إطار الحياة الواحدة لم يصرحوا بذلك، إذ هناك حالة امتعاض وعدم ارتياح من وجود شيوعي يترجم وأحياناً تجري التصريحات على أن الشيوعيين ضيوف وتترك الملاحظة بهذه الحدود وهي ملاحظة تعبر عن الشعور بالهيمنة وطموح أن تكون دائمة ولكن هذا جانب في باب الحساسيات والمشاحنات الضارة التي لم تكن غريبة عن تاريخ العلاقة السابقة، لكن الصحيح أيضاً أن تسهيلات كثيرة بأمورنا الخاصة تجري من قبل اللجنة القائدة للمجمع (الكوميتة) ولجنة الانضباط التي تقوم والكوميته بأعباء إدارة المخيم وتوفير مستلزماته بالتعامل مع الإدارة التركية وهناك حرص متبادل على صيانة وتوطيد التعاون بين كافة أطراف القوى الوطنية في هذا الظرف، لكن في عين الوقت امتازت فترة الحياة في مجمع ماردين بضعف التثقيف الموحد وضعف الأحزاب في دفاعها

عن بعضها البعض، ربما هذا انعكاس لإدارة ونشاط أجهزة الأمن التركي أو أنها هكذا تريد وتسعى لتعميقه.

باختصار تخلف الأحزاب عن مواكبة أوضاع الجماهير ومعالجة حاجاتها واستسلمت خانعة لمجريات الحياة كما هي كأمر واقع ولعل أبرز دور لعبته هذه الأحزاب هو في مواجهة مناورات النظام في التصدي لما يسمى بقرارات العفو المتتالية ومقاطعة الوفد العراقي وطرده من المخيم وروحية التفاهم اليومية الجيدة في أمور هامة كالتسامح إزاء مراجعات رفاقنا للمدن القريبة أكثر مما تسمح تعليمات الإدارة التركية إضافة لذلك هناك تبادل الأدبيات والأخبار والدعوات في المناسبات مثلاً مشاركة ممثلي كافة الأحزاب الوطنية في فقرات إحياء الحفل المكرس لعيد حزبنا الشيوعي العراقي الخامس والخمسون، والمساهمة في إحياء نوروز ويوم فاجعة حلبجة، إن كل الأحزاب عانت من هجمات الجماهير عليها وأحياناً يجري تأليب الجماهير ضد الأحزاب من خلال الطعن بعناصر كانت قيادية وتجري مهاجمة الحزبية برمتها على أنها وراء كل المصائب ومتاعب الجماهير وهذا التأليب تمارسه عناصره متورة وحاقدة ومرتدة في انتماءاتها الحزبية وربما حتى آخرين هزمتهم الأحداث فانجرفوا في هذه الموجة صوت التداعي، ولكن كحقيقة إن حالة الجماهير كانت مأساوية إلى أبعد الحدود ولذا لم تكن راضية عن حزب معين وهي تتذرع بحجة منطقية وصائبة في تذمرها الدائم، ماذا قدم لها أي من

الأحزاب؟ وهي تمضي أشهر عديدة من التعاسة؟ ماذا كان موقف الجماهير بشكل عام في مخيم ماردين؟ ضعيف أم قوي وإلى أي مدى ما بين الاثنين صائب أو متعرج وخائب؟ أسئلة كبيرة لكنها تفترض الإجابة المحددة الدقيقة المنصفة والأحداث لا تختزل بسهولة فهي أحداث تحركها عناصر داخلية كثيرة ومن مواقع متعددة ومتباينة الأهداف ومتقاسمة الأدوار سيما والتضليل واحداً من الأسلحة المعادية الفتاكة، فمن بين هذه الجماهير نفسها هناك من يطعنها في الصميم ويلقي بنتائج الأخطاء التي تقترف على الجماهير لوحدها ثمناً لتخلفها ووهن مواقفها وسلبية دورها في النضال السابق إلى غير ذلك من الاتهامات الباطلة، فهؤلاء أصحاب هذا الحديث يطرقون جانباً واحداً فقط هو ما على الجماهير من مهمات ويتجاهلون عن قصد ما للجماهير من حقوق ومصادرة دورها التاريخي.

إن المنصف للحق عليه تثبيت الحقائق في مذكراته في أن هذه الجماهير عانت منذ اليوم الأول للأحداث وهم لم يزالوا فوق الأراضي العراقية إشكال المتاعب وتلوعوا بأعز ما يملكون. فقد ذاقوا الضائقة المشددة في كل ساعة وتعرضوا للضغوط والحرب النفسية والتهديدات وعدم انجلاء المواقف لمجريات الأحداث بل التخلف عنها. عاشت التشتت وتمزقت أوصالاً، منهم من وجد نفسه على حين غرة ودون حيلة منه مطوقاً بحراب الفاشية وسمومها، ومن حالفه الحظ فوت عليهم الفرصة لتخطيه الحدود وهذه خطوة

جبارة لكنها محفوظة بمسببات الموت مزروعة بالعثرات، مهـــددة بـــالتردد والتوجس والخوف وامتحانات النفس العصيبة وأسلاك شائكة تحيط بهـــم، كانت متاعبهم على طول الخط تتعدى المجال التقليدي للتحمل، أكثر مـــن قضية تعب حد الإعياء وجوع ومخاوف فقط بل تجتاز هذا لتقترن بالشـــهداء وأمراض تغزوهم وهم في عقر دارهم لا ذنب اقترفوه سواء أنهـــم عرفـــوا العدو مبكراً ولاذوا جانباً عن قبضة سلاحه الغادر. إن الرعب يعيش معهـــم في كل الأوقات ولم يعرفوا طعم النشوة واستعادة الأنفاس، توالت علـــيهم ضربات النوائب متتالية لا تكف عنهم، هـــل هـــذه الجمـــاهير خاطئـــة في مناشداتها للعالم وانتقاداتها الصريحة للمواقف إزاء قضيتهم والحقيقة أيضاً رغم مرارتها أن الأحزاب عانت من سخط الناس عليها وأن أي من هذه الأحزاب لم يكن جديراً باستقطاب أوساط واسعة إلى صفوفها، هناك عراقيل كثيرة أمام هذا الطموح، وحتى حزبنا رغم سمعته التاريخية المرموقة بين الجماهير لكنه هـــو الآخر لا يمتلك حلولاً لقضاياها وإنقاذهم مما يعانون، فهو بالكاد يعالج أوضاع رفاقه وهذا شيء أثار امتعاض الجماهير وخيب آمالها والحديث الطويل عـــن المساعدات المالية من دول العالم لا يسنده تنفيذ عملي، ولهذا فقد نمت روحية نفعية بحتة وأصبح المال حديث الناس ومحرك تفكيرهم وليس مـــن مهمـــات أخرى واضحة المعالم لم تعد هناك ضوابط سارية المفعول ومتجسدة في الحيـــاة اليومية، إنما تحكمهم القيم الأخلاقية وحدها تقريباً.

هناك تحلل وضعف انضباط قد تفشى حتى بين الكوادر وكثرة الخروقات في وقت الحديث عن الماضي لا يسعف أحداً وحصارنا قاسي ومعقـــد للغايـــة وصار الكلام يخضع للزيادة والنقصان كل يطلق ما يروق له، فالمقاييس نسبية في تقلباتها وأحياناً تتدهور التقديرات وتنحدر العلاقة بين الإيجابي والســلبي، تنفصم عراها ليبدأ كل على هواه وربما يحلو له في التقييم أن الأحزاب كانــت في سبات إلى أجل غير مسمى وأن في مقدمة القضايا الهامــة الــتي عاشــتها الجماهير وتأثرت بها هي قضية قبولهم كلاجئين في أي بلد من العالم، هذه كانت قضيتهم الرئيسية وحديثهم الدائم طول الوقت وحتى في الأحلام يطـــاردون تفكيراً موحشاً بهذا القصد وعندما تجري عملية التسجيل على أي بلد كـــان تتقدم المواكب بإقبال واضح وتتدافع دون تريث ولا يسألون إلى أي الأماكن هذا التسجيل والسلطات التركية قد أدركت هذا الـــذي بقلـــب الجمـــاهير وتلاعبت بمشاعرها وهي تجيد أسلوب كهذا ووضعت برنامجاً متكاملاً لهـــذه القضية وتستخدم الدبلوماسية والمراوغة والتسويف والتنسيق الدقيق والخفي مع النظام الدكتاتوري العراقي المجرم. فقد كانت المناورات لا تكـــف أيامـــاً وتوالت قرارات العفو الكاذبة التي تتزامن وتنعكس بجملة مضايقات وضغوط وشراء عناصر رخيصة لتحريكها في الوقت المناسب، ومع كل هذا فالجماهير تتعامل مع المنطق وتركن لخبرتها التاريخية الطويلة وتضغط على نفســـها دون

رحمة تعزيزاً لإبائها، تحملها على الصمود والتماسك والوحدة تروج للأفكـــار التي تشد العزائم وتسفه مزاعم الفاشية الحقيرة.

تمضي الأيام بمضض ومرارة لتبديد واحدة من حيل النظام المفضوحة، إن الوفود الصحفية لا يغيبون في أكثر الأيام لكنهم لا يأتون بجديد ينفع، يبحثون عن أمور تخصهم كصحفيين لرفد تقاريرهم اللاحقة وفق ما يريدون ويسفهون أسئلة الجماهير الوجيهة كثيراً على قاعدة اسمع ولا تعطي مزيداً من الكـــلام، يموهون الإجابة الجادة حذرين من التفاصيل ولا يعطون مسكة فهم، يتاجرون بالتحقيقات على ما يبدو واسرفوا بأخذ المعلومات، لكن سؤال الناس لم يتغير بعي واحداً لكنه هام.. لماذا لا يجري قبولنا لاجئين؟ أين الموقف الدولي المتفهم لوضعنا الراهن؟ ماذا لنا بالتطمينات وسيل الوعود بالحلول الإيجابيـــة علـــى الورق فقط؟ لماذا الكلام لا يقترن بقيمة مادية ملموسة، أليس هذا مبعث يأسنا ومثار خشيتنا من أن تكون أوساطاً دولية واسعة متورطة بنشـــاطها لصـــالح الفاشية في بلادنا؟ أين الخطوات العملية للسلطات التركية باتجـــاه التعامـــل الإنساني وإنقاذ هذه الجماهير وتساوم وتناور على قضية عشرات الآلاف من البشر وقد ينتهي الأمر بالمتاجرة بهم كصفقة بهدف الربح أولاً وأخيراً. في هذه الأجواء ووسط حيزٍ واسع من الإشاعات وأفكار القلـــق والخيبـــة عاشـــت الجماهير المهجرة حيث التصريحات تجري والترويج لها دائم وعلى هامش منها يجري بناء التصورات وتعبئة الرأي العام على أن اهتماماً جدياً يبـــذل لمســـألة

اللجوء وسيتمخض هذا عن حلول جذرية قريباً وحتى ممثلي الأحزاب الكردستانية يكيلوا الوعود الفارغة جزافاً دون حساب والحصيلة ضعف الثقة بما يقال وفي هذا السياق يضيع الصحيح بسعر الإشاعة الملفقة. حتى تحولت نداءات التلفونات الطويلة والإيضاحات اللاحقة لها إلى نشاطات لا يرجى منها خيراً ولم تستلم الجماهير مما قيل عن وصول الملايين والقدرات الخارقة على توجيه أنظار العالم بأسره إلى حيث يعيش هؤلاء المعذبون.

والواقع أن الجماهير ساءت ظروفها وتعكرت أمزجتها حتى انغمسوا في أجواء الحزن البليغ فقد واجهوا الموت الحقيقي في غذائهم اليومي مع مادة الخبز، أما المساعدات التي تصلهم فهي لا تتعدى النصف دينار للفرد الواحد وهم في أمس الحاجة لها وتبرعات الحزب الشيوعي الألماني كانت متميزة ونموذجية وهي أفضل مساعدة عرفتها الجماهير وقت الحاجة والمثل يقول: (لقمة الجوع مشكورة) حيث كانت أربعة دنانير ونصف للفرد الواحد.

كانت بيوت كثيرة لا يمتلكون أي مبلغ مالي يذكر ولم تغادر بيوتهم أفرشة المرض فقد تفشت بينهم الأمراض إلى جانب بعض الخيوط التآمرية بهدف تسليمهم للعراق الغارق ببحر من نزيف الدم ولعل الأكثر تأثيراً في نفوسهم وعلى معنوياتهم هو نفاذ الكلمة الصادقة رغم بساطتها وتتخذ موقفاً متمرداً وأحياناً ترتكب حماقات بالضد من مصلحتها حين تقدم لاختيارات عصيبة بما فيها التسليم للفاشية نفسها عندما تعلن عن عفو يعرفونه ومصيدة مؤكدة،

فالثغرة هنا في هذا الموقع المحدد الأبعاد، إذن وعلى هذا الأساس من المعطيــات يستنتج أن موقف الجماهير ليس سلبياً كحصيلة نهائية وتخلفها تركــة قديمــة تتحملها طلائعها السياسية قبل غيرها والأفق المتقدم المستطلع بجلاء للأحداث مهمة قواها السياسية، وما عدا هذا ففي المنعطفات الحادة أن لا يغيب وميض التفاؤل وحركة الناس وليدة حاجاتهم اليومية البسيطة يجب لكلمة الحــق أن تقال بكاملها وبقوة، ولا شيء نزيه فوق إرادة الجماهير، والادعاء بتمثيلــها دوراً لا يفتعل، فهي لا ترحم من يطعنها من الخلف ولا تخــدعها الشــعارات المسموعة عشرات المرات والمشوهة، والأجدر بالكلمات الجوفاء المزقــة أن تقبر والي الأبد وينقطع النفس العليل القصير المتعب.

في فترة قصيرة نسبياً نشأ الحزب الإسلامي واتسعت نشاطاته بين المصلين وحتى بين بعض أنصار الأحزاب القومية الكردية واشتدت في فتــرة تصــاعد نشاطه خلافات مع حدك الذي أخذ ينافسه في التقرب من إيران إلى جانــب خلافات أخرى، ومن الإشاعات التي عانينا منــها بــين الجمــاهير هــي أن الشيوعيين يفاوضون السلطة في العراق فكانت هذه الأخبار تأتي من العناصر المشبوهة بهدف إثارة البلبلة أولاً ولتحريك الأجواء التي تفتقر للجديد أما من ناحية حزبنا فقد انتظمت صلتنا به وتوالت المكالمات التلفونية مــع القيــادة والمساعدات يجري توزيعها ولكن لم يخلو ذلك من العفوية والإرباك فقد تباينت

بين ماردين عنها في دياربكر لأسباب قيلت لكنها لم تخلق القناعة لدى رفاقنـــا والعوائل على السواء.

إن من يتوخى الدقة في الحديث عن وجود ونشاط الأحـــزاب يفـــاجئ القارئ غير المواكب للحياة هنا في ماردين ويقيناً إنها حياة استثنائية تســـودها الفوضى وانعدام البرامج وضعف التواصل مع قيادات الأحزاب وينقطع لحد كبير عن أخبار الوطن ويواجه الأسئلة الجادة بالصمت والمراوغـــة وأحيانـــاً الامتعاض، وإن وجدت بعض الأجوبة فهي واهنة ذليلة لا تختـــرق أحاســـيس المقابل وبعيدة عن وصول قناعاته وعندما تنفرد الجماهير بممثلـــي الأحـــزاب لوحدهم تنهال عليهم بسيل من العتاب والمداخلات والأسئلة المحرجة لترديـــه في مواقعها، والحزبيين عموماً يعولون على تدابير أحزابهم في الأمـــاكن الـــتي تتمتع فيها بالإمكانية على الحركة والاتصال والمعالجات ويحدوهم أملاً في هذا المجال ويزداد ارتباطهم أكثر ويشعرون بالوحشة تحت أجواء الغربة بعيداً مـــن أحزابهم والوطن، بعيداً عن عبق الكلمات واستقامة النوايـــا والمثـــابرة دون هوادة لتطويق أبعاد الجرح بشعور عالي وإرادة ثورية لا تنكفئ وغير مغشوشة وتقيس الزمن الضروري وتخلق منه فرصاً منقذة ومفاجئات إبداعية للأعـــداء والأصدقاء.

# حلم لم يتحقق في أوانه

في مخيم ماردين كان الليل مليئاً بالحركة، وزيارات وحملات التنظيف لكل ما تطوله الأيدي، يرتدون أجد ما يملكون، فغداً هو عيدهم، والمعارف لابد من تبادل التهاني معهم وتجديد العهد، كانت ولائمهم بسيطة، لعل أروعها جو البهجة التي لا تراها مصطنعة، فهم يكتمون الأحزان ويظهرون بالبشاشة كأنهم في حال ناشئ للتو، ففي العيد فرصة، وكفانا الهموم ليل نهار منذ الصباح الأطفال يملأون الساحات والشوارع ولا يتركون خيمة إلا وقفوا أمامها طالبين سهمهم من الحلوى، فهو تقليد قديم لم تقلل منه كل مناشدات الكبار، على أن الظروف غير مواتية لهم، قد يستغرب المرء هذه القابلية على صنع الأفراح، والكلمات الصادقة من الأعماق، كان نهار ١٩٨٩/٥/٥ أول أيام عيد الفطر وهناك من يستعد لرؤية هلاله إيذاناً باكتمال العدة، كأن ذلك وثيقة ببراءة الذمة، الحركة دائبة الزيارات متبادلة، وتقاليد الفرح رصيدهم الأصيل لا زالت قائمة لكنها تنازع الحياة، والأطفال تكلل نشاطهم اليومي الحثيث بمزيد من الحاجات وهدايا الأقارب المتواضعة، أما الكبار فأمانيهم أن يكون العيد حقيقياً، وعيدهم يريدونه

العودة للوطن، إلى حيث أرضهم وممتلكاتهم والحنين الدائم، عيونهم ترنوا إلى هناك وذاك هو عيدهم ومبعث آمالهم الكبيرة.

في هذا اليوم جاء خبر مصرع وزير الدفاع العراقي عدنان طلفاح، كانت هذه البشرى التي جاء بها العيد، خص جماهيرنا بها، استقبلوها بارتياح وأخذوا ينسجون عليها ما يريح البال، ويبحثون كل بوسائله عن ثغرات تفند ما قيل في الخبر الذي أذاعته بغداد لأكثر من مرة واعتبر بمثابة بشيرٍ لحدث آخر وشيك أوسع وأعمق، وأمانيهم أن لا يكون السبب كما قيل وتدبلج بل أن له امتدادات أخرى ربما تطول في مداها رأس الطاغية صدام، في هذه الأثناء من الفرحة وقبيل أن تستأذن الشمس برحيلها اليومي، انتشر الخبر سريعاً كالحريق في مهب الريح، طفل يركض حافياً محتقن الوجنتين وامرأة تؤشر بأيديها وهي مرتبكة عارية الصدر تغبطها الفرحة العارمة وانفعالات غريبة وتبتدئ نشاطها بالهلاهل لتذيع الخبر بصيغة لا أظن وقعاً آخر أبلغ منه، تصيح بصوت هو آخر ما تملك، تحرك يديها في الهواء وهي تنظر للسماء مطبقة العينين كمن يؤدي طقوساً دينية، شاحبة الوجه يختلط لديها مجرى الدموع وعرق الانفعال.. (مات صدام المجرم.. صدام مات.. صدام بصوت طويل) دقائق فقط حتى تحول هذا الموقع إلى وضع آخر تماماً يصعب وصفه، كأنه انتقل من هنا بقدرة قادر ليلتحم بالعراق ويختلط معاه دماً ولحم كي تصبح الفرحة واحدة، هكذا اندفع الآلاف أطفالاً وكباراً ورجالاً ونساءً إلى الساحة الواسعة منتداهم اليومي وبدأت الدبكات والتفت

القلوب عند نقطة واحدة، تجردوا من حزنهم وحلّ الفرح محله كـالثورة، كل يهتف بأسلوبه تعبيراً عن فرحه انتابته فهزتهم من الأعماق، ومن النسـاء من لاذت جانباً لوحدها لتبكي بحرارة كأنها فقدت بكرها، تناجي السـماء مخاطبة إياها بلغة رصينة لكنها جافة. أحقاً نعود للعراق؟ يا إلهي، إنه حلمنـا الكبير. كفانا عذاب وغربة والغربة مذلة كما يقال. ماذا جنينـا؟ كانـت دموع الأفراح لا تغادر حدقات العيون وتواصلت التجمعات حتى أواخر الليل والنداءات تبث فيهم الحماس وتعزز الفرحة على أن شيء بهذا المعـنى جاء من الداخل على صيغة شفرة مفادها: أن غيمة سوداء كانت في سمـاء العراق وألقت بحمولتها الهائلة لتشكل تياراً من السـيول قـذف في عبابـه رؤوساً أكبر بكثير من عدنان خير الله، وتفسيرهم واحد ويرفعهم إلى عنان السماء يجتث اليأس من نهايات أعماقهم.



البهجة الخاطفة

وهكذا باتوا على أمل الخبر اليقين ولكن مع تقدم الــزمن تبــددت الفرحة وجرى امتصاصها لتعود الأوضاع رتيبة كأنها حلماً جماعيــاً صــالته تركية ومشاهد عراقيين ممن أجادوا تحمل التعذيب وتأديــة الفرحــة في آن واحد، فرحة بل عاصفة ألمت بهم بمشاعرهم غزلتها فأزالت الخمول منــها، كل قد عبر عن سرور وتفاعل وبهجة، لقد تبينت بجلاء حالة كانت كامنة في صدر الآلاف من مضطهدي شعبنا هي المدى الحقيقي لحقدهم على صــدام ونظامه الدموي كم هو موغل في استباحة المقدسات.. كم هو مرفــوض.. جائر وإرهابي فليس من وسيلة أخرى سوى استئصاله وقبره في مزبلة التاريخ كي تكون كل الأحلام والتأملات والأماني حقائق وسروراً.



أحلام امرأة

# مشاهد يومية

لا يمكن الإلمام بتفاصيل الحياة مهما كانت المتابعة دقيقة و الرصد مباشر يصعب وصفها كما هي فهي حياة حافلة بالمواقف الحية الخيرة والمليئة بالصخب والمعاني. في اليوم الواحد تجد مئات الملاحظات المثيرة والحوادث التي ترغمك على التمعن فيها وترى بعينيك شدة التذمر والانفعالات ومن يريد توخي الأمانة والموضوعية لا بد أن ينقل فصولاً من حياتهم اليومية بقساوتها الفعلية فهي هكذا عصية لا تفتعل المرارة ومن يراها متعة عليه أن يجربها بنفسه. كل جانب من نشاطه ذو دلالة تستدعي الانتباه وهم يشتبكون مع المشقة ويطرقون كل حيلة لتذليلها ولنأخذ عينات تمس حياتهم اليومية وتتسم بقيم بشرية وعبرة عابرة.


صبايا ينقلن الماء دون كلل

غذائهم اليومي ذو نوعية موحدة أما الكميات فهي تتماشى مع الوجهة العامة الداعية للتقشف والخاضعة للميزانية المقننة بصرامة ويعتمد ذلك على ما يأتي في السوق ووجود اللهانة أو السلق فلا تجد بيتاً متحرراً من الإبــراخ (الدولمة) هذه الوليمة المحببة لدى النساء خاصة. وإن جاء اللحم الحكــومي فأنت أمام اختيارين لا أكثر أما كبة البرغل أو الكبة الحامض وعادةً يدعون له المقربين، أما الأيام الموبوءة وهي كثيرة فيلجئون للعدس عميلهم القديم أو البرغل فأحياناً الاثنين معاً أما الصمون رئيسياً وما عداه ثانوي وينتزعون لبه الداخلي لإعادة تصنيعه من جديد وفرض الاختلاط عليه مع عناصر أخــرى

(بطاطا معجون الطماطة البصل وبهارات وكرفس والبيض.. الخ) في الأوساط الشعبية خاصة بعد تعاطي الجريمة في محاولة تسميم المخيم بأسره على غفلة منه فإنه كما يقولون طعنه من الخلف لم تكن مرجوه من الصمون صاحبنا القديم وضربة الصاحب بالورد مؤذية.



أطفال المخيم ينقلون الأرزاق من مخازنها

أما الشطرنج فهي لعبة انتعشت في المخيم لكن رقعته تفصلت على ورقة الكارتون الاعتيادية والاته استخرجت من العجين المصنع ببراعة بعد أن ىتعرض إلى حمله شعواء وتفرقه عنصرية لئيمة أطاحت بنصفه وحولته إلى اللون الأسود ونصفه الأخرى قاوم بشرسة وبما اوتيّ من قوة فحافظ على بشرته الخارجية البيضاء وتسميات قوى الشطرنج شملتها حملة التغير هذه في غالبها وأصبحت آلة الملك تدعي الوالي(إشارة للمسؤول التركي الأول) والجنود بأسماء الجندرمة وهكذا. وأقداح الشاي تجاوزت تشكيلية الأواني

المستطرقة وتعددت المنشأ أيضاً فهي من أصل زجاجي وأخرى بلاستيكية ومعدنية وغيرها ويعززونها على الدوام من قناني (الكولا) بعد إجراءات جراحية تحويرية حسب أذواق العائلة، والضيوف لا يعترضون على هذه الابتكارات الإبداعية إنما يلاحظونها باهتمام لتجدها في اليوم الثاني قد عزتهم وهم نيام فالاختراعات لخدمة البشرية قبل كل شيء . أما طبلة نهايات السكائر هي كذلك من صنع محلي بالكامل وتتكون إما من قطعة خشبية انتزعت أحشائها الداخلية لتكون مجوفة أو أنها علبة معجون الطماطة لكنها فقدت نصف قامتها دون رغبة منها. وأمام كل بيت استحدثت مزرعة وهي كالتجربة الايضاحية لكن مساحتها في أفضل الأحوال لا تتجاوز الثلاثة أمتار مربعة وأحياناً أقل من المتر الواحد فيزرعونها بطريقة الزراعة الحديثة... قليل من البصل إلى جانبه حشد من الكرفس وشجرة واحدة من الطماطة وثانية من الباذنجان الأسود مؤطر بشتلات الذرة الصفراء المفضلة للمزرعة وإلى جانب عباد الشمس والأخير للدعاية فقط. يتقاسمون المياه بينهم فهذه المزرعة شاركتهم الماء لتعطي شيئاً أخضر وارتبطت معهم مصيرياً، هكذا لكي تعد بالعطاء لا بد لها أن تأخذ مقدماً.

عند بداية الصيف بدأت المساعي لتأمين مياه الشرب البارد نسبياً ومن خلال الحاجة توصلوا لاختراع جديد بفكرة يسيرة ومجانية وموحدة في إطارها العام فيحددون جزءً مناسباً على طرف من خيمتهم ويحفرون فيه دائرياً يتسع كلما تعمق أكثر ويسقف بعناية وتترك فيه فتحات لتأمين حركة الهواء الضرورية أما الطريق المؤدي لهذا الموقع فهو مدرج وينتهي داخل

الخيمة ويعلنون عن وجود ثلاجة ويفتتحونها بحضور كافة أفراد العائلة وبمباركة الجيران وهي ثلاجة بالفعل تحتوي كل الأشياء الهامة من الأرزاق وماء الشرب وحين يسطو عليها عدواً خارجي تسقط الخيمة غذائياً حين ذاك يفرض هذا العدو شروطه التفاوضية من موقع القوة وكثيراً ما يكون سطح الحفرة مستوياً بشكل مزرعة اضافية ربما للتمويه على ما في جوف الثلاجة ولإشاعة جواً بهيج مكللاً بالندى الصباحي.



الكل يشارك في العمل

أما التدفئة فهي بطريقة الصوبات المعدنية بكل أجزائها الملحقة وهي عملية وجيدة أما ذخيرتها فالحطب وقودها الوحيد الذي كان يجري توزيعه في فترات محددة وعلى أساس متساوي لكل الخيم باعتبار المهم في الأمر وجود الصوبه في كل بيت. يجري التوزيع للحطب خلال فترة زمنية أقل من الشهر وحصت البيت الواحد ٢٥٠ كيلو غرام مهما كانت ضخامتها أو

درجة جفافها وهي كمية لا تكفي بطبيعة الحال لهـذا يلجأون لأساليب السرقة والمصادرات وتحصل المشادات على قطعة الحطب الواحدة لكنها جيدة، وعندما تخفق كل المحاولات ينشط كل على حساب جيرانه، ومراجعاقم للحصول على الحطب لا تنقطع بحجة أن وتد الخيمة قد انكسر أو أن عمودها قصير وغير ذلك والمنظر الغريب عند الغروب حين تبدأ الآلاف صوبه مذخرة بالعتاد الحي تشتعل في وقت واحد في منطقة ضيقة ناهيك عن الرطوبة وتقلبات المناخ وتذبذب الهواء وتزامن زخات المطر الأكثر إزعاجاً وغيرها مما يعرقل الاشتعال فأعمدة الدخان تتداخل فيما بينها بشكل خطوط سوداء متعرجة وتتكاثف في قلب السماء كالغيمة المزعوجة وهي تحشد قواها لمهمة طارئة.

أما الخياطة فصارت مهنة أكثر انتشاراً من الأعمال الأخرى وكل الموديلات مقبولة وأغلب الخياطين من النساء لأن أجورهن زهيدة وعلى القطعة ويتواصل العمل ليل نهار لتكون الفائدة مضاعفة على حساب الصحة والراحة البدنية أنه عمل مضني للغاية في ظروف قاسية للغاية أيضاً والحلاقة فهي لا تشكل مهنة بمعنى الكلمة يعول عليها، إنما وفق مبدأ أخدم نفسك بنفسك، أي أنهم يتبادلون حلاقة أحدهم للآخر أينما وجدوا الفرصة سانحة في ساحة القدم أمام المئات أم في حمامهم المحشور في طرف من بيتهم المتداعي وأحياناً في الهواء الطلق يحيطهم العشرات من المتفرجين وتعليقاتهم وحين

يأخذهم الواهس تتمخض حملة الحلاقة هذه عن اكتساح شامل لكل منا بت الشعر أينما حلت.



مجموعة من الأطفال تراقب الألعاب الرياضية

في بداية الحياة في مخيم ماردين كانت العوائل تنام الليل معانقة الأرض وجهاً لوجه تفصل بينهما بطانية جرداء واحدة اتقاءاً لـبلاء الأرض وزرع الأمراض كانت أمنيتهم الحصول على (الدواشك) مهما كـان لونها أو مساحتها ومحتوياتها وسمكها حتى جاء دورهم لذلك وحصلوا بمعدل للأربعة واحد وقد صارت معظم مساحة بيتهم الصغيرة أصلاً عند أعـدادها للنـوم يدخلونها من الباب مباشرة، يتسلقون فراشهم الجديد كأنهم يعتلون كديسـاً

من الخنطة أو أن أحدهم يسبح فوق بيدر من التبن، وعند النوم تبدأ الفقــرة الطريفة حين يشتد النقاش حول اتجاه الأرجل ومــواطئ الــرؤوس الــذين يريدون له اتجاه يؤمن حيزاً يتقلبون فيه وأخيراً يحمسون الأمر على أساس أن كل له كامل الحرية في الحركة والمهم عدم تجاوز الحدود والخروج عن الإطار العام لفراشهم الموحد. فأيام فقط حتى طالت عمليات التغير هذه الدواشك أيضاً فتحررت من أمعائها الدقيقة(السبرنك) الذي بانت عيوبه وإشــكالاته للبدن.

وواحدة من حوادث الكهرباء أودت بحياة الشابة سهام رشيد بيــدهي وهي على أبواب زفافها وذلك في ١٩٨٩/٦/١٧ وهي الشهيدة الأولى من جراء الكهرباء التي لن يعتادها الناس القادمين من القــرى مباشــرة فهــم يتعاملون معها ببساطة ولا يعرفون إشكالاتها وكأنها حبال سائفة ويغــامرون بذلك. وعلى الرغم من صعوبة الحياة وتوتر العلاقــات وتنــامي المفــاهيم العشائرية وإثارة الصراعات القديمة المتراكمة والمقيتة ناهيك عن اشــكالات نجمت عن الاحتكاك والحزازات اليومية المباشرة كل هذه الأمــور هيجتــها الويلات والمآسي.. لكن على الرغم من كل هذا الواقع المرير فالصــراعات الفعلية قليلة كحصيلة ولعل أبرزها حادثة نشبت بين أهل قرية أورى نفسها التي بدأت بأسباب بسيطة وتطورت حتى أسفرت عن قتيل والعديــد مــن الجرحى وتدخلت مساعي جادة فأوقف الحادث عند حده وعالجوه آنياً على

الأقل. والحادثة الثانية بين قريتي رافينه والكيشكى بروراري كان المسبب لها خلاف في فريق القدم وامتد وتعقد بعد أيام وتدخلت القريتين بكامل قواهما في مواجهة حامية بينهما استمرت اكثر من ساعة وأسفرت عن العديد من القتلى والجرحى وجروح بعضهم خطيرة، كانت أحداث مؤسفة أثارت استياء الرأي العام في المخيم بعد أشهر من الحياة نمت بين الشباب خاصة ظاهرة الإقبال على تعلم اللغات واستذكار الكلمات الضرورية واللاتينية ولكن الغريب في الأمر أن أحداً لا يتعلم اللغات التركية رغم أننا على أرضهم من جانب آخر نشطت كذلك المبادرات في تدريس الشباب حتى الأطفال واتسعت هذه الظاهرة الإيجابية وأثمرت بفائدة كبيرة منذ الأيام الأولى لكنها تفتقر للبرمجة والمناهج المناسبة لكل الأعمار والمستويات في مختلف المراحل وظهرت ضرورة المتابعة لهذا الجانب من قبل الأطراف السياسية باعتبارها قضية تعينهم في الضغط على السلطة التركية لتذليل المعوقات وتوفير الدعم. بين الشباب تجد المولعين بمتابعة الرسائل الواردة بالمئات يومياً والمكالمات التليفونية، يقتلون معظم وقتهم متطوعين للمرابطة عند دائرة البريد يسمعون أحاديث هذا وذاك في الهاتف وحواراتهم الطريفة ويوثقون بعضها في ذاكرتهم وعلى حصيلتها يعدون نشرة أخبار يومية محلية منتظرة وأحياناً تحليل أخباري يذاع مساءً كل في حارته وبين أصحابه، وعندما تشاء الصدفة وتصلهم رسالة منتفخة قليلاً لا يأتي بباهم غير النقود

فهم الحق معهم في زمن العازه. إذن جهادهم مبرر وتطلعهم لثقوب فيها وهم لا يكفون عن ذلك حتى يأتي صاحب الرسالة الشرعي من بين الجماهير ملهوفاً بها أيضاً وينتزعها بقوة ولا يفتحها إلا في بيته ليجدها مسبحة طويلة أو ما يماثله في القيمة حيثما وجدت الجماهير وجد معهم منتفعين فحتى في هذه الحياة هناك من يمارس السمسرة ومتابعة حركة السوق ويحدد نقاط معينة لتحركاته وعناصر يرتبط بها وتتعامل بهدف الفائدة وهو على اتصال دائم بتقلبات الدولار مقارنة بالعملة التركية ويتاجر بالذهب خاصة من العوائل الفقيرة التي يعد بحوزتها سوى ملكية عروستهم الجديدة فيلجأون لها طالبين النجدة في اشتداد ضائقتهم الاقتصادية. أما تجار السوق السوداء قاتلهم الله كم هم جشعين كعهدهم لا يفكرون بغير الربح ولو درهم واحد ولا يسألون عن الجديد في الوضع السياسي ولا المدى الذين بلغته مباحثات الجبهة الوطنية العريضة، مصلحتهم مرتبطة بظروف كهذا وحلمهم للمبالغ أن تتضاعف ومعارفهم يزدادون وبذلك فقط تنمو ثروتهم ويتعزز واردهم وهي معادلة على الدوام نصب أعينهم.

والعوائل الفقيرة وهي الأكثرية الساحقة فهم من أفعال هؤلاء براء ، يتعاملون بحسن النوايا ونقاء القلوب وطيبين أسرارهم واحدة، لا يخفون شيئاً عن عوائلهم ولايردون طلباً لصغيراً منهم أو مريضاً يرقد في فراشه، وتدقيقهم للصرفيات بصراحة وبمشاركة العائلة بكامل قواها، يدارسون

الشؤون المالية وأبواب الصرف صارمين إزاء التبذير المحرم وفي الحصيلة تقرأ فقرات عن النشاط المالي، عن الوارد والصرف تستحسن وجهة تعزيز المدور تحسباً للطوارئ مع جملة معالجتها يجري إقرارها عائلياً بالأكثرية أو الإجماع لتتضمنها البرامج اللاحقة

وهناك بعض المواد الغذائية تفرض نفسها على المائدة الفقيرة لترفع من هيبتها وهذه المادة وحدها تجذبهم من بعيد مهما كان سعرها باهظاً، فطابور انتظار الطرشي يمتد مئات الأمتار وكلما اقتربوا أكثر طافت أفواههم باللعاب لتستقطبهم أكثر في الاندفاع والتزاحم، وهي الممارسة الوحيدة التي تدخل في الميزانية العامة المقررة خلل ولا تجد من يعترض على هذا الخرق، فالطرشي يستطيع تمرير مشاريعه كما يروق له مستفيداً من درجة النفوس ازاء الرغبات المغرية. أما عملية توزيع الأرزاق فهي تجري بمقتضى التعليمات المحددة بفترة زمنية ثابتة على الأكثر فهي مثلاً من اللحم كيلو غرام واحد لكل ٦ نفوس، ومن الصابون قالبين للواحد من البشر، ومن الرز كيلو ونصف للفرد شهرياً وثلث صمونة في كل وجبة عدا العشاء فله نصف صمونة لسد الرمق وهي مقادير كلفية. وهكذا مع المواد الأخرى من العدس والبرغل والدهن والحمص والفاصوليا والبطاطا وغيرها.

أما حالة الفضول فهي واسعة ومزعجة حقاً، ما أن تعمل شيئاً يذكر حتى قابلوك بالأسئلة كأنك تصنع قمراً صناعياً وإن تجاهلهم بعدم الاكتراث

بهم جاءتك موجه من الأسئلة لا تقبل التملص... ماذا تعمل؟ وهـــذا لمـــاذا؟ ومن قال لك هذا العمل صحيح؟ وإن لم يجدوا ما يستحق التعليق خـــزروك بنظرة كأنك من عناصر العمل السري... ماذا قالت إذاعة لندن يوم أمـــس عن قضيتنا؟ وما هو مصيرنا حسب رأيك؟ لماذا لم تحلق وجهك؟ وكم مضى على توزيع الأرزاق؟ ما هذا الدواء وكيفية استخدامه؟ وهم يعرفون أغلـــب الأجوبة على أسئلتهم لكنهم يلاحقونك بها لغايات في نفوسهم أما حركـــة الزوابع فهي لا تكف ساعة واحدة خاصة عند الظهيرة عندما تكون الحرارة على أشدها حيث كل واحد يتمدد ليهدأ من صخب الحياة وغضبها وتـــوتر الأعصاب وإذا بموجة هوائية مارقة بمقدار ما هي عنيفة كأنها مرسلة خصيصاً لهذا الخط دون غيره من مخيم ماردين المحظوظ بها ويحمل هذا التيار الهـــوائي بجعبته كل ما صادفه في طريقه من حشائش الأرض وأتربتها ومما طالت يده. إن الشدة التي تأتي بها هذه الزوبعة لا تكف عن الخيمة رغم المقاومة الباسلة لا وتادها والأعمدة حتى تقلع بعضها وتكسر الأخرى أو أن يحدث شـــرخاً كما تشاء في جسد الخيمة المعذبة. حينذاك تنسحب بسرعة فائقـــة حاملـــة غنائمها الوفيرة من أواني وملابس وغيرها بعد أن تضـــيف لغـــذاء الـــبعض شوائب لا تحصي وحتى الأطفال تكاد تجذبهم مغريات المشـــهد الأول علـــى وهله لكنها لا تستفيد منهم وتطرحهم أرضاً قبل رحيلها وترفسهم بقـــدميها وتمضي مسرعة.

وأخطر ما في الأمر وجود الطباخ الغازي الذي يتوتر تزامناً مع مـــرور الزوبعة كأنه رديفاً لها أو أنه بمستواها من الزخم متناسباً أنه يتباين معهـــا في القدرة على الحركة وأجنحة قصيرة لا تأخذ به بعيداً عن متنـــاول أصـــحابه القداما فهم يلعنونه لهذا التذبذب والغدر عند المنعطفات.



اثناء اخلاء السجون قبل التوزيع

# تخيلات عباقرة

لم تفلح الحياة بكل ما تريد، فالمجانين في المخيم هم نفسهم القدامى وإن كانوا ليسوا قلة، بل يشكلون قائمة طويلة لا تقل عن ملاك فصيل، ولم يتحقق كسب جديد في هذا الميدان. هؤلاء الوجوه المتجعدة والعيون الغائرة ذات الخزرات المخيفة، لكن وراء هؤلاء الأسماء المألوفة في مخيم ماردين تكمن مواهب تميزهم عن الآخرين من بني البشر بل وتميز أحدهم عن الآخر أيضاً... هؤلاء معشر المجانين درجاتهم في الرشد متباينة وعبثهم يتناسب وقوة الصدمة التي ألمت بكل منهم وفي أي المراحل غزتهم اللوثة الجنونية، كل له طبائعه وتعليقاته ونمط حياته اليومي، فصالح يختلف عن رشيد وكل منهم يتباين مع سالم هروري وعبيد، أما علي طه كيستي هكذا ولد وهو عبقري، نعم لهم حضورهم الواسع المميز في المخيم، هؤلاء اكتوت جوارحهم يوماً بمصائب الحياة وصدماتها التي شاب في ظلها الرضيع. إن محمد ماني وضعه الشخصي (ملطلط) لكن صوته شجي رغم الكلمات الركيكة التي يرددها باليوم عشرات المرات مثل أغنيته الشهيرة (شاهينو) أما صالح فهو يجيد قراءة القرآن والآخرين جلهم يتعاطون الكيف ويجيدون الرقص في المناسبات

وتستهويهم أحاديث النساء وإطراء المرأة يزعزع تلاتيف عقدهم النفسية المتحجرة وتفرزن من جديد تشابكاتها وتعيد لها وضعها الطبيعي. وربما وراء قصصهم أفعال نساء.



العبقري رشيد في حالة الاستعداد

والعجيب في الأمر كثرة ما يحملون من صور متداخلة وأحياناً مشوشة ومضطربة من العالم والأنظمة الاجتماعية ومظاهر الحضارة. كل شيء في سلوكهم وارد، منهم من يدعي الثورية ولكنه يخشى متاعبها، وربما عشقهم لها تصوراً خيالياً أراد من خلالها تتحقق نزعة التمرد الراسخة عندهم وتحدي الصعاب المتأصلة في نفوسهم وأمزجتهم العامة، حين تسأل أحدهم تظنه خرفاً للغاية عن سبب كون أغلب المجانين من الرجال فقط ينتشي بمثل هذه الفرصة للتعريف بعالمهم الفسيح يقول دون توقف (أزبني) النساء عقلهن قليل أصلاً وتفكيرهن بهموم الحياة شكلي وطفيف ويستطرد كأنه يخطب

لجموع منتفضة. والجنون مهنة نادرة يمتلكها العباقرة دون غيرهم وخيالهم مرتع خصب. والمثل يقول: خذ الحكمة من رؤوس المجانين... ليتك كنت يوماً مجنوناً لعرفت القيمة الحقيقية لهذه الخصيلة وكلما كانت درجاتها (طوخ) أكثر اختلت صورة الحياة التي نشكوها وننفر منها، يتبدد بؤسها بقدرة قادر لتكون أرحب.. كيف لا وأنت تحلق في عالم المجانين اللامتناهي. يمتدحون سلمان رشدي وآياته الشيطانية وينسبونه على قواهم الفعلية. فالمجانين من جذور الشياطين هل كنت تعرف هذا قبل الآن؟ ولا ندري من أين لهم هذه المعلومات عن القمر فهم يبسطون عملية الصعود إليه مثل (الزلاطة) حتى التمرغ في ترابه، وهم يغتنمون فرص إحاطة الناس بهم ليعمموا أفكارهم تتحول مجالسهم إلى مجال مفتوح لأي قضية بين السماء والأرض، عباراتهم دائماً تأخذ صيغة الأسئلة مثلاً عجيباً أن يتسامح الباري عز وجل مع جرائم صدام؟ أتراه قد انزلقت قدميه ليكون في ركب الفاشية المقيت؟ يتوعدون بالانتقام ويجملون كل الخصوم بقائمة موحدة ولكن لا يعطون كل الأسماء المعادية لهم وتتناهم حمى الجنون ذات النشاط المتطرف عندما يلعنون ناظم كزاز ورشيد مصلح وأبو صدام وأمه وعلى غفلة منهم يتسلل اسم عبد الكريم قاسم.


صالح آفدل يديه لا تغادر جيوبه

وهم لا يفرقون طبعاً بين الثورات تموز إن كـــان تاريخها ١٤ أو ١٧ منه، ويلقون باللائمة على العرب دون هويتهم الأخرى أو أي من الطبقات وراء ذلك، ما أن يلاحظون المحيطين لهم يجدون بعضهم من العـــرب وهـــم ليسوا أعداء لهم يستدركون بسرعة وبلباقة لبقة يمتاز بها العباقرة قبل غيرهم كما قالوا عن أنفسهم يقولون: ولو الآن تجمعنا هـــذه الأســـلاك الشـــائكة القذرة وتغزونا الرياح مهما كانت درجة حرارتها أو حمولتها من التـــراب. وتعرفون أيضاً أن السموم المختفية في الصمون لم تفرق بيننا بل حملت حقدها

وهددتنا بالموت الجماعي ولم تسأل من أي القوميات نكـــون. إذن خنــدقنا واحد ومصيرنا مشترك ولا تنسوا أننا عباقرة ولا تؤاخذوننا علـــى كلمـــة نقولها. وهنا يأخذ مسار حديثهم بعداً حثيثاً في الإقناع على طريق المساهمات الجادة لجنون حقيقي يتقمص العبقرية.. ترى ماذا حل بنا؟ هل وقعنا أســـرى رياح المجانين؟ وتحدياهم في مواجهة إجراءات النظام العراقي وقرارات عفوه؟ هؤلاء هم أول من يضع خطة ملموسة لمواجهة مناورات النظام وهم الأكثر حصانة إزاءها. وكأنهم المعنيين أكثر من غيرهـــم بتعبئـــة الآراء والمواقـــف وتصلبها بعيداً عن الاستجابة لطموحات الفاشية وتطلعاتها اللاحقة. وأخـــيراً عجباً إن حركة العباقرة هذه عانت من الانحسار بهذه الدرجة وكل المناخات مساعدة على نموها؟ أخشى أن يكون هذا هدوء يسبق العاصفة ويفاجؤنا في مخيم ماردين وصعوباته بموجة جديدة تختلف نوعياً في علومهـــا ومواهبـــها، وهذا ما يخيفنا كثيراً فهو احتمال قد يلد قبل أجله لكننا على كـــل حـــال نطرق باباً ويحدونا أملاً.. نلتمس الزمن.. نرجوه مخلصين.. أن رفقاً بعامـــة الناس من كبرياء العباقرة وما عدا هذا فإن كل شيء يهون.

# بيئة موبوءة

بعد أن فقدوا أجواء كردستان وهوائها النقي والحركة اليومية التي كانت تمدهم بالنشاط وتعزز فيهم خزين المناعة الطبيعية وعلى غفلة من الزمن جاءت بهم الظروف التعيسة لتلقي بهم في مهب الريح تحت رحمة الصحراء الملبدة بالتراب. فقد تحول المناخ العليل الذي اعتادوه وترعرعوا في أحضانه في السنوات الخوالي وتحول إلى بقعة محددة بالكاد ببضعة أمتار ومفروض عليهم التكييف معها وهي تحمل من الحرارة ما لا تطاق كأنها مرجل حديدي ساخن على الدوام. وفي ظروف كهذه ساءت أوضاعهم الصحية وأفظع الأمراض حطت عندهم ولم ترحل، هكذا فقد تغيرت طبيعة الحياة برمتها، تواطأت أمام هجمة مسببات الأمراض حتى تفشت لتنهك عوائل بكاملها وبهذا فقد كثفت من وتيرة الوفيات حتى وصلت في بعض الأيام خمسة عشرة حالة مما تطلب إنشاء مقبرة خاصة بالمهجرين وتنامت بسرعة مذهلة ودون تخطيط، وتدهورت معالم الصحة العامة وتكاثر داء التيفوئيد الخطير والملاريا التي تبث الوهن في أجهزة الجسم الحساسة، هذا إلى جانب الأمراض التقليدية الشائعة بالأساس والتي تنتعش عادة بتردي التغذية

وتستشرس مع شدة البرد وفساد الهواء والأعداد الهائلة من الذباب ونواياه الشريرة.

في الليل حين تكتمل ذخيرة الصوبات بالحطب اليابس وتسدل أجنحة الخيمة بإحكام حتى تلغي كل النوافذ حتى تبلغ درجة الحرارة درجتها القصوى ويعانون مضايقات الأغطية المزعجة على أن البرد أحبط دون عودة، ينامون بأمان من غدر أواخر الليل الساعات الزاخرة بسبرة الفجر التي تمض في الجسم حتى عظامه، ففي الكانونين وشباط من بعدهما هي فترة الأمراض الشديدة حتى تكاد تنضب كل الأدوية والمؤسسات الصحية تعلن تعذر إجراء الفحوصات اللازمة وتأمين المضادات الضرورية ولم يعد للأطباء اهتمام بالحالات المرضية ويصرحون بذلك علناً، والناس عادة لاسيما العراقيين موضع حديثنا لا يثقون بالمسكنات ويتوسلون للابرة الطويلة المختلفة المحتويات حيث عندما تكون سوداء يعرفونها تمدهم بالقوة وتعزز منسوب أجسادهم الخاوية المترهلة بالسوائل القانية مبعث الحياة أما الدوام في المستشفى فهو زمن يتعرض للتبذير والإسراف وفرص العمل الفعلي لا تتعدى بضع ساعات يجري اختزالها على جانبي النهار وفرز قوائم المراجعة عليها فساعات الصباح هي سهم النساء المكبلات بالأثقال البيتية وتفادياً لمتاعب مقتبل الليل.


عينة من أطفال المخيم

والرجال هم المؤهلين لما تبقى من الوقت أنه تقسيم منطقي لا اعترض عليه بشكل عام ولكن المصيبة هي ليست بين الرجال والنساء كما تسول للبعض ألسنتهم، فالاثنين مشكلتهم واحدة إنما المشكلة هي وقت المعالجة وأسلوبها والجدية بذلك ووجود الكادر الطبي وتردي الأوضاع المناخية وغيرها من العوامل المعرقلة تتظاهر جميعها لمضاعفة المصائب وحتى الأدوية

ذات الأسماء الضخمة فإن مفعولها قليل كأنها عديمة الفائدة والتضليل هو الآخر يتغلب للأسف على مفاهيم الإرشاد الصحي العصري، حيث تعطى المادة العلاجية عشوائياً لا يراعي عددها ولا كيفية التقيد بأوقاتها الموزعة على الزمن المحدد بوصايا الطبيب بل الأكثر دقة أن نقول أن الطبيب الجاد الأهل هو العملة النادرة والدخلاء على هذه المهنة الحساسة هم ذوي اليد الطويلة. أما المادة الطبية المفيدة فهي لا تمكث طويلاً بأماكنها تحت أيدي الأطباء بلل تجدها قد توزعت بطريقة عجيبة في جيوب المراجعين لتنقل على جناح السرعة دون تأخير لتسجن على مقربة من المريض تستبيحه العذر فهي وقعت بأيدي جاهلة لا تريد للأمراض أن تردي قتيلة وإن زعمت العداء لمسبباتها ولها فإجراءاتهم تضيع هباءاً وتحديهم للأمراض محض كلام مجرد ولذا فأمراضنا لا ترحل بل تفتك بما طالت يدها.

والتلقيحات ضد الأمراض وإن كانت تجري بين الفترة والأخرى كالحصبة والتلقيح الثلاثي والرباعي وفحص الدم للتحري عن مسببات المرض لكن هذا لا يأتي بفائدة تذكر العاملين يسهرون على تحقيق الأرقام الإحصائية المبالغ فيها للمعالجات أكثر من حرصهم الفعلي على ملازمة حالة خطيرة ليكتبوا لها الشفاء الناجح وأحياناً ترسل الحالات العسيرة مباشرة إلى ماردين لكن العناية هناك هي الأخرى سيئة والأجدى للمريض المكوث في

بيته ضماناً للدفء والراحة الضرورية على الأقل بين ذويه وعطفهم لا يعوض.

وحتى سيارات الإسعاف التي ينبغي لها إنقاذ المواقف الحرجة وخدمة الإصابات الطارئة لكنها للأسف تحولت إلى واسطة لنقل الأرزاق بحجة المرض والمريض الحقيقي صار هو الضحية.



يعيشون وسط مسببات الأوبئة

تجد بسيارة الإسعاف أشياء لا تحصى بينها لعب أطفال والسماق والثوم الذي رائحته أسوأ أوصافه والمريض الذي أحياناً يشرف على الموت تراه ينحشر في زاوية ميتة يمني النفس أن يجيد التمارض فهي مهنة مطلوبة في زمن الممنوعات عندما ضاعت مقاييس الحقائق الخالصة. في هذه الفترة شاعت

العلل وأمراض المفاصل والعظام عموماً وهاجت أمراض قرحة المعدة وأخرى غيرها كأنها جاءت مرسلة خصيصاً للمهجرين وهم في عقر دارهم.

وأعراض أغلبها تمتاز بالحرارة المتطرفة الغزيرة والتعرق أواسط الليل وقمة زمهرير الشتاء مع زخات المطر التي في بعض مفاجئاتها تكتسح الآمنين، تحتويهم وهم نياماً ثم تعتذر لاحقاً على أنها حمى الطبيعة الهوجاء ولا حيلة بيدها إنما صبراً أزاء نوباتها العابرة. ولقب الطبيب تدنى كثيراً وأخذت كلمة الطبيب تعطي جزافاً وبمجرد معرفة زرق الأبر وإعطاء المسكنات يتوج باللقب الرفيع وعبارات التمجيد وبهذه الطريقة تلاشت الفوارق بين من تخرج من مراحل عليا عمن كان يوماً سائق إسعاف أو فرّاش في مستوصف قروي ولهذا وعبر هذه الطريقة المتعثرة تطور قليلاً الوعي الصحي وانبعثت بوادر جديدة للمدنية كغسل الأسنان بما ينظفها والاستحمام المنتظم وجدوى وجود الصابون والليفة معاً وتبديل الملابس الداخلية كلها ممارسات وليدة هذه الحياة وعرفوا خطورة التسمم والمدى العميق للحرب النفسية وأهمية التعقيم للمياه الراكدة وعلاقة فعل الذباب بتهديدات أمن البشرية وماذا تعني ضربة الحر والبرودة وجدوى إطفاء الحريق دون اللجوء للمياه مباشرة وحرضتهم الظروف ضد وباء التدخين المدمر فحاربوا السكاير من تلقاء أنفسهم عندما تردى نوعها وساء طعمها وامتصت رصيدهم الزهيد دون رحمة، وأدركوا معنى أن تكون الأدوية مجانية وموثوق بها، ودلالة انتزاع

غلافها الخارجي المحدد لمنشأها الأصلي عندما يزيلون من عليها عبارة الهلال الأحمر هكذا يجتث بترا أمام الأنظار لتختفي آثار العبارة نهائياً تاركين الموقع دون تضميد لجرحة النازف والذي أحدثوه بأيديهم مع سبق الإصرار إذ هناك طاقم من الممرضات بمنتهى النـزاكة وبالزي الجذاب الأنيق كما تحمل قبضات المقص بقوة وهي طيبة الخاطر متحاشية لفت انتباه الآخرين لمثل هذه المهنة وتقدمها في سياق حركات أخرى إذ لا تمهل العلك متسعاً من الوقت ليسترد أنفاسه بعيداً عن ضربات الأسنان المتقابلة وفي عين الوقت توزع النظرات مجاناً للنقاط المتفق عليها وتضحك مع هذا وتطلب من الآخر سيكارة وتتحرك وتتبختر بافتعال ربما تمهيداً لإجراء المقارنة بين سيقانها الممتلئة المتناسقة مع امرأة المجمع المريضة التي لا تطيق الوقوف على قدميها الجرداء إلا مكابرة، ففي حالة كهذه تختصر المقارنة الواردة في باب المظاهر فقد إن استفزازاً كهذا يثير الكثيرات خاصةً والمرأة بشكل عام حساسة وغيورة ورهيفة المشاعر فكيف والأمر يتعلق بممرضة متمكيجة بإسراف أولاً وهي نستلة بالأساس ثانياً؟ صدقاً إن المقارنة بهذه الظروف غير متكافئة وغير واردة بمواقع كثيرة إن الممرضات التركيات في مخيم ماردين بشكل خاص والعهدة على شاهد العيان وربما هذه عينة لا تصلح للقياس اهتمامهن الأول هو الرونق الظاهري على حساب الجوهر الإنساني، ترى هل فقدن ما قيل يوماً بوصفهم بملائكة الرحمة؟ بهذه السهولة تجردن من هذا اللقب الرفيع

المشرف؟ لكن هل هذا تقصيرهن لوحدهن؟ يتعزز تراكم الحمرة لأغلب مواقع الوجه ليكون داكناً على امتداد الشفاه، وتعرض الشعر الطري لسحابة سخية من العطر العصري حتى درجة الإشباع، من يدري أي المناظر الأكثر في تلك المشاعر التي لم تترك بقعة من نواحي جسمها دون أن تطولها العناية والتجميل أما الفقيرات بالآلاف يتدافعن منذ الصباح الباكر توسلاً بهذا وذاك للحصول على جرعة لعلها تنقذ من فرص الموت المحدقة في كل لحظة أن مرور واحدة ممن قيل عنها ملكة الرحمة هي فرصة ذهبية يتمناها حتى الطاعن بالسن فمن لا يريد لقلبه أن يبقى طرياً أخضر في مثل هذا الموقف يتوقف الضجيج ويتراخى التدافع وتعتدل عقد الوجوه وتتمحور كل الحواس لتكون رهن الإشارة كل أمام مهماتها الآنية المحددة، كل يتكهرب في مكانه ورغم الجراح فعلاجهم أحياناً متعددة التركيب والمنشأ وربما تنفرد أحياناً عن كل الأدوية الأخرى المعروفة تقليدياً، حتى تنتهي هذه اللقطة المنعشة فيداهمهم موكب يحمل مريضاً في النزعات الأخيرة يستلقي في نقالة كأنه فارق الحياة قبل أيام، آنذاك يفيقون من خيالهم التأملي السار ومن جديد يأسفون للوقت الضائع ويلعنون القسمة السوداء التي لاحقتهم لوحدهم ورويداً رويداً يتبدد الهدوء وتعم العاصفة كان منهم جنود مجهولين بعض الوقت وفي مجرى الحياة وغمرة العمل صاروا أعلاماً وقدموا خدمات جليلة قياساً بقدراتهم وأحكام الظروف الجائرة عليهم ومنهم على سبيل

المثال د. كمال وعبدي وآخرين، هنا في المخيم يجري التعامل من الأمـــراض بموقف نسبي بعيداً عن الدقة ويصفون مرضاً معيناً بحالـــة واحـــدة يجيبـــون الطبيب على أسئلته دون دقة وينطلقون على الأكثر من موقف مـــن ذلـــك الزاد قياساً بالسابق وكان هذا مرضاً بذاته. وعندما يصفون حالة في جوفهم يعطون أبعاداً إضافية أخرى كأن أحشائهم واحة مترامية الأطراف والتهاب الأذن الطفيف وحصول التشويش المؤقت هو ليس بأقل من تمـــزق الجـــدار الداخلي وتدمير كل الأجزاء الأخرى. ولديهم أن مهنة القلب هي الأكثـــر خطورة ويخشون توقف نبض هذا الجهاز واندثار بعض مكوناته وكل خلـــل ينسبونه لعطل جسدي ويلقون باللائمة عادة على غذائهم الهزيل ذو العناصر الغير المتعاضدة بما فيه الكفاية أن البيئة مفتوحة على كل ما هـــو مرفـــوض صحيا بمثابة شبكة شرايين نخيلة وهي تدفع بما في حوزها من المياه الآسنة من كل خيمة لتلقي بها في حفرة مجاورة استحدثت خصيصاً وتحولت إلى بـــؤرة ضارة.

أما الذباب الكثيف فهو الواسطة الرخيصة يغزو كل الأماكن لتبـــادل حمولته المؤذية وفق مبدأ المقايضة المتعارف عليه في الأوساط الشعبية الفقيرة. وقبيل الغروب بدقائق تستنفر العوائل لإجلاء الذباب الدخيل عن بيتـــهم، الكل ينصرفون لهذه المهمة الآنية الطارئة. يحكمون السيطرة عليه ويرغمونه على الهزيمة المنكرة بانسحاب غير منظم تاركاً جثث قتلاهم وهم بـــالآلاف

ويندحر وهو يجر أذيال الخيبة مغثوثاً ومعبئاً من جديد لقواه وطاقاته لجولة قادمة ساعة الصفر فيها بزوغ الشمس ثانية فالليل الدامس والرياح النشطة أسلحة للفقراء مجانية كالحجارة لكنها لمناهضة الذباب وتبديد أحلامه بهذه المعاناة تعايش المهجرون مع حياتهم الجديدة القاسية وانتعشت بينهم المفاهيم القديمة الخرافية عن المرض وعلاجه الأقوى على أنه ليس بالضرورة من جراء كبسولة واحدة متقوقعة بثوبها الزاهي الشفاف ولا هو دائماً من خلال حبات المسكن، وإذا تناولوا واحدة منها يتركون الأخرى أو يوزعونها على كامل أفراد العائلة التي بحوزتهم أما تعليمات الطبيب ومعطيات العلم وغيرها فلا يأخذونه على محمل الجد بل هي آراء راجت يوماً وتلاشت في مهب الريح غير مأسوف عليها.



الرياضة أفضل الوسائل لقضاء الوقت

# النشاط الثقافي في مخيم ماردين

يمكن وصف الحياة الثقافية بين جماهير المجمع بالجفاف التام لفترة معينة عندما انعدمت المعالجات الجادة لأوضاع الناس وآلت القراءات للانحطاط على كل المستويات إذ لم تعد هناك المكتبات بمعنى الكلمة وإن وجدت فهي مجدبة مما هو نافع في هذه المرحلة والمواقع القاحلة والاستثنائية. في هذا الحال لا يمتد الطموح كثيراً ولا يرجى المزيد من النتاجات النوعية أو الانتعاش الثقافي فليس في الذهن العثور على كتابات سلامة موسى أو مؤلفات الوردي ولا قصص غوركي أو أشعار ناظم حكمت الثورية الملهمة. وليس بين أيدينا مؤلفات يوسف سلمان يوسف (فهد) الموسوم بحزب شيوعي لا اشتراكية ديموقراطية.. وليس في خلدنا مطمح بمراجعة فصول من موضوعات نيسان الساخنة. إذن ما دمنا في زمن الأزمة لكل شيء علينا أن نكتفي ونتكيف مع القليل من خزين الذاكرة ونتحصن من بلاء الأفكار الدخيلة المؤذية من أين جاءت فهو ظرف عصيب وغمامة لابد لها أن ترحل لا محالة.

وهكذا فالمستوى الثقافي تراجع خطوات للوراء بل هبط بدرجات انكسارية غير اعتيادية وكل الآراء مشوشة والتحليلات سطحية ومضطربة

وحتى المعنويات للأسف كانت خائرة واهتزت وحدة الصفوف لدرجة لا يعتمد عليها عند الملمات. وهذا ناجم بالأساس عن تعقيد الظروف ونوايا السلطات التركية المحتملة والخوف من المستقبل الغامض فليس هناك من هو متحرر من الضغوط بهذه الدرجة وتلك ورغم كثرة الاتجاهات السياسية والفكرية في هذه البقعة المحددة والمحاطة بالمعوقات وكثرة الأحزاب والجماعات من القوى الدينية والقومية والشيوعية وغيرها فقد تأججت مظاهر البلبلة والتشهير والمشاحنات على أبسط الأمور، ومصادر المعرفة نادرة وبلغات لا نجيدها (تركية. فارسية. انكليزية. ألمانية، سويدية وغيرها) وبعض المصادر الثقافية المتوفرة هي ضحلة المحتوى وعقيمة الفائدة وأحياناً تمجد الخرافة وتقف مهزوزة بالضد من عجلة التاريخ وتستنجد بالصدقات من أين جاءت.



احدى النشاطات التدريسية

يالها من فترة سبات مظلمة بالبؤس الثقافي حقاً، لم تعقـد أيـة نـدوة سياسية على الإطلاق وتكثفت زيارات الوفود لتكون يومية تقريباً إلى مخيم ماردين صحفية وإنسانية وسياسية ودينية وحتى عشائرية من بلدان متعـددة من تركيا ودول الخليج وإيران والسعودية ولبنان وألمانيا وفرنسا..الخ.

لم تتجاوز القوى السياسية خلافاها الفكرية الضيقة وتخلفت قاطبة عن مواكبة جماهيرها الفعلية، ومما يلفت الانتباه هو كثرة الوعـود والاهتمـام الكلامي فقط بالقضية الكردية وإنسانيتها وضرورة الدفاع عنها، وبعـض التصريحات تتناول النساء وضرورة تشديد الرقابـة علـيهن للحـد مـن الانطلاقة المفرطة التي لاحظوها كما قالوا عندما لا ترتدي غطاء الرأس ولا تخفي سيقاها بما فيه الكفاية والمؤلم في الأمر أن هذا الكلام يقـال بمكـبرات الصوت وأمام النساء وبشيء من التلذذ والسخرية بإنسانيتها.



الطفل الكردي جميل باقي يحرس خيمة العريس

وهناك تقليل من عمق التناقض مع النظام الفاشي في العراق، وكمن يريد القول أن التسوية بين هذه الجماهير الفارة من بطش الفاشية وبين الفاشية نفسها هو مسعاهم الأخير وإلا لماذا لا تقال كلمة واحدة ضد صدام المجرم؟ هذا إضافةً إلى مهاجمة الحزبية بكل مشاربها ونمو المفاهيم التي تخدم ضيق الأفق القومي.

أما المجلات التركية الخلاعية المبتذلة فهي تصل بشتى الوسائل وتتناقض مع مناهج وقيم كل حزب وتترك تأثيرها السلبي خاصة بين صفوف الشباب.

عدا هذه الإشارات عن انحسار الفكر وقلة الإبداع كانت هناك بعض القصص وأشعار فلسطينية وكراسات حزبية مكرسة لهذه الظروف وكتاب أسس الفلسفة الماركسية وقصة عباد الشمس ووادي الرعب ومعجم المصطلحات النحوية ونضال المرأة ضد الفاشية وغيرهما من الصحافة للعام (١٩٨٩)، المعاناة الأكثر تلوحنا نحن الشيوعيين ما دمنا على أرض تركية ومع هذا هناك بعض القصائد الواعدة وخواطر أليمة لكنها تحمل عبق الكلمة الأمضى من الإطلاقة وبعض المذكرات المعبرة والرسائل المحفوفة بالمخاطر، والكل ينام ليلته وهو يطارد أحلامه ويحمل هموماً تقلقه تفكيراً بالخلاص بأية وسيلة من هذا الليل الدامس الثقيل.

# تظاهرة توجت بالإضراب العام

تواردت الأنباء عن وجود وفد من النظام العراقي في تركيا، يروم عقد لقاء مع المهاجرين هناك للتأثير عليهم، وهذا الخبر أصبح يقيناً فقد حاولوا ذلك في مخيم دياربكر لكنهم فشلوا وقاطعتهم الجماهير لم يحققوا خطوة واحدة، أما الآن فهم في الطريق إلى مخيم ماردين الأكثر معاناةً لكنه أكثر خشونة وصلابة مواقف أيضاً.. عصر يوم ١٩٨٩/٥/١٨ أخذت مظاهر الإجراءات تجري في أنحاء الإدارة التركية تأكيداً على ذلك، فقد أبعدوا الجماهير التي كانت تحيط بمبنى الإدارة وتخزر العاملين فيها بنظرات التوجس والازدراء، وكان مبعث خشية الجماهير شعورهم بوجود التواطؤ والضعف لدى العاملين في اللجنة القيادية للمخيم (الكوميتة) وهم الجهاز الجماهيري الرسمي ذو العلاقة المباشرة مع السلطات التركية ومع ممثلي الأحزاب الأخرى حيث توجهت الاتهامات إلى هذه اللجنة بأكملها في أكثر من موقف على أن دوافع شخصية ومواقف نفعية وراء تحركاتهم وتدخلاتهم في كل قضية بعيداً عن دراية وقناعة الجماهير.

وأكدت صواب مثل هذا الشعور الداخلي والتنبؤات إنها لم تكن رجماً بالغيب فقد تبين شيئاً ملموساً في الموقف من هذا الوفد العراقي لكن هذا

الشيء أحبط في مهده.. ظهرت تصريحات معينة لإقناع الجماهير بجدوى اللقاء وفائدته على أنه يخدم ولا إضرار منه وإن وجهات القيادة بشكل عام لا تحرم ذلك، بل تبيح اللقاء وتدعوا لاستثمار كل فرصة لمعرفة المعلومات الهامة عن طبيعة مهمة الوفد.. الخ وتأكد لاحقاً أن وعوداً بهذا الصدد قد استقاها الوالي (أحمد نوروز) المسؤول التركي الأول عن إدارة المخيم، وقد علق آمالاً على هذه الوعود وهيأ لها قبل أيام انتشر الشرطة والقوات الخاصة بملابسهم وأسلحتهم وتحركاتهم البهلوانية التي تثير الرهبة لدى البسطاء، بدأت النداءات على أعضاء الكوميتة (اللجنة القيادية) بالأسماء ولكن يبدو أن هذه اللجنة قد شعرت بالإحراج وخطورة موقفها ونتائجه فأخذت تتسلل إلى أماكن غير معروفة وأعطيت لهم مهلة عشرة دقائق كي يلتحقوا إلى الإدارة وبخلاف ذلك يتحملوا العواقب ورغم هذا فلم يلتحق أحد منهم.. لم تعد بين الجماهير الثائرة في الساحة العامة والوفد العراقي القادم سوى مئات الأمتار، ولحظات فقط حتى امتلأت الشوارع والساحة الرئيسية المحيطة بالإدارة بآلاف الجماهير الغاضبة وهي متطلعة لما يجري ومتأهبة للانقضاض عليه.



مظاهرة بوجه الوفد العراقي في ١٩٨٩/٥/١٨

هكذا تولدت بوادر الهبة الجماهيرية وعواملـــها المتراكمـــة العميقـــة، فالتحريض يأتي بكلمة واحدة فقط لتكون صوتهم الهـــادر جميعـــا (لقنـــوهم درسا). والوالي أحمد نوروز هو البطل العلني لهذه المسرحية الخيانيـــة الـــتي حاكوها في الخفاء وبالضد من إرادة ومصالح هذه الجماهير حيث دخل الوالي وممثل البوليس بملابسهما المدنية داخل الجماهير التي حينها افتقرت للقيـــادة الميدانية المسبقة فأخذت هذا الأمر على عاتقها تلقائياً وتصدت لهذا النشاط المتعلق بمصيرها وتصرفت في البداية بعفوية حتى أصبحت بمن اعتصموا فيها قلعة لا تقتحم.. رفضوا الحديث مع الوالي المتآمر عليهم، قابلوه بالســـخرية

والصمت رغم مهاتراته ودعوته بضرورة اللقاء فأخذ يتحرك بين الجماهير يتصل بهذا وذاك معرفاً بوجهة نظره الخبيثة لكن الجماهير تنساب بعيداً عنه ولا تنطق بكلمة رغم نبرة حديثه الاستفزازية التي يريد تفجر الموقف من قبل الجماهير لكي يعتبرها بادرة إهانة لشخصه ومبرراً لتعقيد الأمر وتدخل القوات الخاصة وغيرها بهدف إيذاء الجماهير جراء موقفها، لكن هذه الفرصة لم يحصل عليها، إذ قالت الجماهير وبالحرف الواحد: إلى هنا يلاحقونا وأنت معهم؟ كفا صبراً سترى بعينك كيف نثبت لهم موقفنا الأبي وتتجرع بنفسك عار هزيمتهم هكذا عاد خائباً وتقاسيم وجهه لا تنم عن ارتياحه فقد تعثرت خطته بعقبات جادة وتضاعفت أعداد الجماهير عشرات المرات وتوحدت كلماتهم وأنظارهم جاءت مجموعة راجلة لفيف هيئة مسؤولين لكنهم فزعين كأن الأرض رفضت أن تدنس بأقدامهم القذرة، لا نعرف منهم أحداً يتقدمهم الوالي وبعض العاملين عن الإدارة التركية، من بعيد دب الخوف في قلوبهم في وقت رفعت الجماهير من وتيرة حماسها وانضباطها تحسباً لمناورة محتملة، من أن يجعلوا من اندفاعات الجماهير العارمة مبرراً لضربها والإساءة إليها أمام عناصر الوفد الأنذال..

بدأت الهتافات حارة متزنة، الموت لصدام الفاشي عاشت البيشمركه عاش البارزاني عاشت الأخوة العربية الكردية، عاشت حلبجة والجبهة الوطنية ولتسقط الفاشية المجرمة الخزي لكل رسل الفاشية الأذلاء..الخ.

تدافع الشباب وحماسهم طافح وكلمات الكبار في هذه التظاهرة مؤثرة وتثير الحمية وهكذا وأمام الأنظار انهزم الوفد الصدامي مذعوراً إلى سياراتهم ولم يقفوا دقيقة واحدة تلاحقهم الحجارة والوعيد وصفير السخرية فقد خابت جولتهم في ماردين أيضاً وظهرت الجماهير بأروع موقف لها وهي موحدة ومتلاحمة، وللحق إن بعض المسلحين الأتراك كانوا ينظرون بعين العطف للمتظاهرين واستبشروا بهزيمة الوفد من تقاسيم وجوههم. في اليوم الثاني أعلن الإضراب العام بشكل تام كانت الجماهير مشحونة ومنتشية لموقفها المشرف لكنها مستاءة في عين الوقت من بعض الأدوار وتمادي الوالي إلى هذا الحد فلم تعد تلك تكهنات فقط إنما تأكد أن وراء تصرفات الوالي هذه أدوار أخرى لم يكشف النقاب عنها، فهناك همس وأصابع اتهام تمتد لتلتقي عند نقطة واحدة هي وجود عناصر من الكوميتة متواطئة ومن ذوي المواقف الرخوة وعلى هذا الأساس فقد عقدت الأطراف السياسية ووجهاء المخيم اجتماعاً تزامناً مع تأزم الوضع واتخذوا جملة قرارات في المقدمة منها شجب موقف أحمد نوروز الشخصي مع الوفد العراقي وإدانة نشاطه الماكر لإنجاح المهمة التي تستهدف إذلال شعبنا وإهانته وتقرر أيضاً استمرار وتنظيم الإضراب وتشخيص لجنة جديدة بديلة للسابقة وربط كل النشاطات اللاحقة بها حيث رفضت الجماهير وبالإجماع المطلق اللجنة السابقة ووصفوها بالانزلاق وفي مواقف خاطئة وأنهم أضلوا الموقف السياسية

السليم قد رفعوا مذكرة شديدة اللهجة تلخص هذه التطـورات إلى كـل المحافل الدولية الإنسانية ونسخة منها للسلطات التركية العليا مركزة فيهـا على صعوبة التعامل مع شخص أحمد نوروز واستمر الإضراب بمواقف قوية حتى ١٩٨٩/٥/٢٢.

عصر ١٩٨٩/٥/٢٢ كان الوالي يريد تبرئة نفسه مما حصـل لكـن الجماهير ترفض الإصغاء له وتقابله بالجفاء، وفي لقاء اختاره مع المتواجـدين عند دائرة البريد تحدث بإيجاز وسرعة وذكاء مستثمراً الفرصة ليبدد الحاجز ويستقطب أسماع القريبين منه بدأ حديثه بسلسلة أسئلة: ماذا عملت كـي تقابلوني بهذا الموقف؟ ألستم طلبتم منذ فترة لتسهيل مهمة اللقاء مع الوفـد العراقي؟ وهذه أسماؤكم مكتوبة بخط أيديكم بهذا الخصوص، وهذه الأسمـاء الأخرى التي قلتم عنها معارضة ووراء تحريض الجماهير ضد اللقاء بالوفد.. إذن ما هو ذنبي؟ وأنت يا... ألست من أول المطالبين باللقاء والآن تـدعي أمام هذه الجماهير أنك تتمتع بموقف معارض وقوي؟ وأدلى بأسمـاء أخـرى دون تحفظ كانت تتظاهر بمناهضة مناورات النظام الفاشي، هذه التصريحات قد كشفت حقائق كانت مجرد تكهنات قبل الآن وأعادت بعـض الآراء إلى صوابها وانكشف البعض معطوبين بالتواطؤ ويتسترون على ذلك فاسـتطرد الوالي في فرصة نادرة لتبديد الحواجز التي أجاد اختراقها من خلال كشـف هذه المعلومات الهامة.

في العاشرة من ظهر يوم ١٩٨٩/٥/٢٣ عقد اجتماع عام لممثلي كافة القوى السياسية وكل من يريد الحضور من الجماهير، وفعلاً جاءت أعـداد غفيرة ومتحمسة لسماع ما يطرح وللوقوف على الحقائق وامـتلأ المسـجد الكبير بالرجال جلهم من الشباب المفعمين بالعناد على مواجهة الأخطـاء ووضع حد لها، ومن يجمل حصيلة انطباعاتـه عمـا دار في اللقـاء العـام يستخلص منه أن جهد المتحدثين قد انصب على تدارك الأمر وتغطية الخطـأ الفادح بأية وسيلة وعلى قاعدة عفا الله عما سلف وبهذا أسدلوا ستاراً سميكاً على كل الأمور التي أدلى بها الوالي ووصفوا الوالي على أنه يختلق الثغـرات ويزيد من تعميقها لغايات في نفسه وكانت قناعـات النـاس بمـا قيـل في الاجتماع لا ترتقي للمستوى المطلوب وهناك إدانات تنقصها الجرأة الكافية للمسؤولين القدامى وطرحت مطالبة بضرورة عقد اجتماع آخر شـرط أن يحضره الوالي لمقارنة وتدقيق الأقوال المتناقضة ولكي تعرف هذه الجمـاهير من هي الأسماء التي لديها الاستعداد لمفاوضة الوفد العراقي وقـد تمخـض اللقاء عن ضرورة مضي الوفد في مهمته ومساعيه المقترحة في عرض الموقف على الوالي واطلاع الجماهير أولاً بأول على النتائج وضرورة الإسراع بذلك من منطلق المبادرة الإيجابية في وقتها المحدد وتعبيراً عن التـزام أزاء كوننـا ضيوف على تركيا ولا نفرض عليها ما يتعارض وتعليمات مسؤوليها.. لقد تبين مع تقدم الزمن أن ما قاله نوروز عند دائرة البريد هو عين الحقيقة، وما

تشبث به البعض وحاولوا جر القوى الأخرى إليهم هو التظليل بعينه، بعـــد أن شعروا بموقف الجماهير واعتصامها ضد فكرة اللقاء جملة وتفصيلاً.

# مقاطع شعرية مختارة عن الأمنيات

محمود درويش

لا تقل لـــي:

ليتني بائع خبز في الجزائر

لأغني مع ثائر!

لا تقل لي:

ليتني راعي مواشي في اليمن

لأغني لانتفاضات الزمن!

لا تقل لي:

ليتني عامل مقهى في هفانا

لأغني لانتصارات الحزانى!

لا تقل لي:

ليتني أعمل في أسوان حمالاً صغير

لأغني الصخور

***

يا صديقي!

لن يصب النيل في الفولغا

ولا الكونغو، ولا الأردن في نهر الفرات!

كل نهر، وله نبع.. ومجرى.. وحياة!

يا صديقي!.. أرضنا ليست بعاقر

كل أرض، ولها ميلادها

كل فجر، وله موعد ثائر!

أحد الشعراء يقول:

لو سرت أشعار خلايي

وأغاظت أعدائي

فأنا شاعر..

وأنا.. سأقول!

إنا حملنا الحزن أعواماً وما طلع الصباح

والحزن نار تخمد الأيام شهوتها،

وتوقظها الرياح

والريح عندك، كيف تلجمها؟

وما لك من سلاح..

إلا لقاء الريح والنيران..

في وطن مباح؟!

لأجمل ضفة أمشي

فإما يهترئ نعلي

أضع رمشي

نعم.. رمشي!

ولا اقف

ولا أهفو إلى نوم وأرتجف

لأن سرير من ناموا

بمنتصف الطريق..

كخشبة النعش!

تعالوا يا رفاق القيد والأحزان

كي نمشي

لأجمل ضفة نمشي

فلن نقهر

ولن نخسر

سوى النعش!

# أطفال المخيم

لا توجد فوارق فاصلة بين الأطفال فهم يشكلون قسمين فقط بشكل رئيسي. الأولاد ويشكلون مجموعاتهم المنفصلة عن البنات منذ الصغر ولكل هواياته وهمومه وطلباته. أما البنات فمن تجاوزت العاشرة يكتب جلب المياه قسمتها والحياكة حرفتها القادمة. لكن الأولاد عادة أغلب أعمالهم تجري وفق ما يروق لهم ولا يلزمهم برنامج ولا يخضعون للقيود وهذه ميزتهم الأساسية عن البنات، وجل أشغالهم جلب الصمون ومتابعة قوائم توزيع الغاز ليأتوا بحصتهم ويلاحقون الكبار في تدريباتهم الرياضية ويعشقون لعبة كرة القدم أكثر من الطائرة ثم يرسمون أشكال الأرقام على ملابسهم ويطلقون ألقاباً كبيرة على فرقهم الناشئة ويرددون مئات المرات في اليوم الواحد الحروف الأبجدية ويتعلمون أشياء كثيرة منها المفيد إلى جانب ما هو ضار حد الانفلات والتسيب فهم لم يألفوا ما يلبي حاجاتهم النفسية ويفتقرون لأبسط مصادر التأثير الإيجابي حيث ينعدم وجود المدارس، والمجتمع كذلك غير مشدود بروابط وشيجة وأغلب جوانب تربية الطفل تقع على عاتق الأم المثقلة بالمهمات الأخرى. ولذا تلجأ للقمع وسيلتها

الأسهل أو الوشاية لأبيهم الأكثر قسوة، بهذه الأجواء يعيش الآلاف من الأطفال المشردين، يبيعون الحاجات التي تضمن لهم ربحاً رمزياً واكتوت شفاههم واسمرت الوجوه كأنهم نازحين من أعماق المناطق الإفريقية، وقد اعتادوا الحركة في الليل والنهار وفي الأجواء الباردة والحارة فتنوعت أمراضهم وتعقد سبل المعالجة لها وشاعت بينهم بعض التسلكات والكلمات البذيئة ووصمت هؤلاء القلة بسوء السلوك.



إلى جانب هذا تجد بينهم الخلوق وذو المواهب وحب التعلم ومن هؤلاء الأطفال كان الحضور الأوسع بوجه الوفد العراقي وطرده من المخيم مذعورا وكذلك لهم إسهاماتهم في تسفيه ما يسمى بقرارات العفو الحكومية أما في المناسبات فتجمعاتهم ضافية. ليس بينهم من يعاني من السمنة ونهارهم كأنه ساعة ومتعتهم مشاركة الكبار أعمالهم وتقمص أدوارهم. يعرفون أسعار الأشياء لكن جيوبهم خاوية حد الإفلاس المطلق، يلاحقون ورقة تتدحرج لا تحمل سوى القاذورات وينشبون بسيارة مرت بأقصى سرعة لها تعزيزاً لحمولتها.



الأطفال حفاة في أروقة المخيم

لا يتركون شيئاً مصاناً يقلبون الحجارة عشرات المرات في اليوم ويبحثون بين بقايا الأدوية ونفاياتها كما أن لعبة القمار قد غزتهم بفترة قياسية. يغافلون الحرس التركي لجلب بعض الحشائش المفيدة لهم غذائياً وإن

لم يجدوا أعمالاً تناسبهم تطوعوا مجاناً لمساعدة النساء في جلب الماء، يعرفون متى يجري توزيع الأرزاق وأي الفرق الرياضية معنية بالمباراة في اليوم المعين ومعلومات الوفود الصحفية وتفاصيل أسئلتهم ومسقط رؤوسهم، يعرفون الرسائل الواردة والمكالمات التلفونية والحاجات الجديدة ونتائج الحريق الناشب في الخيمة الفلانية، وناصبتهم الأمراض عدائها ووسمتهم بالضعف العام وغيرت كل ملامحهم كأنه من أبناء الجنوب لا تعرفهم من كردستان إلا من لباسهم الكردي الممزق وأحذيتهم هي الأخرى تتمزق بسرعة لكثرة تعاملها مع الماء وفي هذه الظروف تخلوا عن تعليقاتهم السابقة في أن أطفال الجنوب واحدهم الحفاة، حسناً فعلت الأحداث حين وحدتهم جميعاً أن الحياة فرضت عليهم أيضاً أعمالاً حقيرة مضنية تمتص غالب أوقاتهم اليومية، يبيعون السجاير وأوراق الرسائل والعلب والباقلاء الخضراء وشفرات الحلاقة وخيوط الحياكة وقيطان الشراويل (الدوخين).

وأحياناً يبيعون أحذيتهم نفسها مدعين عدم ملائمتها لهم تارة صغيرة وتارة أخرى كبيرة، يتحايلون على أهلهم بهذه الأساليب كي يستفيدوا من مبلغ زهيد يحصلون في مجال آخر أكثر إغراء لهم، إنهم يشعرون بمنغصات الحياة ويلعنون الزمن الغادر، يتساءلون في ساعات الليل المتأخرة عن الأسرار في أن تكون التعاسة نصيبهم لوحهم، لماذا جئنا إلى هنا وغداً يمكن أن نرحل إلى بلاد أخرى أكثر بؤساً؟ لماذا نختار الرحيل بديلاً عن المقاومة المستميتة؟

أي الأسلحة أمضى ببناء مستقبلنا؟ من هم أصدقائنا الحقيقيون، أليس نحـــن من أصناف البشر ولماذا تدنت قيمتنا لهذه الدرجة لنكون عبئاً على الآخرين وهم يتاجرون بنا كبضاعة بائرة وأسئلة كثيرة أخرى لكنها لا تجد نفعاً.

وهدايا الأطفال متواضعة تواضع حياتهم تجدها الأحسن الأحوال مجرد هيكل لطير يذكرهم في كردستان، أم أنها مسبحة مصنوعة محليـــاً أحيانـــاً لا هذه ولا تلك إنما ورقة عليها بعض الإشارات الساذجة والعبارات التقليدية كأنها مختزلة من رسائل الجنود القديمة.

ذات يوم حصل لطفل حادثة مروعة وهو في السابعة من عمره غـــادر خيمة أهله لتأخذ به المنية إلى طريق اللاعودة بدأت ســـفرة هـــذا الصـــغير المسكين في يوم عادي هادئ حتى اقترب من فتحة واســـعة لخـــزان الميـــاه (البالوعة) فأخذ يتمعن بها، يرصدها ترى أي الأشياء جذبته بهذه واستهوت خاله؟ وقد فقد توازنه وتكور جاداً فاقتحمها سقوطاً على رأسه وقد حصـــل له هذا النصيب في ساعات النهار الأولى عندما كانت أمه منهكـــة بزفـــاف أقاربها وظنت أن صغيرها هو الآخر على هامش فوضى الاحتفال البهيج.

قبيل الغروب أحست بضياعة، فلسبها قلبها بخفايا القدر وكأنها تسببت بقتله عمداً، ركضت مشدوهة البال وتحول وجهها بلون التراب تصرخ من بيت لآخر وأعلنت اسمه في مكبرات الصوت، لكن هيهات مـــن جـــدوى،

وأخيراً وبعد جهود مضنية وجدوه قد فارق الحياة مع الفقرات الأولى لحفلة الزواج يا للمفارقة فقد عارض المشاركة في الزواج واختار فقرة لــه، لقــد تركت هذه الحادثة وقعاً أليماً وحزناً في كل أرجاء المخيم؟ للطريقــة الــتي حصلت بها ولكن ما حيلة المرء والحوادث اللعينة ما أن وجــدت الفرصــة مواتية حتى شمرت عن سواعدها.

في العيد في يومه الأول كانت المفاجأة مع بزوغ الشمس جاءوا يطلبون الحلوى وهم يرتدون الجديد من ملابسهم أو أنهم قد أجروا ترميماً للأجزاء الرثة فيها بعد أن تعرض الغالب منهم لحملة تنظيف طارئة تحــت أجنحــة الظلام وعيونهم لا زالت محتقنة من وعكة الصابون اقترب رعيل منهم بحركة تسللية حذرة وما أن وجدوا أحدنا يتحرك بخفية خلف ستار الخيمــة حــتى بادلوه التهاني بعباراتهم الحلوة بألسنهم المتعثرة ذات النبرة الخفيفــة كــان صاحبنا قد نهض مبكراً لترتيب هندامه استعداداً للزيارات المكرســة للعيــد وفاته إحراج كهذا، انهالوا عليه محددين مطاليبهم بكــل ملموســية، لكــن صاحبنا تظاهر بحسن النوايا ورباطة الجأش والبراءة فــانهزم كأنــه لم يفهــم قصدهم وهم يحيطونه ونظراتهم سديدة ثاقبة، ألقى بنفسه خلف البطانية وهو لم يزين كامل شعر وجهه، بل ترك شريطاً حدودياً على امتداد ذقنــه بهــذه الطريقة هرب من مناسبات الأطفال وطلباتهم الوجيهة، اعتكف ولم يعــالج الموقف والأدهى من ذلك أنه نكد برفيقه الذي نهض للتو من فراشه ليقع في

مصيدة يجهل وجودها أصلاً، جاء الآخر ليرى مشهداً وكأنه جزأ منه وأصبح هو الضحية حيث وقع تحت قبضته نظرات حادة وخيبة أمل وأيدي صغيرة تمتد بحنو كأسنان المذارة معبرين بذلك عن خيبتهم في الجولة الأولى التي كانت مضيعة للوقت. لقد فاته حضور العذر المقبول في حين أن جيوبه بحدود علمنا تعلن حالة الإفلاس المطلق لكنه رغم هذا ركض مكابرة هنا وهناك ونقل الراديو من مكانه كأنه يبحث عن حاجة يقصدها لكنها راغت عنه الآن فتش جيوب قمصانه دون استثناء كمن يبحث عن درهم لاذ عن الأنظار.. دمدم مع نفسه ياللورطة لماذا لم يقولوا هذا قبل أيام؟ متى نتعلم تقاليد الناس؟ ولكن هذا لا يجديه مما وقع فيه ولابد له من مواجهة الحقيقة المرة.. تقرب منهم وتوسل بالكلمات الكردية أن تطاوعه لعلها تسعفه من كمين تعرض له.. أشار بيديه وهو يقف وسطهم وقال: بعد ساعة من الآن تعالوا وكل شيء سيكون حاظراً.. تمام؟ قالوا جميعاً نعم.. ساعة من الآن، ومنهم من ردها بالعربي تلافياً للالتباس انصرفوا بقناعة قلقة بعد أن أشروا موعدهم القادم في سجلهم الجماعي وبعضهم يراقب الآخر لكي لا ينفرد بالفرصة القادمة فهي في عداد الفائدة المتحققة ولكن الحقيقة أن صاحب الوعد معهم ما أن راغوا من واجهة الخيمة حتى تسلل من الجانب الآخر ولم يعد حتى استأذنت الشمس بالرحيل وعند الغروب جاء مسرعاً كأنه يريد تدارك الوقت من أن يمضي أكثر وهو على موعده الصباحي وفاته أن

الأطفال رغم إلحاحهم الشديد لكنهم يدركون القيمة الحقيقية للوقت ولا يفرطون بفقرات برنامجهم في هذا اليوم على حساب فقرة أخرى مخطورة بالإخفاق، فهم يعرفون الحقائق بسليقتهم وهم أمام برنامج متكامل نجاحاته تعالج الثغرات، قالوها بعد مضي الساعة المحددة ظنيتمونا صغاراً لتضحكوا علينا؟ من جانب آخر فالأطفال أكثر من يتأثر بتقلبات الجو والبرد عدوهم رقم واحد أما في الصيف فهو يشيع بينهم أمراضه العديدة فالإسهال حالة ملازمة لنشاط قنواتهم المعدية، ورمد العيون يعزلهم عن العالم الخارجي وأطرافهم المكشوفة كأغصان نحيفة مسها اللهيب فالتهم أوراقها ليرديها جرداء كالحة، والحقيقة إن الآباء رغم انفلات الأوضاع لا يلجأون للضرب ولا يؤمنون به أسلوباً للتربية والتقويم، إنما يتبادلون مع أطفالهم الأحاديث السلسة والكلمات العطوفة ويعدونهم بالحياة الأفضل ويعبئونهم ضد قساوة الظروف ويغذونهم بمفاهيم الصلابة والصبر وعفة النفس فإنها من سجاياهم التي ينبغي لها أن تتعزز على الدوام في طبائعهم.

# معنى الإنسان

يحدده مقدار ما يحمله في نفسه من مثل إنسانية، وفي عراقنا اليوم يحتدم النقاش حول مستقبل بناء ما خربه الطغاة الأشرار والآلية لتحقيق ذلك وينقسم العالم إلى فريقين الأول ينادي بالتعاضد على ما هو أساسي وآخرين أوغاد دخلاء وشذاذ آفاق يجاهرون بتخريب ما طالب أيديهم المدنسة وكأنهم أولياء أمر العراق العريق.

نعود لفكرة الجوهر الإنساني في معالجة الأمر كحملة أفكار منقذة للبشرية ولا ننسى موضوعية دعوات تطالب بالقصاص من القتلة وكل المتورطين معهم.. نشاطرهم المطالبة ولكن مع هذا نعود لكتابات الشاعر بشير الحاج علي.

وبشير الحاج علي ذلك الشيوعي الصامد، هو شاهر مرهف الحس، وقد كتب من أعمق أعماق زنزانات التعذيب قصائد مفعمة بالإخلاص والصمود والإنسانية فمن قصيدة إخلاص:

قسماً مرة ثانية:

قسماً بدموع وعويل المرأة تحت التعذيب

قسماً بالأجساد الممزقة والقلوب في الزفرات

قسماً بالتخويف المقسم على الأبطال

قسماً بالاعتزاز الذي يعقب المذبحة

قسماً بالصمت الرهيب والخوف من الموت

قسماً بالندم الصادق من الذين اعترفوا

قسماً بالأرواح الميتة بعد الخيانة

قسماً بالكلمة القذرة من الجلادين السفلة

وقسماً بقلق الزوجات المتضاعف

سنكنس التعذيب

ولن نعذب الجلادين

# حلبجة تضمد جراحها وتنهض

حلبجة بريئة وأراد الفاشيون إبادة أهلها جميعاً قضاء حلبجة يرتبط بمحافظة السليمانية-كردستان العراق، حلبجة ذات تاريخ عريق وشعبها طيب.. كانت هادئة والحركة فيها طبيعية عندما داهمها سلاح صدام الدكتاتوري بغازات الإبادة الجماعية يوم ١٦/٣/١٩٨٨ فحصدوا من أهلها ٥٠٠٠ بشر وأضعافهم من الجرحى.. جريمة كبرى اقترفوها في وضح النهار وليس في باطن الأرض ولا في الطبقات العليا من السماء.. جريمة أيقظت ضمائر البشرية في العالم.. جريمة تكررت قبل ذلك عام ١٩٨٦ في مناطق بهدينان وقتلت أرواحاً بريئة وعام ١٩٨٨ في شهر آب في ٢٥ منه في قرى يكماله وهيسى وخرابيا وفي قرية برجين ورغم هذا هناك من يريد إثبات ذلك ويلقون بالاتهامات على إيران ولكننا نقول العار لهؤلاء الكيمياويين وقد لحق بهم الويل وقد أخذ بهم لقبهم الكيمياوي إلى مواقع الواوي الرزيل، فكفاهم منزلة وخسة.


ضحايا حلبجة كما تراها



# التسمم الخطير

مساء ١٩٨٩/٦/٩ كان ككل الأيام بلا جديد معلن لكنه يخفي أداته الغادرة خلف ظهره. حركة الناس هي الأخرى طبيعية تناولوا عشاءهم الهزيل وحتى الثامنة والنصف تماماً كل شيء كان طبيعي ولكن مثل كل الأشياء المباغتة المثيرة بث مكبرات الصوت واسترعت الانتباه مرات عديدة نداء. نداء. نداء. احذروا تناول الصمون الذي وزع عصراً ففيه حاله غريبة وقبل الانتهاء من تلاوة التحذير الخوف لف قلوب الآلاف إذ لم يعد هناك من لم يتناول العشاء وأغلبهم قد تناولوا هذه الوجبة المقصودة في عشائهم، بدأت الحالات المرضية بغضون دقائق فقط وسادت الفوضى بكل معنى الكلمة... إرباك حقيقي وبكاء بدرجة الضجيج وحركة مخيفة وعشرات السيارات تنقل الحالات الخطيرة إلى مستشفيات ماردين مباشرة. يتفحصون نوعية صمونهم المتبقي ينظرون في جوفه علهم يعرفونها من لونها الغريب بين الأزرق والقهوائي ورائحة كريهة لا تطاق، أخذت الأوضاع النفسية تتدهور وشمل هذا كل المخيم ومخاوف الأوساط الواسعة تضع العديد من الاحتمالات نصب عينها على أن عملاء الفاشية فعلوا فعلتهم الدنيئة ها قد

نجحوا في الانتقام من هذه الجماهير لقاء رفضها كلمة مساومة أو تسليم في عفوهم الزائف المزعوم. وحتى من لم يتناول شيئاً من هذا الصمون أردته المخاوف النفسية أسير القلق فأخذ يشعر أن وضعاً مرضياً ومغصاً في معدته ومن يتمالك نفسه بقوة ينطرح أرضاً في الحال وتنفصم عرى معنوياته حيث لم يبق هناك من لم يتأثر بشكل أو بآخر وجو الرعب العام وهو الذي هيمن على المخيم وتحولت الساحة الكبيرة إلى موكب بالآلاف لكنها مواكب مهزوزة خائفة وحالات التقيؤ أفسدت الجو في أطراف الإدارة، لم تعد هناك مقاومة بدنية ذات شأن... وغالب العوائل لجأت للحليب باعتباره إسعافاً في حالات التسمم والغريب أين كانت هذه الكميات من الحليب قبل الآن؟ ففي كل خيمة تجد الحليب بكامل الاستعداد لقد سيطرت حالة رهيبة من الخوف لم يعد هناك من يتمالك أعصابه كل يركض على غير هدى منه كل يسارع إلى معارفه والأقارب للوقوف على أوضاعهم ويطمئن بعدم التخوف وضرورة مواجهة الحالة بضبط الأعصاب واعلموا أن العدو يستهدف هذه الحالة من الرهبة كي يمرر مشاريعه القذرة... مكبرات الصوت هي الأخرى تدعو لضبط النفس وملازمة الخيم وكل شيء اعتيادي لا تخافوا، وقوات الحكومة التركية جاءت بأعداد كبيرة إلى المواقع المحيطة بالمخيم كي تسيطر على الموقف وتحسباً للتطورات اللاحقة. وهناك من يبالغ منذ البداية ويعطي أرقاماً كبيرة عن حجم الإصابات ويوصف الأعراض وفق ما يشاء كأنه

أخصائي بارع وحتى يعطي اسم المادة السامة ودرجة مفعولها وهذا يــؤجج الخوف أضعافاً، ولكن هناك في مثل هذا الموقف لم يكن من السهولة مواجهة أعلام كهذا بالتثقيف المضاد على أن الحالة ليست بهذا المستوى ولا تستدعي الخوف لهذه الدرجة... الخ من يقول هذا يردع بقوة، من يقبل من هذا النوع الدفاع عن جريمة ترتكب ببشاعة؟ خاصة و الحالة حقيقية فعــلاً وأعــداد المرضى تجاوزت المئات ويثار الخوف من جديد عن لعبة تحاك في الخفاء، مــن يدري أن لا تكون الأرزاق الأخرى تحمل الموت وهي ساكتة؟ هــل هــذه ضريبة أولية لقاء رفضنا مواجهة وفد الفاشية قبل أيام؟ أليس من خيوط بيننا لهذه الأفعال الدنيئة؟ كانت الإصابات الفعلية بين النساء والأطفال أوســع بكثير عنه عند الرجال مما يدل على عمق الخوف في هذه الأوساط، أن عائلة معينة مثلاً تناولت العشاء جميعها من نفس الصمون لكن لا يحصل لهم شيء سوى للمرأة والأطفال هناك تجد رجلاً مسناً يهم بالحركة وســط النســاء المشدوهات ينصح في البقاء كل في بيتها وإبعاد تأثير الخوف جهد الإمكــان عن ذهن الأطفال وأشغالهم بأمور أخرى علهم ينامون ويبتعدون عن هــذه العاصفة المهلكة للنفوس. وبين الكبيرات ساد الحزن والبكاء وأخذ الموقــف أبعاداً معنوية نالت من شكيمتهم التي حتى الآن كانت مرفوعة. وبتحليلات بسيطة لكنهم يفاجؤونا عن خبرة ودرس بليغ اكتوا به القلب مدى العمر.. ياإلهي إن مجيئنا إلى هنا لم يكن نزهة بل نفور من الفاشية وهروب من سلاحها

الكيمياوي. هروب من الموت واليوم وبهذه السهولة يفاجؤونا بالموت؟ ياللخسة، إنه منظر غريب جداً ربما هو الفريد في العالم، كل الأعمار مسهم الهلع، يركضون ولا ينطقون بأشياء مفهومة(يهذون تماماً) والأسئلة هي عن الحالات الخطيرة وما هي الإجراءات الأولية الضرورية؟ ربما المواد الأخرى لها سمومها الخاصة؟ وآخرين يتظاهرون برباطة الجأش لكن انفعالهم لا يدل على ذلك، أحدهم يصرخ كأنه طفل فقد صوابه، يحرك يديه في الهواء ويعلن البلاغ مباشرة... لا تخافوا... لا تخافوا كل في خيمته... ألستم أكراد؟ عليكم بالحليب... أن عدونا يريد لنا أن لا نهجع... أن يسيطر الخوف علينا... وهذا عار علينا... أن مهمتكم الهامة والوحيدة، واحد العاملين على مكبرة الصوت نبرات صوته بحد ذاتها تثير الخوف حقاً كصوت فائدة كامل في اغانبها الثورية الحماسية، والحق معه فهو على مقربة من الحالات الخطيرة المشرفة على الموت وتظاهرة جماهيرية اندفعت صوبه مليئة بالضجيج حتى وصلت الشارع العام وهي تتسع بسرعة تضغط لاختراق الحواجز والذهاب مشياً على الأقدام بكل الاتجاهات.



هذا خبز السم

كانت العلامة المرضية الوحيدة البارزة هي التقيؤ والاضطرابات المعدية ولكن المبالغات تضع جملة أعراض أخرى في أحاديثها كتوقف حركة الـــدم وحالات التشنج في الأطراف الخ. وأينما تنظرهم تراهم يمسكون بواحد من يديه إلى المستشفى، ومن بين هؤلاء يقع الثاني والثالث قبل وصولهم الطبيب. ولليوم الثاني والثالث وحتى الخامس تتصاعد الإصابات لكن الصمون لا زال ينقل إلى مكانه السابق بسيارات كبيرة ولكن ما أن يجري توزيعه حتى يعلـــن تحذيرا آخر بأن الشكوك لا زالت قائمة عن صلاحيته الغذائيـــة وضـــرورة اعادته إلى حيث استلموه وتعم البلبلة والطعن وتهجمات على الوالي نفســـه

الذي لا يبدي شخصياً ولا كسلطة الاهتمام اللازم بـ ، الحالة الخطيرة، الإجراءات شكلية لا تقنع الطفل وكأن شيئاً لم يكن. الجماهير عاشت أياماً طويلة على البرغل والعدس والبسكت فقط، ترى إذا كانت الحالة ناجمة عن عمل تخريبي من عميل للعراق لماذا يتواصل هذا دون إجراء عملي لإيقافه؟ أين تدخل السلطة التركية في تطويق الحادث؟ ألا يوجد من يشك بهم؟ وهل أن السلطة عاجزة عن تحويل عملية شراء الصمون من هذا المصدر إلى آخر ريثما يتم التأكد وحصر الحالة بهدف معالجتها ومعرفة الأسباب الرئيسية لها؟ انتقل الخبر إلى المدن التركية وديار بكر حيث المهاجرين العراقيين هناك وقد أذهلهم هذا الخبر وتلفونات الخارج تناقلت الجريمة وعممت الحادث إلى كل المصادر الإعلامية العالمية وسوريا إذاعته بإذاعتها الرسمية مرات متتالية ولكن الوالي أحمد نوروز لم يكترث بذلك وكثيراً ما يضحك على أنها لعبة مفتعله للإساءة إلى تركيا. وأخذت إذاعات العالم تنشر تفاصيله المريبة وتعلق عليها حيث إذاعة دمشق أذاعت الخبر في ١٩٨٩/٦/١٠، ولندن ٦/١٢ وبلغت الحالات المرضية في الأسبوع الأول ٣٠٣٤ حسب الإحصائيات داخل المخيم وتردي وضع البعض منهم، وعلى صعيد الحكومة التركية فلم تتخذ أي إجراءات هامة والإجراء الوحيد الذي ترك تأثيراً معنوياً جيداً هو وضع ورقة صغيرة ملصقة على كل صمونة تحمل رقماً وتاريخ فقط كتأشيرة بصلاحيتها للتناول وهذا لعب دوراً معنوياً حيث هناك الكثيرين لا يتناولون

إلا الصمونة التي تحمل هذه الورقة الصغيرة مــع أنهــا لا تحتــوي ضــمانة بسلامتها.

بعد أيام اعتقل الشخص المسؤول عن معمل الصمون وقيل عنـــه أنـــه المقاول وهو كبير السن وهيئة بائسة وأطلق سراحه بدعوى أن الحالة ليست كما قيل عنها وليس من وجود أي مادة سامة في الصمون أما بسبب تلف في الطحين أو في الخميرة التي كانت كثيرة في وجبة العجــين وأدت إلى تعفنـــه وغير ذلك من المبررات الواهية، هكذا عاشت الجماهير حالة خطيرة كادت أن تقتل بالآلاف منهم ولكن تغطية لا منطقية أسدلت ستاراً عليها ومــررت جريمة بشعة ويبقى احتمال أن تتكرر ثانية أمر وارد متى ســنحت الفرصـــة وبعد سلسلة من التحقيقات تم إطلاق سراحه وإعطائه الفرصة اللازمة لذلك هذا واحد من أفعال كثيرة هي وصمة عار بوجه الفاشية الجبانه ومرتزقتـــها الحقراء.

# النشاط الرياضي

لقد عاشت شبيبة مخيم ماردين ظروف قاهرة ومعاناة أكثر من باقي أفراد العوائل فهم بأعمار تتطلب الحركة والتقويم والتوجيه الهادف وهم في مرحلة النمو والحماس المتدفق الطافح بالحيوية هكذا وجدوا أنفسهم أمام حاجة استثمار الوقت في تنمية القابليات ولهذا تشكلت ألفرق الرياضية استجابة لهذه الحاجة منذ الأيام الأولى وتحددت المساحة الواسعة من الطرف الغربي للمخيم لتكون ساحة خاصة بألعاب الرياضة بأشكالها المختلفة. أن هذه المساحة كانت محاطة بالأسلاك الشائكة ولعل هذا أحد العوامل أمام أن تخطو الحركة الرياضية لتأخذ مداها الطبيعي وأفقها الرحب في فترة كان إقبال الشباب واسعاً على هذا المجال الوحيد لقضاء الوقت القاتل وقد بذلت جهود إيجابية من قبل الأحزاب كافة واللجنة القيادية للمخيم(الكوميته) فقد تحققت مستلزمات العاب القدم والطائرة بأعداد كافية من شبكات وملابس وكرات طائرة وتم الإعلان عن تشكيل الفرق وبدأت التدريبات صباحاً ومساءً، يعلن ذلك من خلال مكبرات الصوت عن أوقات المباريات ونتائجها والحالات الطارئة التي تتطلب التأجيل أو الإلغاء، إذ بدأ العمل في

هذا المجال بداية منظمة واعدت وتطورت بزمن قياسي وأثمـــرت في خلـــق قابليات ووعي وسلوك رياضي جيد وتفاعل شبابي على مختلـــف اتجاهـــات تفكيرهم.

من الفرق التي وجدت منذ البداية وانتظمت يومياً تواجـــد والتزامـــاً بقواعد العمل والتنسيق ولقاءات كل من فريـــق ازادي (الحريـــة) وفريـــق رينجبران (الكادحين) وفريق هلكورد (اسم جبل) وفريق آكر (النار) وفريق حلبجة وفريق متين وفريق بزوت ومهاباد... الخ.

لقد تركز وجود رفاقنا بفريق آزادي واقترن باسمهم باعتبـــاره فريـــق الشيوعيين وتدرب فيه رفاق كثيرون واكتســـبوا القابليـــات وتـــدرجوا في مواقعهم الرياضية رغم متاعب البعض منهم وكبر سن الكثيرين. لكن نشاطه كان بارزاً وفاز في المباريات النهائية التي اقيمت عصر يوم ٢٨/آذار/١٩٨٩ والتي حضرها ممثل الحكومة التركية وأعضاء الكوميتة وجمهور غفـــير مـــن المخيم وكل الحضور كانوا يعرفون أن آزادي هو فريق الشـــيوعيين وكـــان تشجيعهم له واسعاً ولم يكن رفاقنا فقط يعملـــون في آزادي إنمـــا في فـــرق أخرى.




والحركة الرياضية حالها مثل حال جماهيرنا تشكوا من عدم الاستقرار وتكتيكاتها متغيرة تكيفاً مع التطورات العديدة فليس هناك من لديه ضمانة في مواصلة التدريب وإحراز الانتصارات المرجوة وفريق آزادي أكثر من تعثر مبكراً عند سفر أبرز لاعبيه صباح ١٩٨٩/٤/٣ إلى سوريا ولكن التدريبات استمرت والمباريات كذلك لكنها ليس بالحماس السابق ولا تجلب اهتمام الجمهور كما كانت عليه.



فريق ئازادي الفائز مشاركة بملابس الحمر في مخيم ماردين ١٩٨٩

ولعبة الطائرة غدت هي الأكثر تطوراً وتشويقاً بين المتفـرجين فهـم يتابعوها كل يوم تقريباً قبيل غروب الشمس عندما تبدأ المنازلة بين فريق أو فريق ب. ونشاطهم بمقدار قابليات هؤلاء الشباب والتزاماتهم فهي من أروع الفترات التي يقضيها الناس في المتابعة والتشجيع وكيفية تعاملهم مع كـرة الطائرة وضرباتهم لها كأنها رهن إشارتهم وفريق أ خاصة يمتلك جداره فائقـة ويحظى باحترام كبير فضربة حسين رافيني (أبو علي) بمقدار ما هي سـديدة وماحقة كالطلقة تخترق الفريق المقابل لتسجيل نقطة محققة، إنه يمتاز بالدقـة وتحاشي التماس بالشبكة، يردع قدميه من أن تطاول أكثر بعيداً عن ملاحقة عينيه لها.

وكذلك صباح وعبد الخالق ومجيد وبرهان وأحمد والآخرين لهم قابليـة متألقة وحمدي الصغير قياساً بهم هو الآخر يلتوي حيثمـا راغـت الكـرة يلاحقها بيديه الرشيقة السمراء كعصى التنور يحملها على الانصيـاع لإرادة هادفة، والجمهور يتابع باهتمام وبشكل ضجيجاً لهذا وذاك ويربـك سـير المباراة وحتى الحكم نور الدين على اتصال دائم مع ملاحظـات الجمهـور ويبني قناعاته على معلوماتهم على أن عصرنا الآن هو الجماهيرية في إطارهـا الديمقراطي ولا تثيره كثيراً كلمة متحيز بل يضحك ويقول... متحيز؟ لأي منهم أ أم ب؟ هناك عشرات الفرق الشبابية غير البارزة حالياً، لكنها تشكل جيل الرياضة القادم، فالرياضة تخلق إنسانها وتقوّم سلوكه والقابليات وهـي

ظاهرة خلقتها ظروف الحياة الجماعية وحتى الأطفــال بمختلــف الأعمــار يفضلون لعبة القدم. أن المشاحنات وخشونة الاداء لم تكن حالات بارزة فهم أمام ضوابط عديدة وكل يعرف الآخر ويحترم مشاعره، أن عشرات الشباب ليسوا محسوبين على حزب معين وعيوهم تزنوا إلى الدول فأنا منحاز هــؤلاء الشباب رغم أنني لا أعرف من الرياضة شيئاً يذكر.

# من هنا يجري التسلل والخلاص

في الأزمات يتصلب الرفاق فتتراكم لديهم الخبرة وتتعـــدد الـــدروس الحياتية فلا يستسلمون بسهولة ما داموا ينبضون بالحركة وتنشيط لـــديهم الفطنة وتستفيق الأحاسيس والغيرة على حزبهم فهم معنيين بتخطي العثرات المعيقة كي يتواصل المشوار ، هذا هو جوهر تفكيرهم وتفكـــير الحـــزب في المواقع البعيدة عنهم كل يرتب موقفاً في ذهنه ويخطط لحل جزئي على طريق الخلاص التام من المصيدة. في الأشهر الأولى لم يكن التطبيق العملي لأفكـــار طرية كهذه دون تلكؤ وأخطاء وتردد وحسابات لا ضرورة لهـــا وضـــياع المبادرات والمجازفات المشروعة وان كانت بعض المحاولات بهذا المسعى قـــد بذلت لكنها لم تخطو قليلاً حتى أحبطت وجاءت بعواقب ضارة إذ وجهـــت الأنظار إلى نشاط كهذا قبل حدوثه.

ابتدأ الجهد نحيلاً فتطور محققاً ثمرة الخلاص الفعلي تواجـــد رفاقنـــا في المخيم ولم تسجل أي من القرى شيئاً سلبياً يذكر في تعاملها معهم، والحق أن الخصيلة المشتركة بين جماهيرنا هناك هي احترامهم الكبير للشيوعيين وآمالهم الكبيرة على مستقبل نضالهم مهما كانت أشكاله

وأساليب هذا النضال وهذا مفخرة لهم وللرفاق على حد سواء. بعض القرى رحبت منذ البداية في احتواء أنصارنا وفي المقدمة منها قـريتي بافـا وباطوفا سيدا فلهما الثناء والمجد القادم. كانت أمثال هذه القرى قبـل الآن منسية لكنها في ظروف الشدة وهذا مقياس الأصالة كانت حاضرة مبسوطة الخاطر. احتوت أسماء الرفاق و عوائل ذات ظروف خاصة في هذه الحيـاة فرصة لتبادل الأدوار ولا سبيل آخر إلا مواجهة القسوة بقسوة أقوى. أكثر عنفاً ومواكحة فهذا منطق سائد بشكل عام، بدأ التعامل حذراً والالتـزام مضاعفاً كي لا تسجل نقاط الضعف بكثرة ويحصل ما لا تحمد عقباه بافـا وباطوفا سيدا هما الأكثر من غيرهما عهداً مع الثوار على الإيفـاء لجميـل سباقتين له وفي أحلك الظروف ومنطقي أن يتعايش المدافعين عن قضية سامية



كيف ننسى تلك الليلة العاصفة بالتراب والوقاحة حين غادرنا الرفاق محاولين الخلاص وتركوا نفراً لوحده يطارد مشاعر الوحشة ويبحث عن أعذار مقنعة للزوار صباحاً والفجر بداية العيد وبينما هو سارح مع نفسه وإذا بالشاب الطيب من بافا نفسها وعرفناه يوماً يتابع احتياجاتنا كأننا أبناء أمه أو ضيوف في بيته. جاء ملهوفاً في الثانية والنصف ليلاً يحمل حصتنا من وجبة اللحم والتي وزعوها على المخيم في وقت متأخر لم يفتعل شياً بل قالها من أعماق قلبه كعهده دوماً. خذوا حصتكم كاملة نريدكم حاضرين أمام العيد وزواره و احراجاته فأنتم طرف هام من قريتنا نحن و أنتم عائلة واحدة. كان علينا تعزيز حصتكم فأنتم أصحاب فضل قديم.

بافا أيتها القرية الهادئة المتروية قبل الآن في خاصرة من الخابور ذو الحركة الساحرة، ومنه من الخابور استمدت بافا الانسيابية الدائبة والرفض والعناد، ترفض وتقاوم وترحل حتى استقرت بعيداً عن الموت وبهذه المواقع وعبر هذا الرحيل عرفوها الرفاق وعرفتهم وتبادلوا العهد والملح الزاد. إنه مجد ينشأ في زمن الملمات وما أجداها من فرص للتعارف والاختبار إلى جانب المرارة والشقاء. فباقا أبداً ستبقي اسماً محبوباً بذاكرة الرفاق. كباوركي التي كادت أن تغيب عن معركة الشعب فأحياها انصارنا من الموت ومانكيش تواضعت لتكون واحدة من القرى البسيطة بعد أن كانت ناحية كالسهم في عين الفاشية ومسرحاً لتحركات الأنصار وكذا الأمر مع بنافيا وبامرني ومائي

وكربت ورافينا وديرشكى وسررو (أسماء قرى من المخيم) أما باطوفا سيدا هذه القرية الوقورة من اسمها فقد تبركت بخلاصه فكر الكادحين، وسمعت عن قرب شيئاً عن رسالتهم التاريخية، هكذا أخذ بها المطاف العسير لتجد نفسها قد تلامست أولاً ثم انغمرت أكثر مع أرقى نظرية في الدنيا تفحصت مقولتها فوجدتها مفردات تعنيهم قبل غيرهم.

خيم الرفاق تنتشر في أرجاء المخيم دون حواجز تفصلهم عن العوائل المزدحمة الأخرى. ورفاقنا عادةً أكثر من غيرهم يشكون من كثرة النواقص وتستهدفهم الأسئلة والملاحقة والرصد دون قصد يسوء فلا بد انهم يبحثون عن معالجة الأوضاع بكل الطرق والناس تخيفهم هذه الإجراءات كأنها خيوط تآمرية. ويقيناً أن خوفهم هذا ليس بغير مكانه، فهم يلاحظون وهم بكامل الوعي بعض التحركات المريبة، أحدهم لا يمكث طويلاً في بيته المعين فتراه كأنه (جوكر) في كل قرية تجد اسمه حاضراً واسم ابيه يتغير متأثراً بهذه المعمعة وحسب الحاجة فهنا تجده امجد محمد وبقرية أخرى هو نفسه باسم ثلاثي آخر ولقب العشيرة تتويجاً لذلك.



الشهيد نور الدين ئاميدي
حتى الرمق الأخير يحن للوطن

وتحت مناماتهم فقط تجد سلسلة الممنوعات والوثائق المزورة وترتيبها الصيانة الأخرى التي لا يتعاطاها عامة الناس، ومشترياتهم من السوق حافلة بالليمون الحامض والشربت الأسود (ويقصدون العراق) وليس غيرهم من هو مولع بأكلة الباجة وقراءة القواميس التي تجمع فيها مزيداً من اللغات تشتبك فيما بينها لتتمخض عنها لغة جديدة للتعارف وتبادل المعاني و من تقاليد الرفاق العريقة أسلوب توزيع العمل (الخدمة الرفاقية) وأداء التمارين الرياضية وأحاديث السياسة وذكريات قديمة عن بلد زاروه أيام الدراسة وعناوين يحتفظون بها من هناك وربما صورة خاصة هي مبعث هذا الاهتمام ويستأثرون بأعمال تبتغي الدقة ومعالجة الأمراض والساعات وتوقفات الكهرباء ويلاحقون باللغات الأجنبية العصية إلى الفلاحين وقلة من الجماهير يعرفون الأغاني السياسية والنشيد الأممي أو وقفة الحداد في بداية الاحتفالات الهامة.

أعداد الرفاق أخذت تتقلص كأن وباءً غزاهم وانفرد بهم مختاري القرى المساكين بدأت معاناتهم الحقيقية في ملاحقة الموجود الفعلي في قراهم ، فالأرقام في سجلاتهم لم تعد متطابقة مع شواغر أمام الأنظار واختفاء وجوه بارزه لا ينساها أحد والأعذار متجددة مع الجديد اليومي... ذهبوا مع المجموعة المسافرة إلى سوريا أو أنهم في زيارة إلى المخيم ديار بكر وقد يطول بقاءهم هناك، أو أنهم غادروا إلى إيران أو أنه مدعوا في طرف من المخيم ويعود ليلاً وما أن يعلن عن الأسماء المعينة للسفر حتى ينصرفوا الترتيب أوضاعهم وأول الإجراءات السريعة تحررهم من نبات الوجه الذي كان

يضفي عليهم هيئة يتميزون بها، والويل لمن يعود ثانية وهو حليق الشوارب كأنه جرذ حاصرته المياه فتملص منها بصعوبة لينجو مدهوناً أملس وعندما يعود صدفة بعد يوم يجد حاجاته قد تفرهدت واعلنت حالة الاختفاء التام لتغطية آثار الجريمة، يتوسل بالقريبين إعادة قميصه البالي وأدوات الحلاقة وفرشة الأسنان.. الخ

في ليالي المهمات ترصد معالم المنطقة والظروف المحيطة وتلاحظ حركة الدورية والهواء المصحوب بالأمطار ومزارع الحنطة جميعها فرص مناسبة وعوامل مساعدة لتقليل المخاطر والناظور هو دائماً من عناصر هذه المهمات ما أن تكون كل الأشياء جاهزة حتى يتسللون قليلاً بنصف قامتهم وكل ينبطح أرضاً وتبدأ عملية التدحرج بخط مستطلع منذ النهار يمتد شريطياً على يسار مجرى مائي ضحل، يجثم كل على الأرض كأنه يبتغي إطفاء غليلها ويهدئ من روعها ولحظات فقط حتى يتواروا عن الأنظار. والحقيقة أن تحركات الكلاب كانت من الممارسات الأكثر إيذاءً وخباثة من أفراد الجندرمة الفقراء وعندما يبتعدون وترصدهم بعدسات الدربين تراهم كمن يمثل أشباح تثير الضحك عبارة عن كتل مجهمة سوداء منتفخة ترتفع بقوة وتلقي بنفسها على الأرض ثانية. ونقطتهم المحددة حتى الصباح هي تجويف يحمل الشارع العام على أكتافه و قبيل بزوغ الشمس تراهم في حالة انتشار على أبعاد متساوية أكياسهم رثة وأثار الأرض شوهت الهيئة التي تحركوا بها وجاءتهم البنطلونات كخطوة تراجعية ووئدت الشراويل طليقة الحركة. وبعض الرفاق عندما يتسللون يدعون بمهمات كهذه فتراه يرفع بإحدى رجليه ليوحي للقريبين انه كلب يتبختر، يلوح بحركة ذنبه برهاوة وكبرياء. ورفيق آخر لا يرى ضرورة لكل هذا التشديد ولا يريد التفريط بقمصله

امتصت راتبه الشهري. لكن الورطة. الحقيقية لمن يبقى وحيـــدا في خيمتـــه مؤنثة كأنه حارس ضعيف في ساعات حساسة من الليل وتبقى المخاطر قائمة والاصرار وحده ليس كافيا أمام العقبات التي لم تكن في الحسبان وتضـــارب المواعيد والصدف التعيسة وبمقدار ما كانت عليه لحظات الدخول للأراضي التركية مريرة فالخروج منها ليس مكللاً بالورد ولا طريقاً سالكاً بلا عراقيل فما أن تقترب من الحدود حتى تجزم باستحالة تخطيها دون تواطؤ مســـبق أو ضريبة تدفعها من القوة الفعلية للمفرزة ولا شك أن الاختيار الثـــاني هـــو المفاجأة والحاجز الجماعي فكل يعيش على أعصابه ويســـتذكر صـــفحات النضال الطويل لشعبنا الأبي . هكذا يراها المرء لحظات امتحـــان حقيقيـــة لتحديد مدى البطولة المرجوة لمن نذر نفسه لقضية مصيرية. بهذا المعنى تعامل نور الدين ناميدي في تخطي عقبة كأداء، جســـوراً لم يبخـــل بقطـــرة دم إلا خضب بها الأرض لتكون وساماً مقروءاً باسمه الخالد..



جندرمة الرائد يحاصرون مخيم ماردين طول الوقت


مشاعر بلوية عن ميلاد الشيوعية
حرا بزهرة حب بالأرض أينعت
بارجاء كل الكون فوّح عبيرها
بميلادها حتى الكواكب تباشرت
وگالت بان الأرض گرب سرورها

# نـــوروز عام ١٩٨٩

## موجـــز القصة البطوليـــة ومغزاهـــا

يحكي أن حاكماً طاغياً كان يظلم الناس وقد أصيب يوماً بدأ خبيـــث فوصفوا له مخ الأطفال فأخذ يفرض على الفلاحين ذبـــح أبنـــائهم تأمينـــاً لعلاجه الوقتي وقد استهلك كل أطفالهم ولم يستطيعوا وضع حد لطغيانـــه، وعندما جاء دور الشخصية الكردية البطلة. كاوه الحداد قدم ثلاثة من أبنائه الأربعة تباعاً وبقي الرابع حيث بلغ السخط والاستياء بـــين النـــاس نقطـــة الانفجار للخلاص النهائي من ظلمه كاوه الحداد كان الشخصية التي لعبت دوراً في التعبئة على طريق الانقضاض عليه وتخليص الفلاحين من شـــروره. كان حلم الفلاحين الفقراء أن تطول مناجلهم رقبة الضحاك، يمنون الـــنفس بخبر كهذا كانت نقطة الانفجار حين طلب السفاح رقبة الأبن الرابع لكاوه النضال، أنها حالة نفاذ الصبر وحين هجم كاوه بمعوله الجبار على الضـــحاك فأراده قتيلاً وهب الفلاحون مع كاوه في مأثرته التاريخيـــة الخالـــدة هكـــذا تخلصوا من الظلم وأشعلوا النار رمزاً للخلاص والحرية، ومنذ ذلك الوقـــت صارت هذه الليلة المباركة عيداً قومياً للشعب الكردي وإيمانـــاً بالنضـــال الجرئ ليتكلل بالنصر النهائي.

يوم ٢١/آذار/١٩٨٩ في العاشرة صباحاً من هذا اليوم المجيد انتقلت كل الجماهير تقريباً إلى المكان المخصص للاحتفال، في زاوية شمالية غربية من الساحة الرياضية الفسيحة... فقد غصت بهم وكانت الشعارات مخطوطة بقوة وأبرزها تحية للمناسبة القومية المبجلة وإصرار منها والبعيد. هذه الشعارات التي كانت صيغتها قديمة وفحواها عامة ولكن رغم هذا فقد التفت الجماهير حولها بالآلاف نساء ورجال،حشد كبير جداً. والوجوم التام اروع فقرة في الاحتفال. وحتى الآن لم يكن في البال تناول هذه المناسبة في المذاكرات مع انني في الصفوف الأمامية المتقدمة وقبيل بدء الفقرة الأولى لا حت في خلدي انطباعات انية عن ثغرات ليست قليلة وهذه حفزتني على التركيز أكثر بوجه الرصد لتناول لاحق بهذه الطريقة فرضت هذه الملاحظات نفسها في التدوين منذ اليوم الأول وتكاملت أبعاد الصورة لتخرج بصيغتها النهائية الماثلة.



مجرد كلمة نوروز هزت مشاعرهم فجاءوا من كل صوب بخطين غير متوازيين تماماً والتقيا على مقربة من صالة العرض، مساهمات البعض خجلى كمن بزفاف أخته، ولعل نشازه الأكبر في الاحتفال طلب التصفيق عند مجيء الوالي كان هذا بمكبرات الصوت وهنا شدة نشارة ومعلوم أن الاحتفالات الجماهيرية بشكل خاص حساسة تلتقط كل التصرفات بسرعة خاطفة كأنها تعيد صياغتها ثانية لتلافي خلل جاء فيها. وتعرضها من جديد أمام الأنظار وجهاً لوجه. ففقرة واحدة مثلاً لكنها موفقة بوسعها أن تسم الحفل بأكمله بالنجاح والمتعة ومن جانب آخر فالمساس حتى البسيط لمشاعر الجماهير المرهفة ينعكس في الحال بمظاهر النفور والانحسار الذي يصعب إيقافه في منسوب الحضور وأمزجتهم. وممارسات كهذه دارت في الاحتفالات للأسف في حيثيات البرنامج وتفاصيله الرئيسية وفي المقدمة منها والأكثر ممجوجة هي لهجة الأوامر الجافة (صفقوا.. ارجعوا للوراء.. ما بكم أجلسوا..) والملاحظة الأخرى هي كذلك جوهرية وهي ميكانيكية الأداء لتمثيلية كاوه الحداد ومأثرته القاصمة لظهر الضحاك فقد افتقرت للحيوية والحركة والإبداع، وكذا الحال في غياب التقليد الرائع في مثل هذه المناسبة القومية الهامة في السنوات الخوالي كانت جبال كردستان الشامخة وقراه الجميلة وحقوله الخلابة هي المسرح الفسيح الطبيعي بعيداً عن القيود والمضايقات والحواجز، كل هذه المواقع كانت تحتفل تنطلق ألسن النيران بمحض ارادتها وبكامل

حريتها في كل القمم الفارغة، ما أبهج مشهد للنار من بعيد لتبديد خفايا الليل الدامس، والنار كما عرفنا في عرف شعبنا الكردي هي دعوى لانتزاع الحرية الحمراء ودحراً للطغيان وأحزمة العتاد حينذاك تكاد تفرغ تماماً مع آخر بصيص ظل ينازع بين مطاوعة النعاس أو أن يندلع ثانية بوجه الظلام وهنا في ماردين فإن الأطفال المساكين هم أكثر من خسروا فقد ضاقت بهم الأرض لم يألفوا القيود ومناشدة السكينة، فقدوا ماضياً حلواً في الحصيلة النهائية أين الفرح الحقيقي وكيف يمارسون تقليدهم كما في كل عام؟ ونوروز وحده عيدهم القومي. أما الأنصار والبيشمركه عموماً فقد كان للمناسبة الماثلة، لنوروز مكانة خاصة في البرنامج الحافل والمكرس لشهر آذار، آذار النضال المفعم بالنشاط والعمل وجماهيرنا في العراق يأخذون من الحدث العبرة ويتعاملون مع جوهره المتحرك سيما والضحاك ما برح قائماً في بلادنا، وكاوه مهمته بمقدار ما هي شاقة يراد لها معالجة الثغرات بين الحداد وجمهوره وكلماته الحارة تؤدى وكأنها كتبت على لسان الآلاف وأيديهم هي الأخرى تطبق بقوة وثبات كي تكون ضربة معولة ماضية و سديدة، ومن لم يجيد هذا الدور والتفاعل وفق هذه الاعتبارات الهامة فلا يضيف جديداً لكلمات مكتوبة على أوراق تمزقت لكثرة مراجعتها وحفظ نصوصها عن ظهر قلب.



تأمل طفولي بين نوروزين

إذن مقارنة بسيطة بين صورتين أحدهما ماثلة وأخرى قديمة سبقتها بعام الفوارق تثير الحسرة ففي مثل هذا اليوم كان حينها حفلاً جبهوياً بأقل من هذا الحضور لكنه. وهذا الأساس على أرض الوطن الحبيب. هناك كانت للكلمات نكهتها وبعدها المدوي والمساهمات تأتي من القلب صادقة وهناك أيضا للأنصار مهمتهم المشرفة. يحرسون الأجواء ويضمنون للجمهور الطمأنينة والسلامة. لم تكن الآهات آنذاك تشكل فقرة بحد ذاتها. أما اليوم فالظرف آخر والثغرة كعين الشمس ولهذا وملافاة لشيء مما يكدر الخواطر. يتقدم الرجل الجثم ذو البشرة السمراء من بين الفقرات يختار وقته ليطل على الجمهور ويجتث الحسرة من أعماقهم عندما يدوي كأنه في عالم آخر

(لن نموت نحن أكبر من جبل متين وأعلى من سلسلة كاره... أبداً سنبقى للأمام) وعندي أن هذه المساهمة كانت الأكثر وقعاً في النفوس ومع أنني لا أعرف هذا الرجل قبل الآن لكنه ذكرني ببطل السودان عبد الخالق محجوب بملامحه العامة.



الحشد الجماهيري قبل بدء الاحتفال بنوروز عام ١٩٨٩

لا يخفي أن في الاحتفال هيمن الشعور بالخيبة بشكل كامل واعتصرت القلوب إلى جانبها نزوع للحرية بحدودها الدنيا كخطوة أولى في البداية منطلقاً لحرية الوطن بأسره، إذ لازال بصيصاً من الأمل يجول في النفوس، وكلمة المناسبة هي الأخرى مصابة بوعكة حادة، لم تكن ملهمة لأحد وهي ليست سوى كلمات كثيرة باردة.. باردة ألقى بها دون لطف على ورقة بل أوراق كثيرة لم تأتِ بجديد ولا تحمل حلولاً لأي معضلة وحتى لم تراع

المهمات القادمة بشكلها البسيط المناطة بالأحزاب وجماهيرنا فهي تتجاهل هذا وتغض الطرف عن الأزمة الحقيقة وتخشى تعاطي الصراحة حتى مع نفسها كانت كلمة طويلة مملة وعبئاً على قارئها المتكلف كثيراً وقلوب كانت متوجسة من فقرات البرنامج الرسمي الثقيل.

أما فقرات النضال الحقيقي فهي تسجن في القلوب لأجل غير مسمى تلك القلوب التي تصمت اضطراراً وحتى انطلاقه الإرادة الجماهيرية الكامنة حين تنفجر مشاعرها حينذاك تعرف عرسها الفعلي ذاك هو المناخ المنشود الذي يرجي منه ثورة. أما الآن فحري بكل الآهات أن تطمر وأن تشطب الكلمات الوجلة والخائفة، وستهتف يوماً هذه الجموع للكلمة الجسورة الصارمة، ويقيناً أن الحداد لم يترل من السماء سيظهر من بين أهله أن عاجلاً أو آجلاً.



# ستزدهي الكثبان بالورد ثانية

تقاطرت في البال آلاف اللقطات والخواطر والصور وكلمات تكاد لا تكف عن الحركة ، تعلن صراعها الدائم صموداً بوجه الإرهاب وعفة أمام الإغراء مدججة بالأباء والنزعات الإنسانية المشرفة، تسترشد بوجهة القوافل الأولى التي حطت يوماً في ضواحي خيمة ناوزنك المضيافة ولم ترحل منها، ومنها من هناك امتدت تلك القوافل بعزيمة لا توصف إلى بقاع شتى... إلى بيتوش وكوستا وكوماته وورته وكرميان والكوى وكيشان ووادي الخيول في حضن متين وإلى مراني وقاطع بهدينان وكافيه ومقرات أخرى كثيرة، مرتكزات متحركة، هكذا تنمو الحياة فتنمو بجانبها صلابة الثوار وتفاؤلهم وهم يكتشفون المسالك في قلب الصعاب مخترقين عقدها المضنية... كانت براجمهم حينذاك طافحة بما يقربهم من الأحداث، خطوات تبدأ قصيرة ثم تغذ السير فتنطلق لتغطية أوسع المساحات المرسومة لها، مغامرات لا بد منها اثباتاً للبطولة، كل يراجع ابعاد مشواره ويرسم في ذهنه مفاجئات يحلم باحلالها ، نعم يطول بعد الصورة التي تراودنا في الحلم واليقضة فتبدوا العودة للوطن يقيناً لا بد منه وبشكل قوافل ايضاً متزاحمة لكنها اهى من الهيئة التي غادرته بها، ابداً لم يكن بكر تيلاني واهماً بأحلامه التي تثير غضبة من جالسوه وعلي كلاشنكوف هو الأخر حتى النفس الأخير بكامل الحيوية،

وأبو علي النجار موسم بالمثابرة، وخضر حسين موضع احترام مـن عرفـوا طبعه وابو خلود حين رحل منا لم يكن يعرف الخوف ومام كاويس عطـوف على الرفاق ودلوفان تماماً يعبد الحزب وملازم حسان هو النموذج المنتقـي ونزار ناجي يوسف(أبو ليلى) عرفناه بالجرأة والمبداية وعلي حـاجي رمـز البساطة لكن شجاعته نادرة وعباس مهدي (أبو رغد) كأنه على مشـارف بغداد وسيدو عزيز قطعاً أشيائه الهامة لا تغادر حمولة ظهره ودكتور عادل آه كم كان يخدم الفقراء، و انسام عنوان العذوبة وهكذا الحال مـع الكـادر اللامع كاظم طوفان وأبو سمرة السباق للفداء ودلبيرين وأبـو كـويظم ذو الطبيعة الأليفة وأبن العائلة الفقيرة الطيبة وأبو أيار الوفي للمبادئ في لحظات الموت ونور الدين وثائرة وأحلام ومئات آخرين غيرهم لم يكونـوا سـوى عينات فقط من قوى الحزب الهاجمة مترامية الأطراف... انه شـوط غـدا ملحمة وعاصفة اجتاحت السكون، انقضت عليه حتى رمته جثة هامـدة ، إذن ستبقى مياه النبع مبعث الحياة ورمز نقائها، ويبقى متين يشد مـن آزر كاره يبقى اخدود قاهر لكنه وفي معاً، والصباحات وحدها تفتح الـذاكرة، والضربة الخاطفة لطمه العدو، وستبقي كاني ماصى عروسـة في هودجهـا الجبلي وتبقى كل الأماكن المستطلعة والمعالم المدروسـة ثـروة في حصـادنا القادم، ولشعبنا الكردي يبقى شموخه، وتنكفئ خاسـئة كـل الهجمـات، المعادية، تنحسر الكلمات مثار الرعب، وتبقى الأجواء الغائمة هي الأنسب لتنفيذ البرامج المكرسة للمناسبات فالنجاحات لم تذهب سدي والوصول إلى

كل الرمان محسوب الخطوات، وحلبجه ستنهض يوماً من بين الركام، ودموع الرفاق ان سالت ثانية ستقترن بفرحتهم ، ستبقى الصخور الصلدة ملاذنا الحصين، وكردستان هي نفسها مسرحاً للثوار وحرام على الفاشين الطغاة، والثورة مقولة لا تحرف مسارها كحد السيف تشتقه من الحياة وتؤطرة المبادئ، ولظي الحرب شبح يغني الموت المقيت، نعم سيبقى الشعب هو الطاقة الهائلة المتجددة وتبقى الأحداث المريرة تسجيل ناطق ومصور في تلافيف الأدمغة، ونوروز يبقى مشعل وهاج في القمم الشماء، وقلعة دزة، لن تمحى كما يحلم الدخلاء، فمنطق التاريخ لم يقل يوماً شيئاً كهذا لم يتحدث عن شعب تخلى عن ترابه، وخارطة العراق أعطت عهداً أن لا تفرط بذرة من حصاها، وحتى الأسماء القديمة ستبقى تنادي بها المدن التي تعايشت معها ، ويبقى الحرامي خواف، والغربة قاسية، والأحلام انعكاس للواقع، وتبقى الأشياء الثلاثة التالية: اليصاغ التركية وقبضة الجندرمة الخشنة وأسنان الحديد الشائكة المكشرة مظاهر مكروهة في أعين المهاجرين العراقيين ومطبوعة في بالهم، على العكس تبقى مهمة العودة للوطن حلمهم الكبير والبيشمه ركه كلمتهم المرغوبة المجبذة و كردستان يحلمون بها مكتسية بالخضرة والوئام، والحياة بأمان أمل يطرب أسماعهم، وكلي خنوكي(٢٠) مهما تزين سيبقى نقطة سوداء ومشؤومة لتكن الدروس المريرة شاخصة بين الأيدي في مواقعها الميدانية، آن للتجربة أن تصاحب الحركة فالنجاح وليد الإصرار والبصيرة، وتبقى السباحة مهنة أساسية، والعناوين السابقة رغم

قدمها مفيدة، والبارود وحده مكياج الفوهات دون غيرها ومن يختار الغربة من القلب فهو بلا شك في وعكة خطيرة، ويبقى الجبل الأبيض بفخر باسمه الصريح طاهراً تطبع العلنية ويرفض الاسم المستعار، ومطار بامرني يحتفظ ببلاغات اقتحامه لمرات ثلاث كوثيقة براء من دنس الفاشية، ونوجول للآن مذهولة لا تنطق بكلمة واحدة وان فاقت من غيبوبتها وتمتمت بعبارة مفهومة تجدها الشيوعيون قادمون والغدر يبقى في مقدمة الأفعال المشينة.. سوف لن تطول المعاناة فالمسافات بلغت مداها لتنذر بالانفجار، آن الأوان للتخندق وتجميع القوى ولتمتد الأيدي لكل الأصدقاء دون توجس فمن القديم يورق الجديد لتزدهي به الحياة.



تفاؤل الأنصار أيام الحصار



# أيها القارئ الكريم

دمت بخير..

معلوم أن قصة الكفاح المسلح في بلادنا كانت وليدة ظروف قاسية ومعقدة، ومرحلة أنقذت الكثير من الطيبين بما يحملونه من أهداف، كانت قصة واقعية أبطالها هم أنصارنا الميامين المبرمجين بالقناعات الراسخة ووسائل وأساليب المقاومة الثورية.

تلك هي الملحمة النضالية باختصار وفيها حيثيات كثيرة من دروس وصعوبات وإصرار على مداهمة العدو وهز أركانه، إنها مرحلة تستدعي التدوين بجهد جهيد وأمانة وإلمام بحقيقة الأحداث وموضوعيتها ومرارتها وأخطاءها حتى.

والأسماء التالية هي نماذج وحسب لبعض أبطال هذا الكفاح العنيد.. بعض هؤلاء هم أحياء في بقاع من العالم وهم يعتزون بهذه الحقبة من حياتهم القاسية الخشنة لكنها مشرفة، وآخرين منهم وهم كثرة فارقوا الحياة بجسارة تليق بهم فداءاً للشعب وفداءً للوطن وهم مرفوعي الهامات أباة يخثون الخطى للأمام مطرزين جبال كردستان وشعابها بل معظم مدن العراق بنياشين المجد وقسم الثوار الصارم والوفي على الفداء.

لهؤلاء جميعاً ننحني المؤلف





الشهداء الأبطال الدكتور غسان عاكف حمودي وأخوه أبو فيروز وأبو إيمان من البصرة
وثائر من الفاو ويسكن البصرة أيضاً



الشهيد حاتم نمش (أبو كريم) من مدينة الثورة في بغداد
عامل بناء استشهد في اقتحام مطار بامرني عام ١٩٨٧



سيارة الفوج الثالث في بهدينان ويظهر فيها عدد من الأنصار منهم: أبو تغريد، أبو سمكو، كيفي عبادي أبو علا، أبو روزا، أبو أياد وسعدو وآخرين



مفرزة أنصارية في حالة استراحة منها الشهيد داود آكوب (سعدو عزيز) الجالس على اليمين



رياض الناشطة (الحجي أبو هدى) شخصية أنصارية مولعة بالاهتمامات الشعبية، توفي في ألمانيا



الشهيد جبار شهد (ملازم حسان)



الشهيد جعفر عبد الأئمة (أبو ظفر)



الشهيد عباس مهدي (أبو رغد)



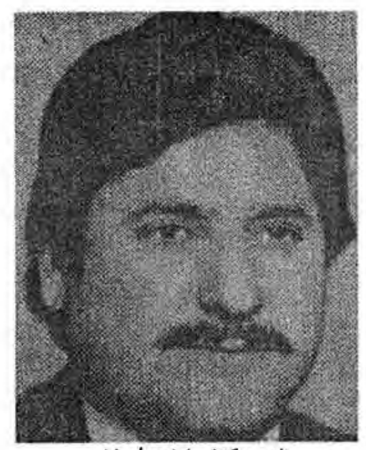
الشهيد نزار ناجي يوسف (أبو ليلى)



الشهيد ناصر عواد (أبو سحر)



الشهيد مام خضر (خضر كاكيل)



الشهيد كاظم طوفان (أبو ليلى)





الشهيد حامد أحمد الزنبوري (أبو حفود)



الشهيد هرمز يوسف يوكا من [illegible]



الأنصار د. سعد من ألقوش وأم نزار وأبو نزار من كاني ماسي يوشح المنطقة جو من الثلج



# غناء لأمهات الشهداء

نـــيرودا

لـــم يمـــوتـــوا

إنهم في وسط البارود

واقفون، كذبالات مشتعلة

ظلالهم النقية

قد اتحدت، في المنحدرات النحاسية

كما لو أنها سجف من ريح مصفحة

كحاجز بلون عاصفة

كصدر السماء اللامرئي

***

أيتها الأمهات

أمواتكن منتصبون في حقول القمح

شامخون كشمس الظهيرة

يطلون على الحقول الواسعة

إنهم رنين ناقوس أسود

يدق للنصر، عبر جسور الفولاذ المحطمة

***

يا أخوات كالغبار المتساقط

يا صاحبات القلوب المتفجعة

آمن بأمواتكن

إنهم ليسوا جذوراً فحسب

تحت الأحجار الملطخة بالدماء

ليسوا مجرد عظام مطروحة

ترقد في الأرض إلى الأبد

بل إنما أفواههم

تعض على البارود الجاف

وتقتحم، كبحار حديدية

وقبضاقم المرتفعة

ترفض الموت

لأن حياة خفية

تنهض بين الأجساد الكثيرة.

**

أيتها الأمهات

اخلعن أثواب الحداد

واجمعن دموعكن

واجعلن منها معادن

هناك سندق ليل نهار

سنركل ليل نهار

سنبصق ليل نهار

إلى أن تنهار أبواب الحقد

***

أنا لا أنسى مصابكن

إني أعرف أبناءكن

وإن أكن فخوراً بمماتهم

فإني أيضاً، فخور بحياتهم

ضحكاتهم كانت تبرق في مصانعهم الصماء

وخطواتهم في (المترو)

كل يوم، كانت ترن بإزائي

ومع برتقال الشرق

وشبكات الجنوب

ومع حبر المطابع

وفوق اسمنت الأبنية

رأيت قلوبهم تؤج

بالنار والعافية

وكما في قلوبكن

أيتها الأمهات

أيضاً، في قلبي

كثير من الحداد

وكثير من الموت

كما لو أنه غابة

مبتلة بالدماء التي قتلت ابتساماتها

يتسلق إلى قلبي

ضباب الأرق الساخط

وعزلة الأيام الناهشة

***

أيتها الأمهات المطعونات بالأسى والموت

انظرن إلى قلب اليوم الذي يولد

واعلمن أن أموتكن يتسمون من الأرض

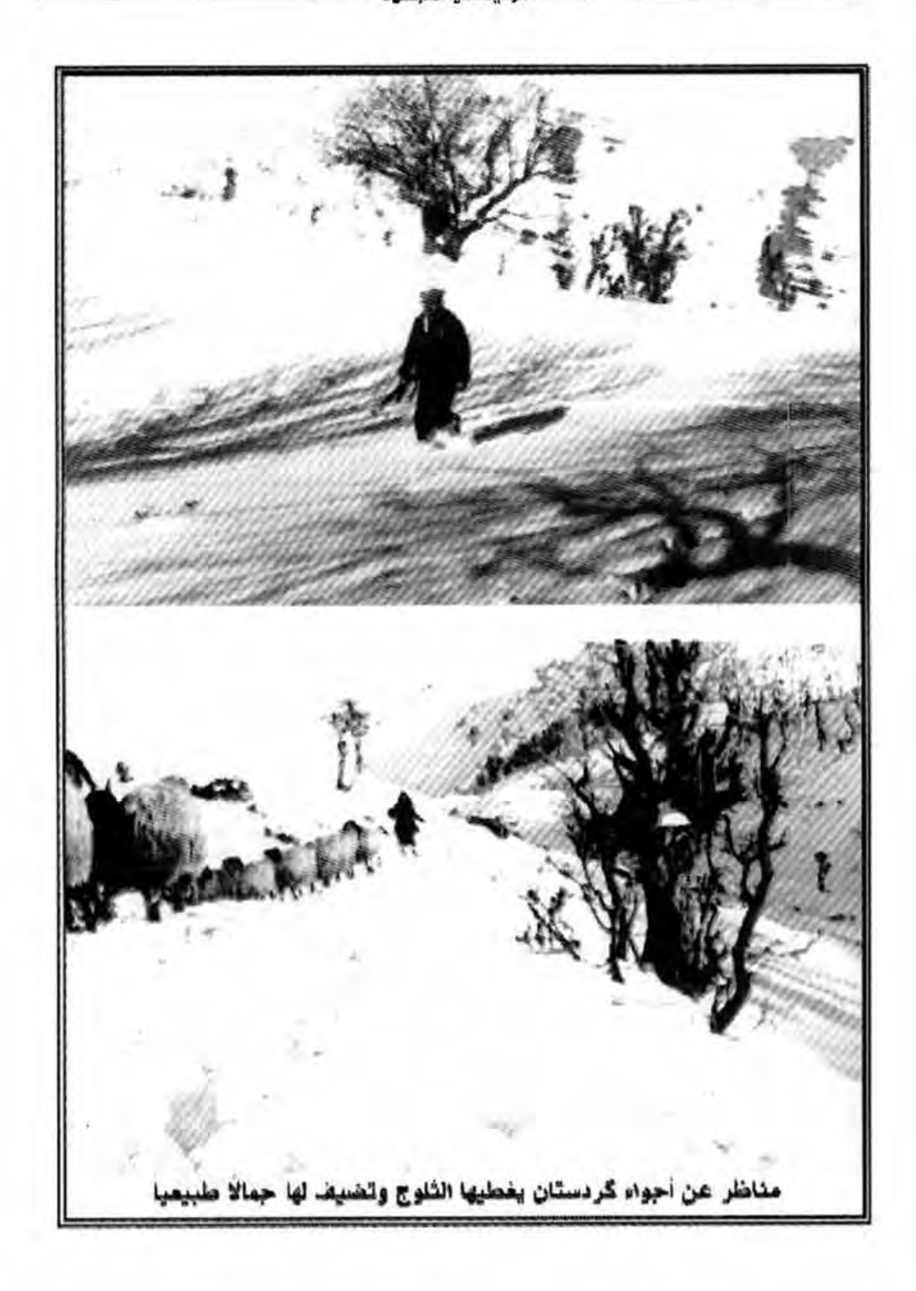
رافعين قبضاتهم فوق سنابل القمح

**

# معالم طبيعية للمقارنة



رمز العطاء



مناظر عن أجواء كردستان يغطيها الثلوج وتضيف لها جمالاً طبيعياً

# الشهيد الفنان فؤاد يلدا [أبو أيار] في الذاكرة

تولد ١٩٥٤ خريج الجميلة في بغداد في السبعينيات ودرس في إيطاليا وتخرج عام ١٩٨٢ وفي نفس العام التحق بصفوف الأنصار في كردستان وتنقل بين الفوج الثالث في وادي الخيول والفوج الأول في مراني ومقر القاطع. يساهم بفعالية في العمليات العسكرية، وذو علاقات وطيدة مع الجماهير ومع الأنصار.

عندما حوصرت مفرزهم أثناء الأنفال عام ١٩٨٨ وأحاطته قواهم على بعد أمتار تماسك كأي ثائر صبور وسدد فوهة سلاحه إلى جبينه مردداً قسم المناضلين، وهذا كان في أيلول ١٩٨٨، إنها طريقة نادرة يختارها الفنان للشهادة.

من سكنة أطراف الموصل وعاش فترات في بغداد، كانت أوراق فنه على الدوام في حقيبة ظهره واللوحات أدناه نماذج لإنتاج الفني:









# الهـوامـش

(١) عقدت السلطة الدكتاتورية في هذه الأيام ندوات في زاخو وسرسنك وإينشكي وباطوفـا أكدت فيها عزمها على اكتساح المنطقة وحذرت من العواقب التي تنتظر البيشمركه، ومن جانب آخر أشاعت بأن مفاوضات تجريها مع المعارضة وإنما بصدد إصدار العفـو العام ومنح الديمقراطية وتحقيق الوئام المزعوم..الخ، وبكلا الاتجاهين تنشط لكن هـدفها الحقيقي هو تنفيذ هجومها الواسع الذي كان على الأبواب.

(٢) قرية كاني بلاف ومعناها (عيون الماء المنتشرة) وهي مسيحية تابعة إلى كاني ماصي أجوائها مفتوحة ومنظرها جميل جداً وعلى شارع معبد، إذ تراها وأنت من علـو منـها كأنها حديقة واحدة وهي كذلك يرتادها الأنصار وهي ملتقى الكـثيرين بأهلـهم وقضـاء إجازاتهم ومركز مهم للحركة من كل القوة وفيها ذكريات ومنها تصل الأخبار عـن المدن وفيها الإشاعات أيضاً وعلى طرف منها هناك الكنيسة والمقبرة حيث يرقد رفاقنـا الشهداء أبو حسن (فرنسوميا) ودلوفان وسليم (خليل ماكليسك-دوشاب اليافع سالم) رف القرية حركة تجارية وتحصد ممتلكات المسيحيين هناك للاستباحة أحياناً.

(٣) قرية بليزان: واحدة من قرى برواري باله مسرح الأحداث وقريبة من مقرات الأحـزاب المعارضة وشهدت عشرات الآلاف من الجماهير أثناء انسحابهم إلى تركيا.

(٤) بازى: قرية في برواري باله يسكنها الإسلام والمسيحيين على طرف منها يقع كلي بازي (وادي بازي) الذي استقبل الآلاف من الجماهير وحوصرت هناك يوم ١٩٨٨/٨/٢٩ وأبيدت مئات الأرواح الطاهرة.

(٥) كلي هسبة: (وادي الخيول) وهناك مقر الفوج الثالث للحزب الشيوعي العراقي.

(٦) الدوسكي: منطقة واسعة قرب دهوك وبعيدة عن مناطق العبور في برواري باله تسكنها عشيرة بهذا الاسم.

(٧) عصر يوم ١٩٨٨/٨/٢٦ بث بيشمركه حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني إشاعة أن كل نقاط العبور يسيطر عليها الجيش والعبور مستحيل وتسبب هذا في تأخير عبور الجماهير وتعرضوا للقصف في اليوم القادم في كلي بازي.

(٨) إنها تقصد بنا نحن البعيدين عن الأهل: الرفاق العرب من محافظات الجنوب والوسط والمقطوعين عن الأهل منذ عشرات سنوات وأكثر نعيش في كردستان العراق وهكذا يعطفون عليهم لهذه الاعتبارات.

(٩) نقطة متين هي نقطة إسناد فوق جبل متين لحماية المقرات من الجانب الثاني وهي نقطة مشتركة لكل الأحزاب ولديهم السلاح الثقيل وأجهزة الاتصال أيضاً.

(١٠) برج البراجنة هي أروع غرفة من غرف المقر وأعلاها وأكثرها صيانة وهكذا عرفت بهذا الاسم المأثور.

(١١) نفس بيشمركة حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني حذرونا هذه الليلة من محاولة العبور الذي لم يعد ممكن من أي مكان وأي محاولة للعبور تعني محاولة للانتحار، قلنا سوف نعبر أن تطلب الأمر عشرات الشهداء.

(١٢) السبندار: أشجار مستقيمة طويلة يستفيدون منها في أمور كثيرة ويسقفون بها البيوت وهي ثروة جيدة للفلاح.

(١٣) الجرف: حافة النهر التي تعتليها مياهه ثم تنسحب منها.

(١٤) الخانك: قطعة خشبية مستديرة يفرشون عليها رغيف الخبز الخفيف الذي يعدونه علــى الصاج.

(١٥) القشورية: من أكراد تركيا يسكنون الحدود المحاذية للعراق وأغلبهم يشتغلون بالتجارة وجشعين ولهرهدوا أموال الجماهير العراقية المهاجرة.

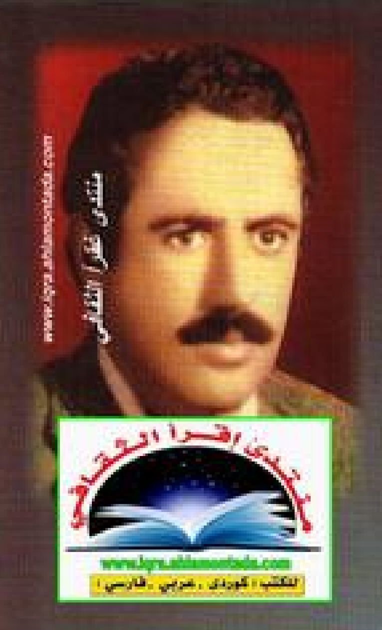
(١٦) الكنجر: كلمة كردية معناها الملابس المستعملة (أي أسمال) والتي تأتيهم تبرعات.

(١٧) حسن: هو مسؤول الأمن التركي في سلوبيا والذي لا يتوانى عن مضــايقة الجمــاهير العراقية هناك.

(١٨) الدوسكي: منطقة في بهدينان والعشائر التي تسكنها تنسب إليها أما الريكــانيين فهــم عشائر أيضاً عرفت بولائها للسلطة لخلافات تاريخية طبعتهم بهذا الموقف.

(١٩) كلي خنوكي: هو وادي وقرية على الحدود العراقية التركية تجمعت فيــه الجمــاهير العراقية المهاجرة في نهاية آب ١٩٨٨ هروباً من جرائم النظــام العراقــي وســلاحه الكيمياوي ومن هناك دخلوا تركيا.

# المحتويات




# الرحيل في المجهول

لمحات ميدانية موثقة لنصير عراقي عن الأحداث الدامية والغزو الإرهابي الشامل لنظام صدام الفاشي وبشاعة بطشه عندما اجتاح كردستان العراق بغازات الموت الغادرة أواخر آب (١٩٨٨) ثم إشارات خاطفة ومتنوعة عن الحياة في مخيم ماردين، بؤسها ومكابدات الموت فيها وصولاً للمديات المتأزمة عندما يطفح الكيل، حيث مرحلة نفاذ الصبر، لتبدأ مراحل استنهاض المشاعر البشرية بالرفض والتمرد والإصرار على المقاومة، وحرصاً على إبقاء شذرات من البسالة وإشراقة من الأمل الثوري كوشائج للتواصل المتلاحم مع الوطن المخضب بدمائه وقلب يهفو إلى هناك. فحقاً ما قاله النواب يوماً:

"ما أظن أرضاً رويت بالدم والشمس كأرض بلادي
وما أظن حزناً كحزن الناس فيها
ولكنها بلادي
لا أبكي من القلب
ولا أضحك من القلب
ولا أموت من القلب، إلا فيها.."

من مطبوعات المديرية العامة للطباعة والنشر في وزارة الثقافة
السعر (3000) دينار